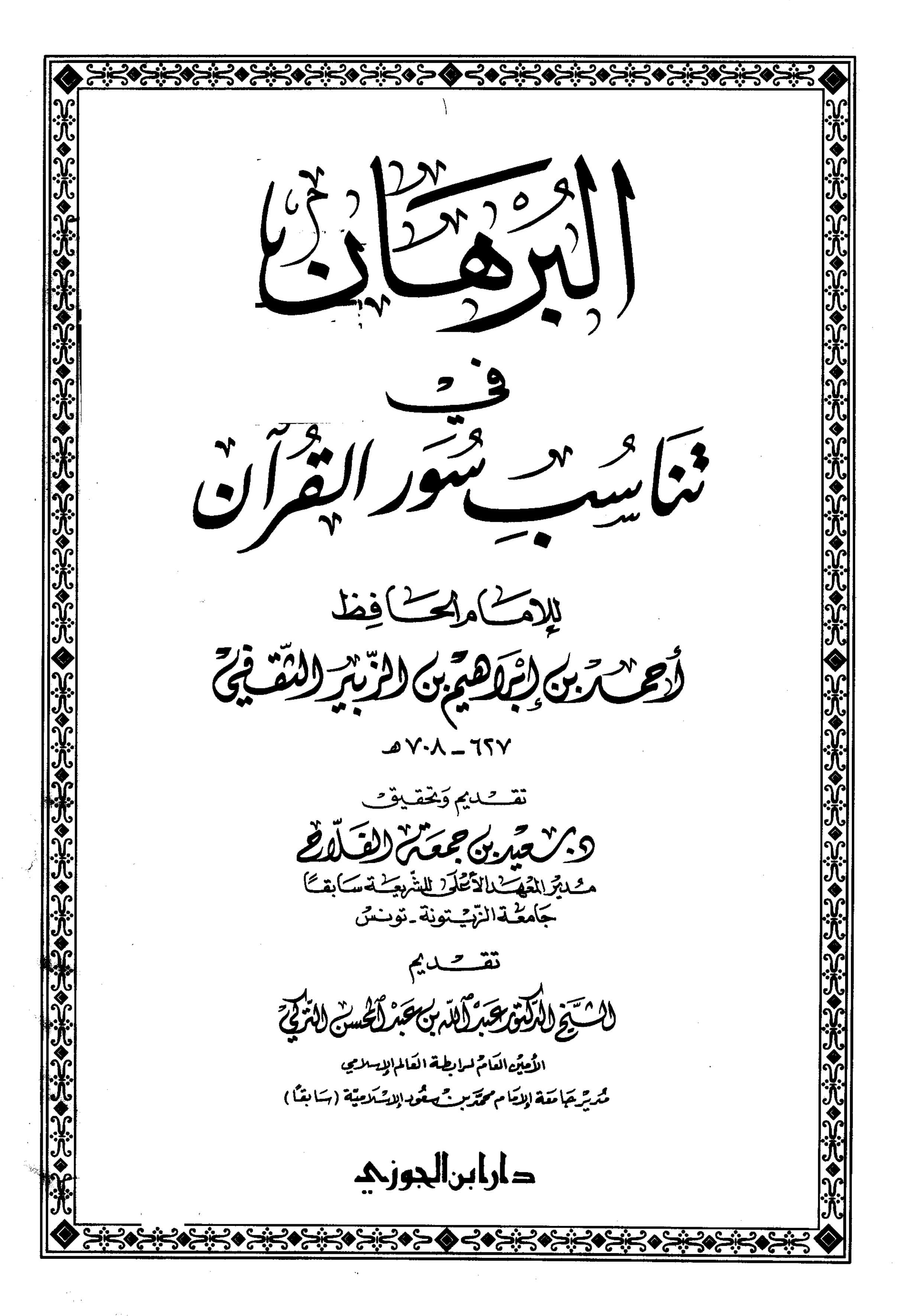
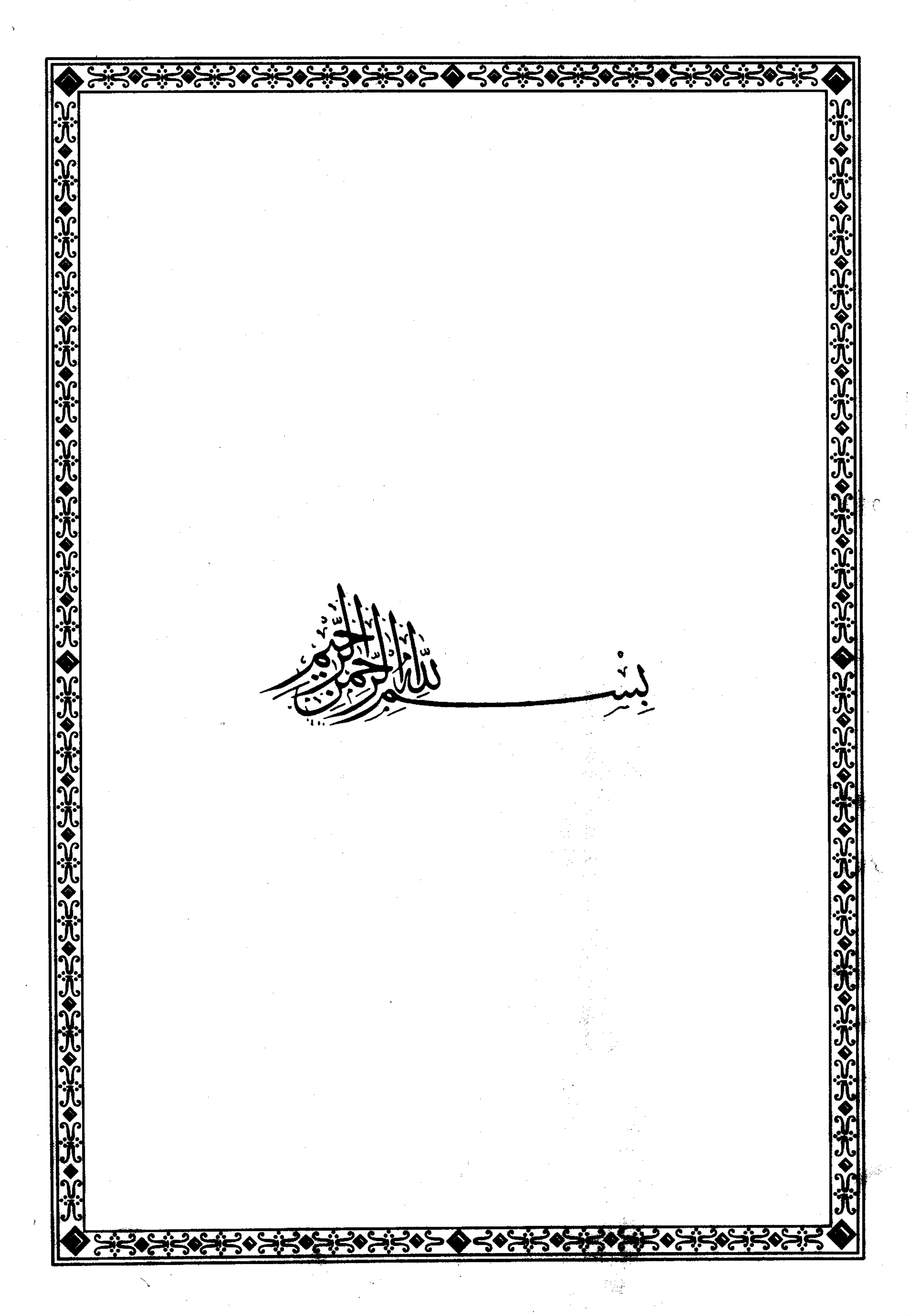
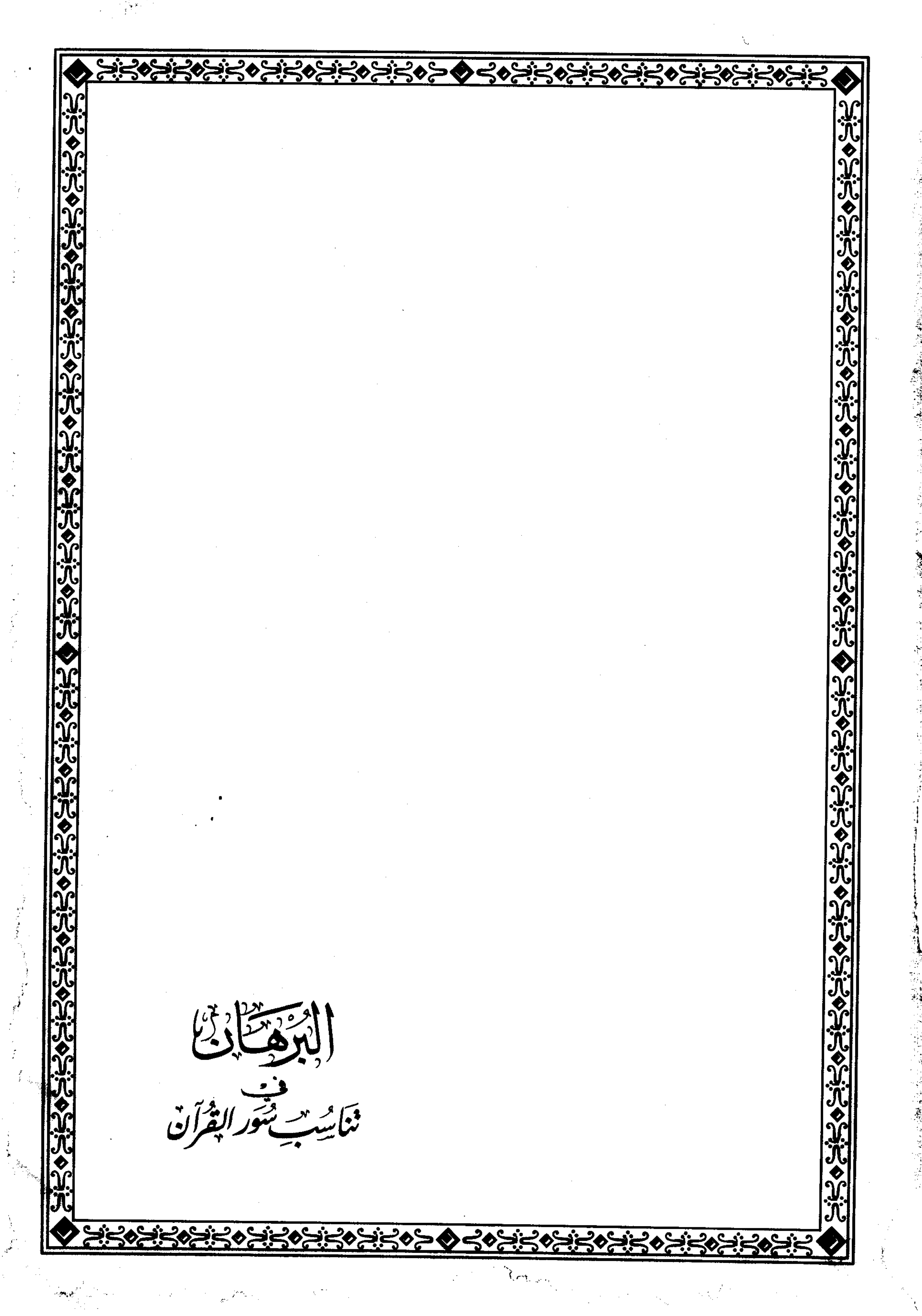

البرهان
في
تناسب سور القرآن
للإمام الحافظ
أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي
٦٢٧ - ٧٠٨ هـ
تقديم وتحقيق
د. سعيد بن جمعة الفلاح
مدير المعهد الأعلى للشريعة سابقاً
جامعة الزيتونة - تونس
تقديم
الشيخ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي
الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي
مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (سابقاً)
دار ابن الجوزي

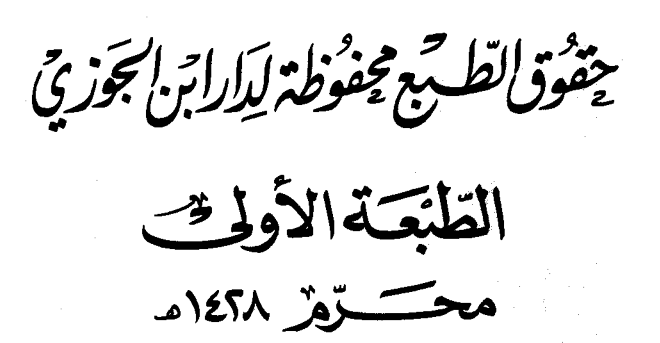

بسم الله الرحمن الرحيم



البرهان

في

تناسب سور القرآن





دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية، الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - ت: ٤٢٦٦٣٣٩ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ -
جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - الخبر - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ -
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج م ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٣٤٤٩٧٠
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، وصلاة دائمة على محمد خير الورى.

وبعد: فإن كتاب «البرهان في تناسب سور القرآن» الذي صنفه الإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي (ت٧٠٨هـ) من نوادر ما ألّف في الكشف عن أسرار النظم والمناسبة بين سور القرآن الكريم، ومن أقدمها وأبسطها، اعتمده وعوّل عليه أكثر من ألَّفَ في هذا الفنّ قديماً وحديثاً.

وحين تيسَّر لي ـ بعون الله ـ تحقيقه تولّت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إخراجه في طبعته الأولى سنة ١٤٠٨هـ بمبادرة مشكورة ولفتة كريمة من مديرها يومئذ معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بارك الله في عمره وأجزل له الأجر والثواب.

ولمّا كانت هذه الطبعة طبعة داخلية وفي عدد محدود من النسخ لم يتم للكتاب الرّواج المطلوب، ولم يصل إلى أيدي أهل العلم والمهتمين بهذا الجانب من الباحثين والطلّاب، وبقي الطلب عليه متزايداً.

وسعياً إلى تلبية هذه الرّغبات وتمكين أهل العلم من الإفادة من هذا الكتاب المهم في بابه، صحّ العزم ـ بعون الله وتوفيقه ـ على إخراجه في طبعة ثانية تتدارك فيها الأخطاء اللغوية والمطبعية والأنقاص المتصلة بالشكل والإخراج والتنظيم التي ظهرت في الطبعة الأولى.

والله أسأل أن يجزل لمؤلفه حسن الثواب، وأن يكتب لكل من

أسهم في طبعه وإخراجه ووضعه بين أيدي الناس حسن العاقبة وحسن المآب.

إنه وليّ ذلك والقادر عليه. وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيّنا محمد.

المحقق
د. سعيد بن جمعة الفلّاح
٢٥/٤/١٤٢٧هـ

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. . وبعد:

تحرص الجامعة على مد جسور الاتصال مع الجامعات والجمعيات والهيئات والأفراد في كل مكان من أرجاء العالم الإسلامي على اختلاف مواقعهم وتعدد لغاتهم، مشعرة لهم بأن قاعاتها ومقاعد الدراسة بها، والإمكانات الموجودة فيها كافة مسخرة لخدمتهم وتقديم العون الممكن لهم وفي صور شتى، من بينها: المنح الدراسية، وإمدادهم بالمدرسين، وتزويدهم بالكتب النافعة، ونشر إنتاج المبرزين منهم في مختلف فروع العلم وميادين البحث العلمي.

والجامعة تضع الكتاب الإسلامي في مقدمة اهتماماتها تحقيقاً وطباعة ونشراً وتوزيعاً، مستمدة ذلك من رسالتها تجاه المجتمع الإسلامي وواجبها تجاه الدعوة والدعاة والذود عن حياض الإسلام، وإبراز تعاليمه السمحة ومُثُله العالية، وصلاحيته لبسط العدل والأمن والرخاء في المجتمعات العالمية.

ومتى كان الكتاب المحقق يتصل بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، دستور هذه الأمة وطريقها للفلاح والنجاح، فإن الاهتمام به يتضاعف والأولوية في النشر تتأكد، ابتغاء مرضاة الله تعالى وخدمة لطلاب العلم وأهله.

والكتاب الذي بين يدينا **«البرهان في تناسب سور القرآن»**، للإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي، المتوفى سنة (٧٠٨هـ) والذي يبحث عن موضوع ترتيب السور كما هو الآن في المصحف، كتاب أصيل من نوادر المخطوطات في هذا الفن، ويعد عمدة المصنفات في هذا الباب، بل هو أقدم المؤلفات المعروفة التي أفردت فيه، وكثيراً ما ذكره العلماء وأحالوا إليه ونقلوا واستفادوا منه.

وقد صدّر المؤلف كتابه بمقدمة بيَّن فيها دوافع تأليفه، ومهد له بباب تكلم فيه عن ترتيب السور وخلاف العلماء فيه: هل هو توقيفي أو اجتهادي؟

وقد سار المؤلف في منهجه على ذكر مقصد السورة، أو مقاصدها وموضوعها الأساسي، أو موضوعاتها المختلفة، ثم يلتمس العلاقة بين هذه الموضوعات وموضوعات السور السابقة فتظهر بذلك المناسبة.

ومما يستفاد من هذا الكتاب الجليل ـ عدا غرضه الأساسي، بيان المناسبات بين السور ـ بيان مقاصد سور القرآن الكريم وأغراضه، إذ لا تتضح المناسبات إلا باتضاح الأغراض والمقاصد، وهي فائدة جليلة ملازمة لفوائد المناسبات.

ومحقق الكتاب الأخ الفاضل الدكتور سعيد الفلاح المدرس بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتونس، بذل جهداً طيباً في التقديم لهذا الكتاب وتحقيقه، فقد قدم لعمله بمدخل ضمَّنه الحديث عن ثلاثة مباحث:

تضمن المبحث الأول ترجمة موجزة للمؤلف تحدث فيها عن حياته ومكانته العلمية.

وتحدث في المبحث الثاني عن ترتيب السور بين التوقيف والنظر، وأورد فيه آراء وأدلة من قال بالتوقيف، ومن انتصر للاجتهاد، ومن فصّل.

وخصص المبحث الثالث للحديث عن مناسبة آي القرآن وسوره، أصّل فيه هذا العلم وأوضح فوائده، وبيَّن ضوابطه، وآراء العلماء فيه، ومكانة المناسبة والسبب.

ثم بدأ التحقيق لنص الكتاب معتمداً على نسختين من المخطوطات إحداهما من المكتبة الوطنية بتونس، والأخرى من الخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط، منتهجاً إثبات النص المختار منهما.

ثم أكمل جهده المشكور بوضع فهارس مختلفة للكتاب تُعين على الاستفادة منه، وحيَّا الله خادم الحرمين الشريفين ومعاونيه من إخوانه وحكومته الرشيدة، الذي ما فتئ يدعم مؤسسات العلم ودُوره، ويعمل بدأب على نشر

علوم القرآن والسنة النبوية ويحيي معالمها، وينهض بالبلاد على هديهما، ويقف بها سدّاً منيعاً وطوداً شامخاً أمام دعاة الفتنة والتفرق والضلال، ويوظف طاقات البلاد لخدمة الإسلام والمسلمين وخيرهم دنيا وأخرى.

نفع الله بهذا الكتاب، وأجزل المثوبة والأجر لكل من أسهم في إخراجه وأعان على نشره وتوزيعه، إنه سميع مجيب الدعاء. والحمد لله رب العالمين..

مدير

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

عبد الله بن عبد المحسن التركي



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].

أما بعد: فإن كتاب الله ﷻ كان وما يزال منبعاً ثرّاً لفنون وعلوم كثيرة، ومصدراً للطائف وأسرار غزيرة، ومن أَجَلِّ علومه ولطائفه وأسراره في نظمه وأسلوبه، علمُ المناسبة بين الآي والسور، وهو علم ـ مع جلالة قدره ـ قلّ فيه التصنيف، لدقته وبُعْدِ غَوْره.

وكتاب «**البرهان في تناسب سور القرآن**» لابن الزبير الثقفي، الذي وفقني الله لتحقيقه، من نوادر ما أُلف في هذا الفن وأقدمها، فكثيراً ما اعتمده وأحال عليه الجِلَّةُ من العلماء[1]، أبرز فيه صاحبه وجه المناسبة بين سور القرآن الكريم، وصدّره بمقدمة أوضح فيها الدافع الذي حمله على تأليفه، وبباب في التعريف بترتيب السور[2].

المنهج العام للتحقيق:

ـ قدمت للتحقيق بمدخل ضمنته ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في ترجمة المؤلف: عرفت في هذه الترجمة باسمه، ونسبه، ومولده، ونشأته، وخصاله، ومذهبه، وشيوخه، ومكانته العلمية، ومؤلفاته، وتلاميذه، ووفاته.

---

(١) الزركشي في البرهان: ١/ ٣٥، برهان الدين البقاعي في مواقع من تفسيره: نظم الدرر في تناسب الآي والسور، السيوطي في الإتقان: ٢/ ١٣٨، صبحي الصالح في مباحث في علوم القرآن: ١٥٦ وغيرهم.

(٢) انظر التعريف بهذا الكتاب ضمن مؤلفات ابن الزبير: ص٣٧.

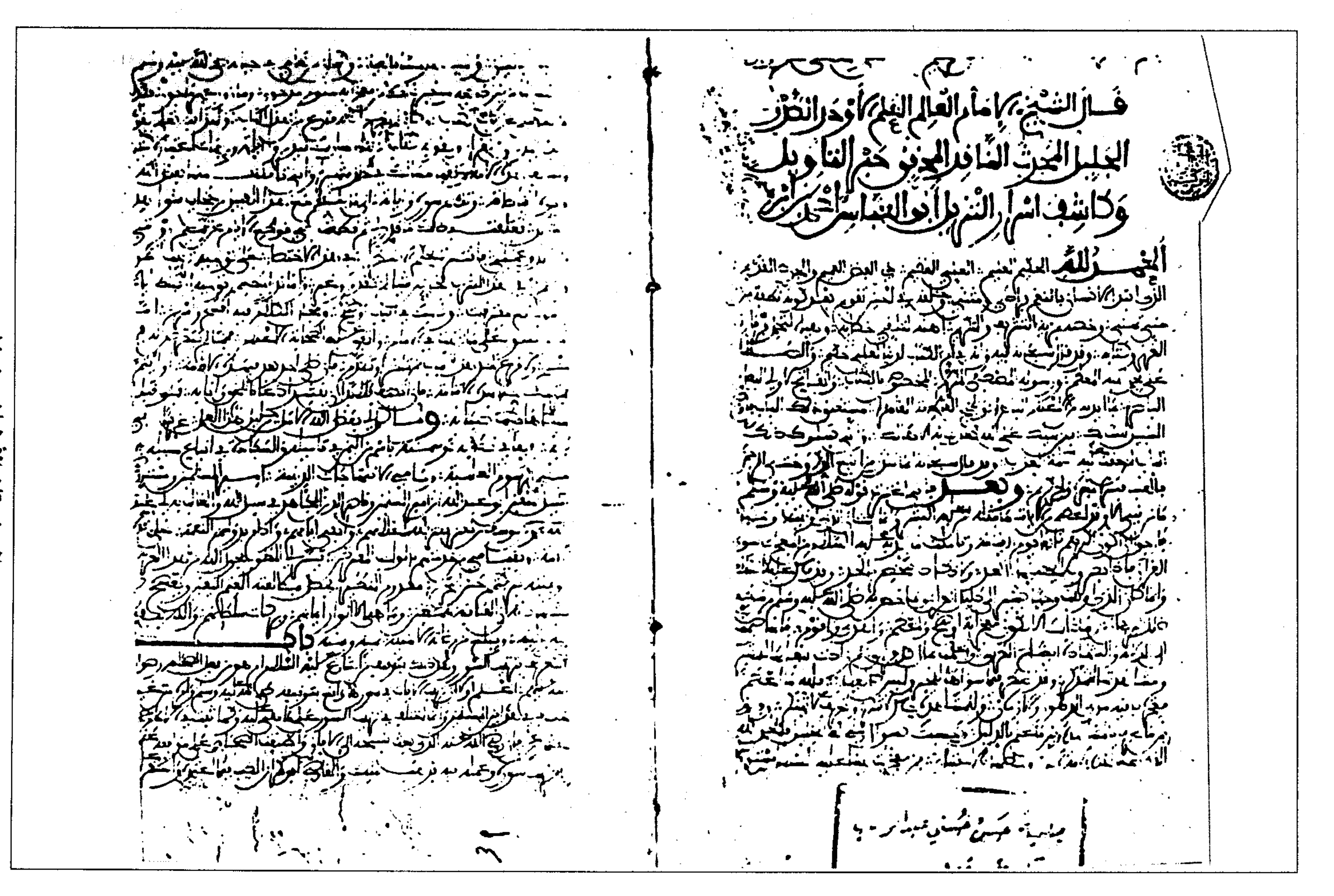
المبحث الثاني: في ترتيب السور بين التوقيف والنظر، بسطت فيه قضية ترتيب السور في المصحف، وهل ذلك بتوقيف أو بنظر؟ لصلتها المتينة بالمناسبة، وأوردت آراء من قال بالتوقيف، ومن انتصر إلى الاجتهاد، ومن فصَّل، وأدلّة كل فريق.

المبحث الثالث: في مناسبة آي القرآن وسوره، أصَّلْتُ فيه هذا العلم، وأوضحت في اختصار فوائده، وضوابطه، وآراء العلماء فيه، ومكانة المناسبة والسبب.

ـ أما عن التحقيق فقد اعتمدت فيه نسختين:

النسخة الأولى: موجودة بقسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية بتونس ضمن مجموع تحت رقم ١٨٦٠٧ من رصيد مكتبة حسن حسني عبد الوهاب ﷺ، تقع في ٨٤ صفحة من حجم متوسط، بخط مغربي واضح، وفي حالة حسنة، عناوين السور بها بخط بارز، تعود إلى منتصف القرن التاسع إذ تمّ نسخها يوم الجمعة الثاني عشر لمحرم فاتح ستة وخمسين وثمان مائة (٨٥٦هـ)، قيدها لنفسه محمد بن علي بن محمد بن علي بن قاسم بن الأزرق الحميري. وفيما يلي صورة للصفحة الأولى وأخرى للصفحة الأخيرة من هذه المخطوطة.

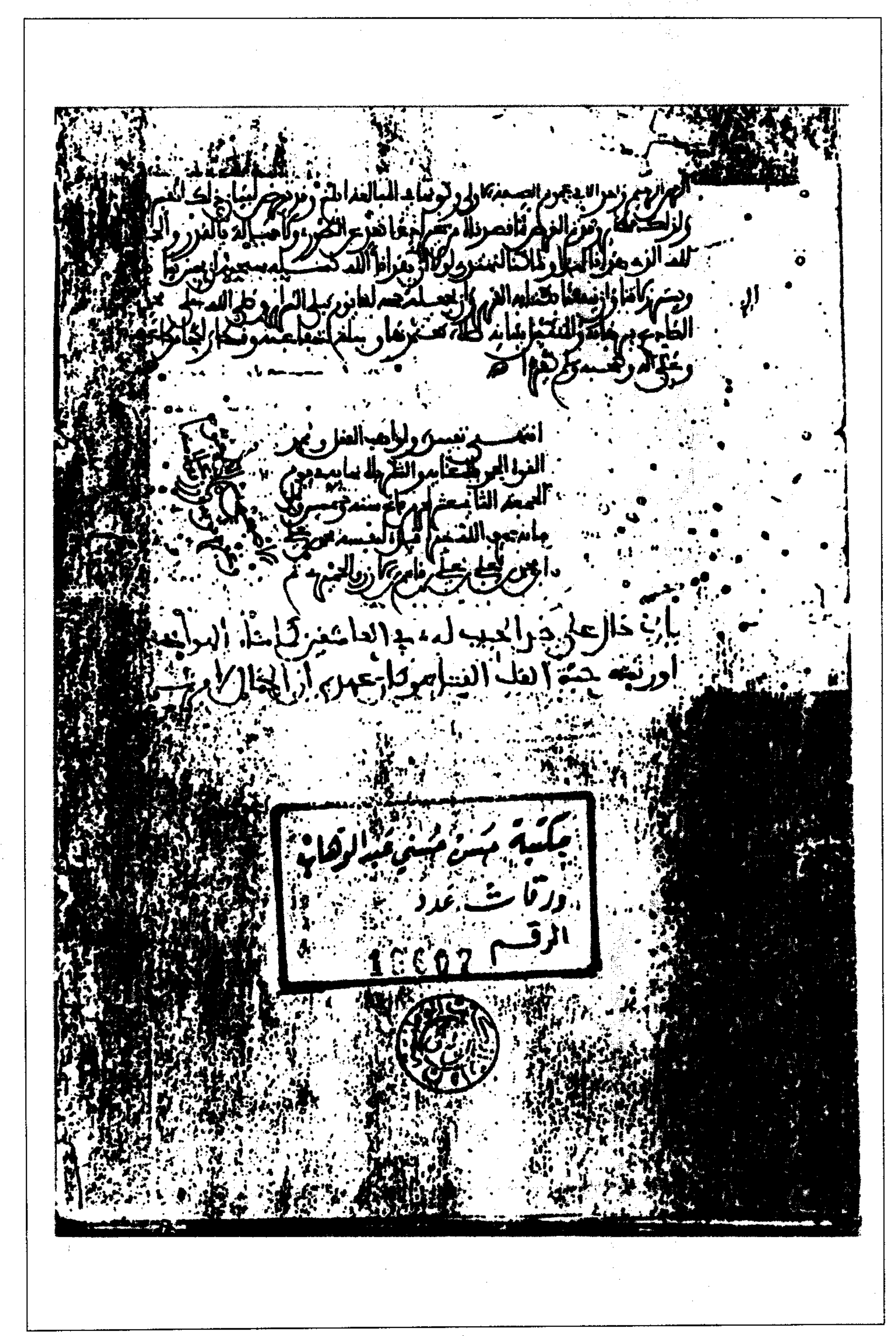
النسخة الثانية: من الخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط قسم حرف الكاف (خ ـ ع ـ ك) ١٣١ ضمن مجموع، مجهولة التاريخ لبتر بآخرها، بها آثار رطوبة في بعض أوراقها، وهي من حجم متوسط وبخط مغربي واضح عموماً، وعناوين السور فيها بخط بارز. وفيما يلي صورة للصفحتين الأوليين وأخرى للصفحة الأخيرة من هذه المخطوطة.



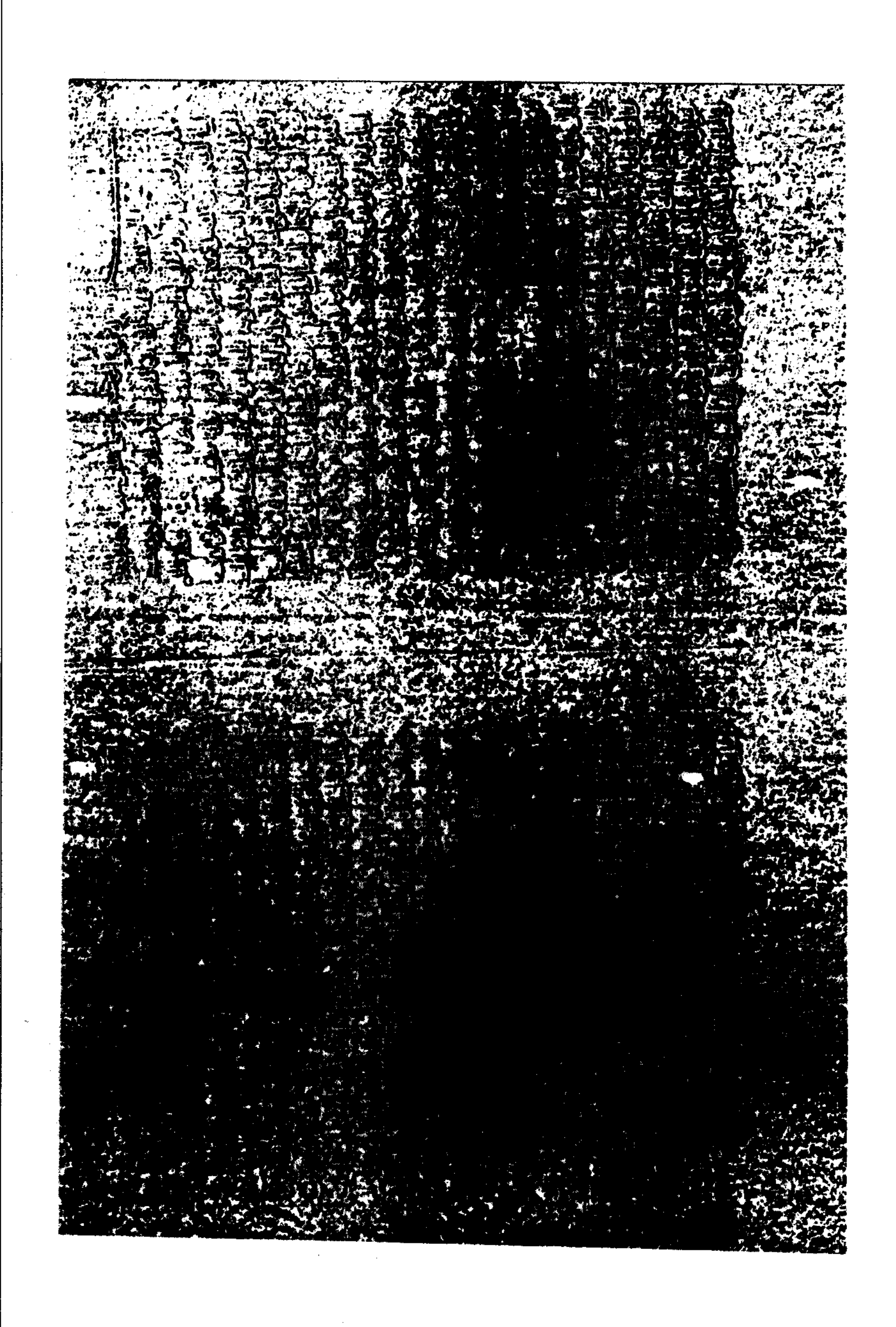
قال الشيخ الإمام العالم العلم أوحد الدهر
الجليل المحدث الناقد المبرز حجة التأويل
وكاشف أسرار التنزيل أبو العباس أحمد

الحمد لله

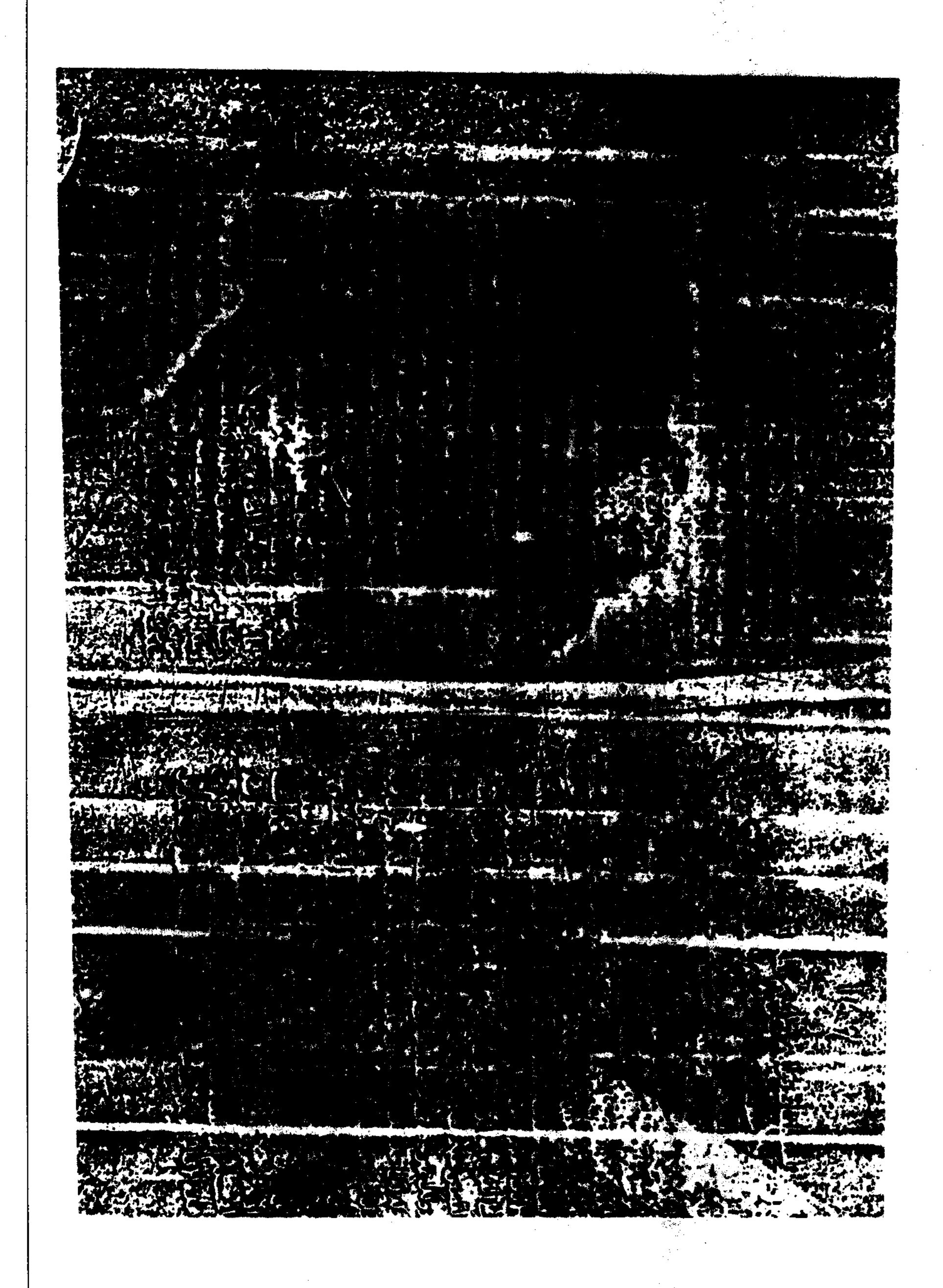
الصفحتان الأوليان من ن١



الصفحة الأخيرة من ن١



الصفحتان الأخيرتان من ن٢



الصفحة الأخيرة من ن٢

مفتاح الإشارات والرموز:

ن ١ : رمز لنسخة المكتبة الوطنية بتونس.

ن ٢ : رمز لنسخة المغرب.

( ): حصرت بهما ما سقط من إحدى النسختين أو خالفت فيه الأخرى.

﴿ ﴾: حصرت بها الآيات القرآنية.

/ : خط مائل فصلت به الرقم المشير إلى الجزء والرقم المشير إلى الصفحة.

سقط من كذا: عبارة دالة على أن المحصور بين حاصرتين ساقط من النسخة المشار إليها.

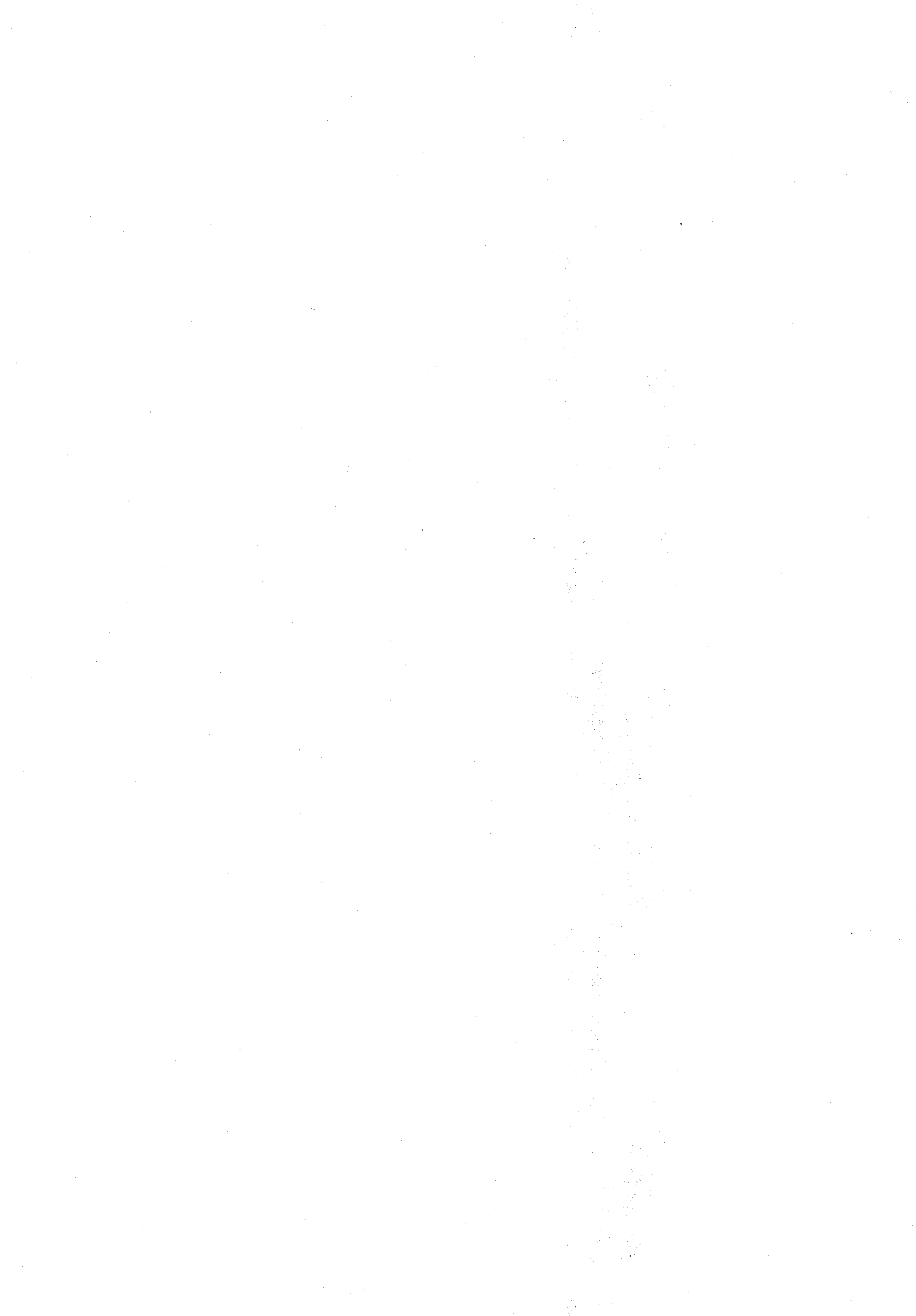
بهامش كذا: عبارة دالة على أن المحصور بحاصرتين كتبه الناسخ بالهامش.

ص : اختصار كلمة صفحة.

ط : اختصار كلمة طبعة.

ج : اختصار كلمة جزء.

والله ولي التوفيق



المبحث الأول

ترجمة المؤلف[1]

اسمه ونسبه:

هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم[2] بن الزبير[3] (بن الحسن بن الحسين بن الزبير)[4] بن عاصم بن مسلم بن كعب[5] بن مالك بن علقمة بن خباب بن مسلم بن عديّ بن مرة بن عوف بن ثقيف[6]، يكنى بأبي جعفر، وعُرف بنسبته إلى جده الأول الزبير، وغلب عليه ذلك.

وهو العاصمي نسبة إلى جده الثامن، والثقفي من بني ثقيف نسبة إلى جدّه الأخير، والجيّاني نسبة إلى مسقط رأسه «جيّان»، والغرناطي نسبة إلى غرناطة التي استقر بها وصار عَلَماً من أعلامها، وَلِيَ بها قضاء المناكح وإمامة

(١) أخذت ترجمته من البدر الطّالع للشوكاني: ٣٣ ـ ٣٥، تذكرة الحفاظ للذّهبي: ٤/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦، الذّيل والتكملة لابن عبد الملك: ١/ ٣٩ ـ ٤٥، شجرة النور الزكية لمخلوف: ٢١٢، بغية الوعاة للسيوطي: ١/ ٢٩١، الديباج لابن فرحون: ٢٤٥، الدرر الكامنة لابن حجر: ١/ ٨٩ ـ ٩١، درة الحجال لابن القاضي: ١/ ١١ ـ ١٢، فهرس الفهارس للكتاني ١/ ٣٤١، الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣، نفح الطيب للمقري: ٦/ ٩٨، الإحاطة لابن الخطيب: ١/ ١٨٨ ـ ١٩٣، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: ٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧ (انظر في ذلك ثبت المصادر والمراجع في الفهارس بآخر الكتاب).

(٢) إلى هذا الحدّ تتفق أغلب كتب التراجم، وفي معجم المؤلفين لكحالة: ابن الزبير بن الحسن بن الحسين، ويبدو أنه خطأ.

(٣) سقط من الإحاطة والبدر الطّالع والدرر الكامنة.

(٤) سقط من الإحاطة والبدر الطالع والدرر الكامنة.

(٥) يقول ابن عبد الملك في الذّيل والتكملة ١/ ٣٩: كذا نقلت نسبه من خطّه.

(٦) كذا ورد في الذيل والتكملة وفي الإحاطة.

جامعها الكبير، والأندلسي نسبة إلى وطنه الأندلس[١]، وهو من أبناء العرب الداخلين إلى الأندلس[٢].

مولده ونشأته:

ولد ابن الزبير الثقفي في ذي القعدة[٣] أواخر[٤] سنة سبع وعشرين وقيل: ثمان وعشرين[٥] وستمائة للهجرة (٦٢٧ أو ٦٢٨هـ) الموافق لسنة ثلاثين ومائتين وألف للميلاد (١٢٣٠م)[٦] بمدينة جيان[٧].

كانت جيان يومها من القواعد الإسلامية الهامة، تقع شمال غرناطة وشرقي قرطبة. وجاء في الإحاطة: أنها كانت منزل قنسرين من العرب الداخلين[٨].

يقول ياقوت في معجمه[٩]: جَيَّان بالفتح ثم التشديد وآخره نون، مدينة لها كورة واسعة بالأندلس، تتصل بكورة ألبيرة، مائلة عن ألبيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة، بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخاً، وهي كورة كبيرة تجمع قرى كثيرة وبلداناً... وكورتها متصلة بكورة تدمير وكور طليطلة[١٠].

ولد ابن الزبير في أسرة عريقة النسب ذات ثراء ويسار ووجاهة. جاء في الإحاطة: نسبه بها كبير، وحسبه أصيل، وثروته معروفة... ولأبيه إذ ذاك إثراء وَجِدَة أعانته على طلب العلم وإرفاد من أحوجته الأزمة في الزمان من

---

(١) جاء في معجم المؤلفين: الثقفي العاصمي الجياني أبو جعفر، وفي درة الحجال: الثقفي العاصمي الغرناطي الأندلسي.

(٢) الأعلام للزركلي: ١/ ٨٣.

(٣) عن الدرر الكامنة: ١/ ٨٩.

(٤) عن الإحاطة: ١/ ١٨٨.

(٥) معجم المؤلفين وفهرس الفهارس، والتكملة.

(٦) في الأعلام، ومعجم المؤلفين وبروكلمان.

(٧) تجمع المصادر على أن ابن الزبير جياني المولد.

(٨) الإحاطة: ١/ ١٨٨.

(٩) معجم البلدان لياقوت: ٢/ ١٦٩.

(١٠) «جيان» اليوم مدينة بإسبانيا ومركز ولاية تسمى باسمها.

جالية العلماء في قرطبة وإشبيلية...[1].

ولد بجيّان وترعرع بها، إلا أن إقامته بها لم تطل، إذ خرج به أبوه منها سنة ثلاث وأربعين وستمائة (٦٤٣هـ) عند تغلُّب العدو عليها[2]، فكان عند مغادرته لها ابن ست عشرة سنة تقريباً. وجاء في بغية الوعاة: هو جيانيّ المولد، غرناطيّ المنشإ[3]. نشأ ابن الزبير إذاً بغرناطة وبها تكوَّن واشتهر، وإليها نسب وبها عُرف، فغلب عليه نسب «الغرناطي».

من خصاله:

تميز ابن الزبير بجملة من الخصال الحميدة عدّدَتها وحفِظَتها له كتب التراجم:

- عُرف بإخلاصه للعلم، فقد كان محبّاً له صبوراً على تحصيله مخلصاً في نشره. جاء في الإحاطة: كان نسيجاً وحده في حسن التّعليم، والصّبر على التسميع، والملازمة للتّدريس[4].

- وحُفظ له تفانيه في نصرة الحق، وكان لا يخاف فيه لومة لائم، جاء في الإحاطة: إنه كان صليباً في الحق شديداً على أهل البدع[5]. وفي بغية الوعاة: جرت له في ذلك أمور مع الملوك صبر فيها ونطق بالحق بحيث أدى إلى التضييق عليه وحبسه[6].

وكان من أبرز خصاله الورع وعفة النفس، لم تحمله صِلَاتُه بالملوك والأمراء على طمع أو تزلف، وفي بغية الوعاة: إنه لا ينقل قدمه إلى أحد[7]، ومن شعره الدال على عفة نفسه قوله:

مـا لـي ولـلـتَّـسْـآل لا أُمَّ لـي ... إنْ سَلْتُ مَنْ يَعْزِلُ أو مَن يلي[8]

---

(١) الإحاطة: ١/١٨٨.
(٢) نفس المصدر.
(٣) بغية الوعاة: ١/٢٩١، وجاء في التكملة لابن عبد الملك ١/٣٩: جياني نزل غرناطة.
(٤) الإحاطة: ١/١٨٨ ـ ١٩٣.
(٥) الإحاطة: ١/١٨٨ ـ ١٩٣.
(٦) بغية الوعاة: ١/٢٩١.
(٧) نفس المصدر: ١/٢٩١.
(٨) الإحاطة: ١/١٨٨ ـ ١٩٣.

حسبي ذنوبٌ أثقلَتْ كاهلي ما إن أرى إظلامَها ينجلي[1]

كما اتّسم إلى جانب كل ما ذكر بلطف المعشر، فكان عذب الفكاهة طيب المجالسة حلو النادرة، وبشدة التّقوى، إذ كان كثير الخشوع والخشية، مسترسل العَبْرة، ملازماً للسنة، قال فيه أبو الحسن النّور بن سعيد:

لابن الزبير مكارم أضحت بها طير المدائح في البلاد تغرد

إن قيدوه وبالغوا في عصره فالكرم يُعصر والجواد يُقيد

مذهبه:

ابن الزبير سني العقيدة مالكي المذهب، عدّه ابن فرحون من أعيان المذهب المالكي، وترجم له بترجمة ضافية، رفع فيها من شأنه، قال: إليه انتهت الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية وتجويد القرآن ورواية الحديث إلى المشاركة في الفقه والقيام على التفسير والخوض في الأصلين[2]. وأورده صاحب شجرة النور الزكية في طبقات المالكية وترجم له وأعلى شأنه[3].

وله في كتابه «ملاك التأويل» مواقف تنبئ عن عقيدة سنيّة راسخة، أحصيت أهمها فيما قدمت به لتحقيق هذا الكتاب[4]، من ذلك ما جاء في تفسيره للآية الثامنة والعشرين من سورة الأنعام: ... في استقباح الشرع إياها وإلا فالعقل عندنا لا يُحسّن ولا يُقبّح[5]، ومن ذلك ردّه على الخوارج في قولهم بكفر مرتكب الكبيرة يقول: وقد تعلّقت الخوارج بعموم هذه الآي وأشباهها في تكفير مرتكب الكبيرة، وليس شيء من ذلك نصاً في مطلوبهم وهم محجوجون بغيرها[6].

---

(١) في بغية الوعاة (١/ ٢٩٢): ... غمّاءها تنجلي.

(٢) الديباج: ٤٢.

(٣) شجرة النور الزكية: ٢١٢.

(٤) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: ١/ ٦٩ ـ ٧١، تقديم وتحقيق د. سعيد الفلاح. ط١، طبع دار الغرب الإسلامي ببيروت، ١٩٨٣م.

(٥) ملاك التأويل لابن الزبير الثقفي: ١/ ٤٨٠.

(٦) نفس المصدر: ١/٣٩٨ ـ ٣٩٩.

وفي البرهان مواقف مشابهة تؤكد عقيدته السنيّة، منها ما جاء في بيان مناسبة سورة الليل: قال: إن قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ ...﴾ إلى: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ١٠] يلائمه تفسيراً وتذكيراً بما الأمر عليه من كون الخير والشر بإرادته وإلهامه وبحسب السوابق قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]، فهو سبحانه الملهم للإعطاء والاتقاء والتصديق والمقدر للبُخْل والا...)[1] والتذكيب. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ثم زاد ذلك إيضاحاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣﴾ [الليل] فتباً للقدرية والمعتزلة، ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾ [يوسف: ١٠٥]، ويقول في مناسبة سورة التين: ... ولو تقدم عمل لم يقع إلا بمشيئته وتوفيقه وإرادته، ولا يستوجب أحد عليه شيئاً وإنما هو فضله يؤتيه من يشاء...[2].

شيوخه:

طلب ابن الزبير علوماً كثيرة وبرز في فنون شتى فكثر بذلك شيوخه، منهم من التقى بهم وسمع منهم، ومنهم من راسلهم أو أجازوه دون أن يلتقي بهم. جاء في الدّيباج المذهب: وشيوخه نحو الأربعمائة[3]. ولقد شَدَّ الرحال وتنقل في طلب العلم داخل الأندلس وخارجها. جاء في التكملة لابن عبد الملك: عُني بالرواية كثيراً ورحل بسببها إلى سبتة[4] وإلى كثير من بلاد الأندلس[5]. ومن أشهر شيوخه:

---

(١) بياض، لعلها: «والاستغناء»، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٨ ـ ١٠].

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن: ص٢١١.

(٣) الديباج: ص٤٢.

(٤) جاء في جذوة الاقتباس، ص٤٦: كان بسبتة سنة ٦٤٥هـ. وسبتة مدينة شمال المغرب الأقصى تحت الحكم الإسباني.

(٥) الذيل والتكملة: ١/٤٤.

١ - إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الطبري أبو إسحاق الشافعي المكي الفقيه إمام المقام الشريف، ولد بمكة سنة ٦٣٦هـ، وتوفي سنة ٧٢٢هـ[١]، وقد ورد في الذيل والتكملة أنه كتب إليه ولم يلقه[٢].

٢ - إبراهيم بن محمد، أبو إسحاق المعروف بابن العاصي الخطيب، توفي بغرناطة سنة ٧٢٦هـ، كان ليّن الجانب دمث الأخلاق[٣].

٣ - أبو عبد الله محمد بن عيسى بن هلال الرعيني، من أهل مالقة، توفي سنة ٦٥٢هـ[٤]. جاء في الذيل والتكملة: إنه كتب إلى ابن الزبير من مالقة ولم يلقه.

٤ - أبو عبد الله بن عطية القيسي، من أهل مالقة، رحل حاجّاً وسمع بالمشرق من أبي الفضل جعفر بن علي الحمداني وغيره، كان من أهل الزّهد والفضل، توفي ببجاية سنة ٦٤٦هـ[٥].

٥ - أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين المعروف بأبي مطرف بن عميرة، كان عالماً بالفقه والنحو واللغة والطب والحديث، وكان مجيداً في النظم والنثر، تفنن في الغلوم، ونظر في المعقولات وأصول الفقه، ومال إلى الآداب فبرع فيها. ولد سنة ٥٨٢هـ وتوفي سنة ٦٥٨هـ[٦]، وقد كان له التأثير الكبير على ابن الزبير في علوم الحديث والأصول والفقه.

٦ - أحمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد المرادي المعروف بالعشّاب، توفي سنة ٧٣٦هـ، كان ممن تأثر بهم ابن الزبير في القراءات وعلوم العربية. كان مقرئاً عالماً بالتفسير والمعاني والبيان، له تفسير صغير وكتاب في المعاني والبيان[٧].

٧ - أحمد بن محمد القرطبي ضياء الدين، كان محدثاً متسع الرواية مشاراً

---

(١) درة الحجال: ١/١٨٧.
(٢) الذيل والتكملة: ١/٣٩.
(٣) درة الحجال: ١/١٧٩.
(٤) التكملة: ١، ترجمة ١٠٤٠.
(٥) التكملة: ٢، ترجمة ١٤٦٠.
(٦) بغية الوعاة: ١/٣١٩، الذيل والتكملة: ١/١٥٠، شجرة النور الزكية: ١٩٥.
(٧) معجم المؤلفين: ٢/٦٢.

إليه بالبراعة والتفنن في علم الحديث، ولد سنة ٦٠٢هـ، كان حياً إلى حدود سنة ستين وستمائة[١].

٨ ـ أحمد بن محمد بن التجيبي الغرناطي أبو جعفر، يعرف بالورّاد. طبيب فاضل مقرئ، كان ممن تأثر بهم ابن الزبير في فنون العربية (توفي سنة ٦٥٨هـ). قال أثير الدين أبو حيان: نقلت من شعره بخط الأستاذ أبي جعفر بن الزبير شيخنا شعراً في فتى انثلم ثغره[٢].

٩ ـ أحمد بن محمد خديجة ـ أبو جعفر، من أهل قرطبة تصدر لإقراء القرآن وتعليم العربية. توفي سنة ٦٤٣هـ، كان ممن تأثر بهم ابن الزبير في القراءات والعربية. من كتبه: «تسديد اللسان لذكر أنواع البيان»، و«مختصر التبصرة في القراءات»[٣].

١٠ ـ أحمد بن يوسف بن فرتون، مؤرخ ولد بفاس سنة ٥٣٠هـ، وتوفي سنة ٦٦٠هـ، من آثاره ذيل على صلة ابن بشكوال في تراجم من جاء بعد ابن بشكوال من مشاهير علماء الأندلس، وربما نحا ابن الزبير نحوه في تأليفه صلته على صلة ابن بشكوال[٤].

١١ ـ الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص ـ أبو علي، يعرف بابن النّاظر، محدث ومفسر ولغوي ومؤرخ، ولد سنة ٦٥٠هـ، وتوفي سنة ٦٩٩هـ[٥].

١٢ ـ سعد بن محمد الحفّار، سمع منه أبو جعفر القراءات سنة ٦٤٥هـ، وسمع منه جامع الترمذي فبرز على يديه في فن القراءات وفي علوم الحديث. توفي سنة ٦٤٦هـ وكان صالحاً ثقة عدلاً[٦].

---

(١) الذيل والتكملة: ١/ ٤٧٥.
(٢) الوافي بالوفيات: ص٨، ترجمة ٣٤٧٥، بغية الوعاة: ١/ ٣٣٥.
(٣) الديباج: ٤٢، الأعلام: ١/ ٢١٠.
(٤) معجم المؤلفين: ٢/ ٢٠٨، بغية الوعاة: ١/ ٢٩١، شجرة النور الزكية: ٢٠٠١.
(٥) الإحاطة: ١/ ٤٦٣ ـ ٤٦٥، تاريخ قضاة الأندلس: ١٢٧، درة الحجال: ١/ ١١.
(٦) التكملة: ص٢، ترجمة ١٩٩٦، غاية النهاية: ١/ ٣٠٣، شجرة النور الزكية: ٢١٢.

١٣ ـ عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي ـ أبو علي، شاعر، توفي ببغداد سنة ٦٥٦هـ[١]، يذكر ابن عبد الملك في التكملة أنه كتب إليه من مصر ولم يلقه[٢].

١٤ ـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن رحمون المصمودي أبو القاسم النحوي، كان ذا لسن وفصاحة، ومعرفة جيدة بالنحو. مات سنة ٦٤٩هـ. أخذ عنه ابن الزبير علوم اللغة وخاصة النّحو[٣].

١٥ ـ عبد الصمد بن عبد الوهاب بن عساكر الدمشقي ثم المكي، كان قوي المشاركة في العلوم، ولد سنة ٦١٤هـ وتوفي سنة ٦٨٦هـ[٤]. يذكر ابن عبد الملك في التكملة أنه كتب إليه من مكة ولم يلقه[٥].

١٦ ـ عبد العظيم بن عبد الله البلوي، من أهل مالقة يكنى بابن الشيخ، كان فقيهاً جليلاً وأصولياً، من بيت علم ودين، ومن جلة أهل الأندلس في وقته علماً وعملاً، على رسوخ قدم في الورع. كان يقرئ الفقه وأصول الفقه. يقول ابن الزبير: صحبته رحمه الله مدة ثلاثة أعوام وأخذت عنه مسائل من مستصفى أبي حامد مما كان له فيه اختيار أو مفهوم ما، وقرأت عليه أشياء خلال تلك المدة من الأصول وغيرها، وهو من علية من لقيت في فضله وورعه. توفي سنة ٦٦٦هـ[٦].

١٧ ـ عبد اللطيف بن عبد المنعم بن علي بن نصر بن منصور بن هبة الله الحرّاني أبو محمد، عالم بالحديث، ومن فقهاء الحنابلة، ولد سنة ٥٨٧هـ، وتوفي سنة ٦٧٢هـ، جرت بينه وبين ابن الزبير مراسلات ولم يلتقيا[٧].

١٨ ـ عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي الدمشقي

---

(١) معجم المؤلفين: ٥/ ٢٠٠.
(٢) الذيل والتكملة: ١/ ٣٩.
(٣) بغية الوعاة: ٢/ ٣٦.
(٤) الأعلام: ٤/ ١٣٣.
(٥) الذيل والتكملة: ١/ ٣٩.
(٦) صلة الصلة: ترجمة ٥٠.
(٧) الأعلام: ٤/ ١٨٢، معجم المؤلفين: ٦/ ١٢.

أبو محمد المعروف بابن عبد السلام، فقيه ولغوي ومفسر، توفي سنة ٦٦٠هـ، جاء في التكملة لابن عبد الملك أنه راسله من مصر ولم يلقه[١].

١٩ ـ علي بن أحمد بن محمد بن يوسف الأنصاري المعروف بالغزال، كان شيخاً سنياً ورعاً فاضلاً زاهداً، قرّأ القرآن وشيئاً من العربية والفقه، على خير وفضل، منافراً لأهل الأهواء، يقول ابن الزبير: استجزته فأجازني رحمه الله. توفي سنة ٦٧٠هـ[٢].

٢٠ ـ علي بن محمد الشاري (ولد سنة ٥٧١هـ وتوفي سنة ٦٤٩هـ) سمع منه ابن الزبير السنن الكبرى للنسائي. قال في صلة الصلة: رحلت إليه فسمعت منه وقرأت كثيراً وتلوت عليه الكتاب العزيز، وأقبلت إليه من حضرة غرناطة مراراً إلى أن أدركته وفاته، وكان شيخاً فاضلاً وراوية ثقة وعدلاً جليلاً، متحرياً ضابطاً متيقظاً، عارفاً بالأسانيد والطرق والرجال، وكان رحمه الله سُنّياً منافراً لأهل البدع والأهواء معروفاً بذلك. وكنت أتلو عليه الكتاب العزيز ليلاً لاستغراق نهاره في التدريس[٣].

ولقد كان لأبي الحسن التأثير الكبير على ابن الزبير فقد تخرج عليه في القراءات والحديث وتأثر به تأثّراً كبيراً في مقاومة أهل الأهواء والبدع.

٢١ ـ عمر بن محمد بن خليل السكوني، أبو الخطاب، مقرئ من فقهاء المالكية، إشبيلي، نزل بتونس وتوفي سنة ٧١٧هـ، ممن تأثر بهم ابن الزبير في الأصول والقراءات، له كتب منها: «التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزالات في تفسير الكتاب العزيز» وكتاب «الأربعين مسألة في أصول الدين على مذهب أهل السنة»[٤].

٢٢ ـ محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي، مدرس الحنابلة، توفي سنة

---

(١) معجم المؤلفين: ٥/٢٤٩.
(٢) صلة الصلة: ترجمة ٢٨٧.
(٣) صلة الصلة: ترجمة ٣٠٠، الوافي بالوفيات: ٦/٢٢٢.
(٤) الأعلام: ٥/٢٢٤.

٦٧٣هـ أول من درس مذهب أحمد بن حنبل بالصالحية، حصلت بينه وبين ابن الزبير مراسلة(١).

٢٣ ـ محمد بن أحمد بن محمد بن زكرياء المعافري الأندلسي، أبو عبد الله النحوي المقرئ، ولد سنة ٥٩١هـ. من الذين تكوَّن على أيديهم ابن الزبير في القراءات، له منظومة في القراءات على مثال منظومة الشاطبي صرح فيها بإسماء القراء(٢).

٢٤ ـ محمد بن أحمد بن عبيد الله بن العاصي الخطيب المقرئ أبو بكر اللّخمي الإشبيلي، شيخ مالقة رحل إليه أبو جعفر بن الزبير فتلا عليه بالسبع وقال: كان أضبط من قرأت عليه بطرق الكافي(٣)، وأعرفهم لإعهاده إياه وتلقيه له عن جده(٤).

٢٥ ـ محمد بن سعيد بن علي بن يوسف الأنصاري أبو عبد الله المعروف بالطراز، توفي سنة ٦٤٥هـ. كان شديد العناية بالرواية معروفاً بالضبط والإتقان، موصوفاً بالبيان والبلاغة، حدث وأخذ عنه(٥).

٢٦ ـ محمد بن علي الدهان، أبو عبد الله، كان حسن السمت، بارع الخط، طيب الخَلْق والخُلُق، جال في البلاد فأخذ بمكة والشام ومصر عن جماعة كثيرة، وكان عدلاً فاضلاً على خير ودين، مات بقوص سنة ٦٥٣هـ(٦).

٢٧ ـ محمد بن علي بن وهب بن مطيع المعروف بابن دقيق العيد أبو الفتح القشيري المصري المالكي الشافعي وقاضي القضاة، صاحب التصانيف

---

(١) الوافي بالوفيات: ٢، ترجمة ٢٦٣، الذيل والتكملة لابن عبد الملك: ١/ ٣٩ ـ ٤٥.
(٢) بغية الوعاة: ١/ ١٣.
(٣) كتاب الكافي في القراءات للإمام المقرئ أبي عبد الله محمد بن شريح الرعيني الإشبيلي المتوفى سنة ٤٧٦هـ، بإشبيلية بالأندلس (انظر غاية النهاية: ٢/ ١٥٣).
(٤) التكملة: ٢، ترجمة ٢١٣٢، غاية النهاية: ٢/ ٣٤.
(٥) التكملة: ترجمة ١٠٣٢، شجرة النور: ١٨٢.
(٦) نفح الطيب: ٢/ ٥٨.

البديعة كالإلمام وعلوم الحديث وشرح عمدة الأحكام، وُلد سنة ٦٢٥هـ وتوفي سنة ٧٠٢هـ، وقد جرت بينه وبين ابن الزبير مراسلة[١].

٢٨ ـ محمد بن محمد بن محرز ولد سنة ٥٦٩هـ وتوفي سنة ٦٥٥هـ، كان أحد رجال الكمال علماً، وإدراكاً، وفصاحة، مع الحفظ للفقه، والتفنن في العلوم، والمتانة في الآداب، وحفظ اللغات والغريب، وله شعر رائق بديع[٢].

٢٩ ـ محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس ـ أبو الفتح ـ الشيخ الإمام العالم الحافظ المحدث اليعمري، ولد سنة ٦٦١هـ وتوفي سنة ٧٣٤هـ. كان ممن أخذ عنهم ابن الزبير الحديث، من مصنفاته: «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير»، و«النفح الشذي في شرح الترمذي»[٣].

٣٠ ـ محمد بن يحيى بن محمد العبدري الفاسي أبو عبد الله، يعرف بابن مفرج، ممن أخذ عنهم ابن الزبير القراءات والعربية، كان سرياً فاضلاً، شديد الانقباض والتعفف، على دين وخير، توفي سنة ٦٥٧هـ[٤].

٣١ ـ محمد بن يوسف الطنجالي، أبو عبد الله، محدث نحوي، مات سنة ٦٥٣هـ، كان ممن تأثر بهم ابن الزبير في الحديث والنحو، وكان من أهل الفضل والدين يحترف صناعة التوثيق[٥].

٣٢ ـ محمود بن سليمان بن فهد ـ شهاب الدين الدمشقي، ولد سنة ٦٤٤هـ وتوفي سنة ٧٢٥هـ. كان ممن أتقن الفنّين المنظوم والمنثور، جرت بينه وبين ابن الزبير مراسلة[٦].

---

(١) فوات الوفيات: ٢/ ٤٣٤، شذرات الذهب: ٦/ ٥.
(٢) التكملة: ١، ترجمة ١٠٤١.
(٣) فوات الوفيات: ٢/ ٨٤٤.
(٤) بغية الوعاة: ١/ ٢٦٥.
(٥) بغية الوعاة: ١/ ٢٧٦، درة الحجال: ١/ ١١.
(٦) فوات الوفيات: ٢/ ٥٦٤، الذيل والتكملة لابن عبد الملك: ١/ ٣٩.

٣٣ ـ يحيى بن أحمد بن عبد الرحمن بن المرابط ـ يكنى بأبي بكر ـ ولد سنة ٥٨٢هـ وتوفي بـ«مالقة» سنة ٦٥٨هـ، يقول ابن الزبير في «صلة الصلة»: وكان الشيخ أبو بكر ﷺ من جلة من أخذنا عنه عدالة وفضلاً وتمسكاً بالسنّة عقداً وفعلاً، كاتباً جليلاً، أديباً بارعاً، متورعاً سرياً... كتب لي إجازة ثم لقيته وشافهني بها، ورأيت منه رجلاً عظيماً، من أفضل من لقيته[١].

٣٤ ـ يحيى بن عباس بن أحمد القيسي ـ أبو زكرياء ـ من أهل «قسنطينة» رحل إلى الأندلس سنة ٦٠٨هـ وأخذ من علمائها يقول عنه ابن الزبير: وكان الشيخ أبو زكرياء من عدول الشهود بـ«بجاية» وممن أخذ الناس عنه... كتب إليّ من «بجاية» مرتين بإجازة عامة ما رواه، وتاريخ كتابه الثاني تاسع شهر ربيع الأول سنة ٦٤٩هـ[٢].

٣٥ ـ يحيى بن عبد الله المولي أبو زكرياء، من أهل «مولة» سكن «مرسية»، رحل إلى المشرق وحج ولقي في رحلته جلة وأخذ عنهم... كان لهذا الشيخ اعتناء بالحديث ولقاء أهله، وكان من أهل السنة والفضل. قال ابن الزبير: لقيته «بمرسية» ـ أعادها الله ـ وقرأت عليه غير شيء وأجاز لي واستحسنت اعتناءه، توفي سنة ٦٥٩هـ، وكان مولده في نحو سنة ٥٧٥هـ[٣].

٣٦ ـ يوسف بن أبي ريحانة المالقي أبو الحجاج، لعله: يوسف بن أحمد بن طاوس أبو الحجاج النحوي المتوفى سنة ٧٢٠هـ. كان ممن تأثر بهم ابن الزبير في العربية عموماً. فقد كان أبو الحجاج إماماً في العربية والطب، آخر الأطباء بشرق الأندلس، عارفاً بكتاب سيبويه[٤].

* * *

(١) صلة الصلة: ت٤٨٩.
(٢) صلة الصلة: ت٣٩٣.
(٣) صلة الصلة: ت٣٩٠، غاية النهاية ١/ ١٠٤.
(٤) درة الحجال: ٣/ ٣٥٤.

أخذ ابن الزبير عن عدد كبير من العلماء إما بصفة مباشرة أو بصفة غير مباشرة، وأغلبهم أجازوه فيما رووه أو ألّفوه. جاء في الذيل والتكملة أن ابن الزبير قال: كل من ضمنت ذكره في هذا التعليق ـ يريد برنامج رواياته الذي أرسل به إلى ابن عبد الملك ـ ممن ذكرت أني أخذت عنه، عمم لي بالإجازة فيما رواه وألفه ـ من له تأليف منهم ـ إلا أبا الحسن الحفّار والأستاذ أبا جعفر بن خلف. أما الحفار فلم تتفق إجازته مع كثرة قراءتي عليه لموته وأنا غائب عن غرناطة، أمّا الأستاذ أبو جعفر فلازمته ولم تتفق منه الإجازة.

والمستعرض لشيوخ ابن الزبير على اختلاف اختصاصاتهم تتضح له المكانة العلمية العالية التي بلغها أبو جعفر، فلا غرابة أن تنتهي إليه الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية إذا كان قد تتلمذ لجمع من أساطينها، أمثال أبي مطرف بن عميرة اللغوي الأديب الحاذق لفني النظم والنثر، والعشّاب العالم بفنون العربية صاحب التصانيف في المعاني والبيان، وابن رحمون النحوي ذي اللسان والفصاحة. ولا غرابة أن يبرز في القراءات وقد تتلمذ لأمثال ابن العاصي شيخ «مالقة» المقرئ.

جاء في التكملة لابن الأبار: رحل إليه أبو جعفر فتلا عليه بالسبع، وقال ابن الزبير: كان أضبط من قرأت عليهم وأعرفهم[(١)]. ولأمثال علي بن محمد الشّاري، يقول ابن الزبير في صلته: رحلت إليه فسمعت وقرأت كثيراً وتلوت عليه الكتاب العزيز[(٢)].

وقد برز ابن الزبير في الحديث والنقد على أيدي أمثال ابن سيد الناس الحافظ المحدث صاحب «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» و«النفح الشذيّ في شرح الترمذي»[(٣)]، وأمثال الحفار الذي سمع منه جامع الترمذي. وقد تتلمذ ابن الزبير لابن الشيخ وأبي مطرف بن عميرة وغيرهما، ومن هنا جاءت معرفته بالأصلين. أما عن التفسير فقد تسلح ابن الزبير بعيون آلات العلوم التي تعينه عليه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تلقاه عن

(١) التكملة لابن الأبار: ٢، ت٢١٣٢.
(٢) فوات الوفيات: ٢/ ٣٤٤.
(٣) صلة الصلة: ت٣٠٠.

جلّة من شيوخه أمثال أحمد المرادي المعروف بالعشاب العالم بالتفسير وصاحب التصانيف فيه، وابن الناظر المفسر واللغوي المشهور.

تلاميذه:

روى عن ابن الزبير جماعة من أهل بلده وطائفة من الراحلين إليه من أقطار الأندلس وغيرها[١] وتفقه عليه خلق[٢]، من هؤلاء:

١ ـ إبراهيم بن محمد بن علي بن محمد بن أبي العاصي التنوخي، أصله من طريف واستوطن بغرناطة. كان نسيجاً وحده حياء وصدقة وتخلقاً ومشاركة وإيثاراً، أقرأ فنوناً من العلم بعد مهلك أستاذ الجماعة أبي جعفر بن الزبير بإشارة منه به، جمع بين القراءة والتدريس، فكان مقرئاً للقرآن مبرِّزاً في تجويده، مدرساً للعربية والفقه، متكلماً في التفسير. وكان على غرار أستاذه مخالفاً لأهل البدع ملازماً للسنة قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير بغرناطة[٣].

٢ ـ أحمد بن الحسين بن علي بن الزيات الكلاعي، المعروف بالزيات (ولد سنة ٦٤٩هـ وتوفي سنة ٧٢٨هـ). كان مقرئاً وله مشاركة في العربية والفقه واللغة والعروض والمماسة في الأصلين والحفظ والتفسير[٤].

٣ ـ أحمد بن محمد بن أحمد بن قعنب الأزدي. ولد سنة ٦٧٠هـ وتوفي سنة ٧٣٢هـ. كان من شيوخ كتاب الشروط معرفة بالمسائل واضطلاعاً بالأحكام، وانفرد بصحة الوثيقة، باقعة من بواقع زمانه، وعيابة في مشائخ قطره، ولي القضاء بأماكن عديدة[٥].

٤ ـ سلمون بن علي بن عبد الله بن علي بن سلمون الكناني، ولد سنة ٦٨٨هـ بغرناطة وتوفي سنة ٧٦٧هـ. كان فقيهاً جليلاً فاضلاً أصيلاً، أخذ عن

---

(١) الذيل والتكملة: ١/٣٩ ـ ٤٥.
(٢) البدر الطالع: ٣٣ ـ ٣٥.
(٣) الإحاطة: ١/ ٣٧٤، البغية: ١/ ٤٢٤.
(٤) الإحاطة: ١/ ٢٨٧ ـ ٢٩٦، غاية النهاية: ١/ ٤٧، الدّيباج: ٤٣.
(٥) الإحاطة: ١/ ١٧٢.

جملة من الشيوخ. أولهم الأستاذ أبو جعفر بن الزبير[1].

٥ ـ محمد بن إبراهيم بن علي بن باقي الأموي، توفي سنة ٦٥٢هـ، كان كاتباً أديباً ذكياً لوذعيّاً مرسلاً للنادرة، بَذَّ السباق في الأدب الهزلي بالأندلس[2].

٦ ـ محمد بن أحمد بن فرج اللخمي الغرناطي، أخذ عن ابن الزبير القراءات وكان قيّماً في العربية مشاركاً في الأصلين، مات في حدود سنة ٧٣٠هـ[3].

٧ ـ محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي ـ أبو القاسم ـ قرأ عن أبي جعفر العربية والفقه والحديث والقرآن، توفي سنة ٧٤١هـ[4].

٨ ـ محمد بن الأشعري القاضي أبو عبد الله، مات شهيداً في موقعة طريف سنة ٧٤١هـ، وكان مولده سنة ٦٧٣هـ. كان ممن جمع له بين الرواية والدراية، صار سباق الحلبات معرفة بالأصول والفروع والعربية والتفسير والقراءات مبرّزاً في علم الحديث[5].

٩ ـ محمد بن جابر بن محمد، المقرئ الحافظ أبو عبد الله المعروف بالوادي آشي، كان من مشاهير القراء والمحدثين، له معرفة تامة بالنحو واللغة والحديث ورجاله، توفي سنة ٧٤٩هـ[6].

١٠ ـ محمد بن عثمان بن يحيى أبو عمرو بن المرابط الزاهد، ولد سنة ٦٨٠هـ وتوفي سنة ٧٥٢هـ، سمع من ابن الزبير سنن النسائي الكبرى وتلا عليه بالسبع[7].

---

(١) عن قضاة الأندلس: ص١٦٧، لأبي الحسن النباهي نشره ليفي بروفنصال، ط. القاهرة ١٩٤٨م، الديباج: ١٢٥.

(٢) الإحاطة: ٢/٣٣٨ ـ ٣٤١.

(٣) بغية الوعاة: ١/٣٨، نيل الابتهاج: ٢٣٢.

(٤) نفح الطيب: ٥/٥١٤، غاية النهاية: ٢/٨٣، شجرة النور الزكية: ٢١٢.

(٥) تاريخ قضاة الأندلس: ص١٤١، بغية الوعاة: ١/٢٦٥، نيل الابتهاج: ٢٣٨.

(٦) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ: ص١١٥.

(٧) عن ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي: ص٣٥٩.

١١ ـ محمد بن علي البياسي الأنصاري ناصر الدين، توفي سنة ٧٠٣هـ، كان عارفاً بعلم الحديث وكتب منه كثيراً، مال إلى مذهب الظاهرية[١].

١٢ ـ محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم القرشي الفهري المعروف بابن رمان الغرناطي، قرأ على أبي جعفر بن الزبير بغرناطة ثم انتقل إلى القاهرة سنة ٧٢٢هـ، ومات بالمدينة المنورة سنة ٧٢٩هـ[٢].

١٣ ـ محمد بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن الحاج، من مشاهير قضاة الأندلس، توفي سنة ٧٧٣هـ. كان معروفاً بمصاحبة العلماء، والأخذ في المعارف كلها، والتكلم في أنواعها. وكان التكلم بالشعر أسهل شيء عليه، جمع منه ديواناً سمَّاه: «العذب والأجاج»[٣].

١٤ ـ محمد بن محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، من أهل غرناطة وأعيانها توفي سنة ٧٥٨هـ، برز في الأدب واضطلع بمعاناة الشعر[٤].

١٥ ـ محمد بن محمد بن سهل الوزير أبو القاسم: من العباد والزهاد، ولد سنة ٦٦٢هـ وتوفي سنة ٧٣٠هـ، قرأ بالسبع عن ابن الزبير الثقفي[٥].

١٦ ـ محمد بن يوسف بن علي الغرناطي أثير الدين أبو حيان، إمام النحاة، ولد سنة ٦٥٤هـ وتوفي سنة ٧٤٥هـ، أخذ عن ابن الزبير القراءات وفنون العربية وخاصة النحو[٦].

١٧ ـ يوسف بن إبراهيم بن محمد بن قاسم بن علي الفهري الغرناطي أبو الحجاج الساحلي، توفي سنة ٧٠٢هـ، جاء في نفح الطيب[٧] أنه كان صدراً من صدور حملة القرآن على وتيرة الفضلاء وسنن الصالحين، حج

---

(١) نفح الطيب: ٢/٥٩. (٢) نفح الطيب: ٢/٦٣.

(٣) تاريخ قضاة الأندلس: ص١٦٤، غاية النهاية: ٢/٢٣٥، شجرة النور الزكية: ٢٢٩.

(٤) الإحاطة: ٢/٢٥٦.

(٥) الوافي بالوفيات: ١/١٥٥، غاية النهاية: ٢/٢٤٠، درة الحجال: ٢/١٠٠.

(٦) فوات الوفيات: ٢/٥٥٥، الدرر الكامنة: ١/٨٤، غاية النهاية: ٢/٢٨٤، تذكرة الحفاظ: ٤/٢٧٥.

(٧) نفح الطيب: ٢/٢٣٥، الدّيباج: ٣٥٩.

ولقي الأشياخ بعد أن قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير وطبقته.

مكانته العلمية:

«تلقى ابن الزبير العلم من عدد كبير من علماء عصره داخل الأندلس وخارجها، فتضلع وبرز في فنون كثيرة، واحتل منزلة علمية جعلته وحيد عصره ونسيجاً وحده، بلغ من الشهرة والإشادة بذكره ما لم يبلغه سواه»[١]. «انتهت إليه الرئاسة بالأندلس، في صناعة العربية، وتجويد القرآن، ورواية الحديث إلى المشاركة في الفقه، والقيام على التفسير، والخوض في الأصلين»[٢]. . . «صار قبلة طلاب العلم وصارت الرحلة إليه»[٣]. . «ارتحل إلى بابه العلماء لسعة معارفه»[٤]. . . «وكان محدث الأندلس بل المغرب في زمانه، به أبقى الله ما بأيدي الطلبة من العربية وغيرها»[٥]. . «فكان بحق أستاذ الزمان[٦] معظماً عند الخاصة والعامة»[٧].

مؤلفاته:

صنف ابن الزبير في كثير من المعارف التي عني بها[٨]. قال تلميذه أبو حيان: صنف في أصول الفقه وفي علم الكلام والفقه وله كتب كثيرة وأمهات[٩]، ووصفه صاحب درة الحجال: بأنه ذو التآليف الجمَّة[١٠].

تُجمع هذه الأدلة وتؤكد على أن لابن الزبير مصنفات كثيرة، ولكن بعد تتبع الفهارس وكتب التراجم لم يقع العثور على أكثر من ستة عشر عنواناً، ولعل هذا التناقض يفسره ما ورد في الإحاطة من حديث مطول عن محنة ابن الزبير وفقدانه بسبب ذلك الكثير من كتبه، يقول ابن الخطيب: . . . وبلغ

---

(١) عن الإحاطة: ١/١٨٨.
(٢) عن الديباج: ص٤٢.
(٣) عن الذيل والتكملة: ١/٣٩ ـ ٤٥.
(٤) عن الوافي بالوفيات: ٦/٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٥) عن بغية الوعاة: ١/٢٩١ ـ ٢٩٢.
(٦) عن نفح الطيب: ٦/٩٨.
(٧) الأعلام: ١/٨٣.
(٨) الذيل والتكملة: ١/٣٩ ـ ٤٥.
(٩) الوافي بالوفيات: ٦/٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(١٠) درة الحجال: ص١١.

الأستاذ النياحة ففر لوجهه وكبس منزله لحينه فاستولت الأيدي على ذخائر كتبه وفوائد تقييده عن شيوخه.. وجاء بعد: «بعد ثبات أمره والظفر بكثير من منتهب كتبه دالت الدولة للأمير أبي عبد الله نصر بمالقة[1].

بعد هذا التمهيد أورد مصنفات ابن الزبير، الأولَ فالأولَ، معتمداً في ذلك ترتيب أسمائها ترتيباً أبجدياً:

١ ـ ارجوزة في بيان مذهب الشونية[2]:

أشار إلى هذه الأرجوزة ابن عبد الملك في التكملة[3] يقول: وقد وقفت على فهرسة رواياته وكتاب ردع الجاهل وبعض تاريخه في علماء الأندلس وأرجوزته المذكورة. ويشير بعد إلى أن هذه الأرجوزة كانت منحطة النظم وكانت منفذاً لطعن أعدائه في مصنفاته والتنقيص من قيمته العلمية. يقول صاحب التكملة: وقد ولعت طائفة من أهل عصره بالطعن على تصانيفه وتنقيصه بسببها ولا سيما أرجوزته المذكورة، فإنهم يتخذونها سخريّاً ويرددونها هزأة، ولقد كان الأولى به أن لا يتعرّض لنظمها فإنه منحط الطبقة في النظم.

٢ ـ كتاب: الإعلام بمن ختم به القطر الأندلسي من الاعلام:

أوردت ذكره الكثير من كتب التراجم[4] إلا أنها لم تفصح عن محتواه، ويبدو من خلال عنوانه أنه كتاب ترجم فيه أبو جعفر للأعلام من علماء الأندلس المتأخرين.

---

(١) الإحاطة: ١/١٨٨ ـ ١٩٨.

(٢) فرقة من فرق الصوفية معروفة بالمغرب تنسب إلى عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي، دفين تلمسان، (انظر: مدخل تاريخي إلى دراسة الشوذية لمحمد بن شريفة ١٩٦٥م).

(٣) الذيل والتكملة: ١/٣٩ ـ ٤٥.

(٤) ورد ذكره في الذيل والتكملة: ١/٣٩ ـ ٤٥، البدر الطالع: ص٣٣ ـ ٣٥، الدرر الكامنة: ١/٨٩ ـ ٩١، كشف الظنون: ١/٢٨٦.

٣ ـ إيضاح السبيل في حديث جبريل:

أشار إليه ابن الزبير في البرهان[١]، ولم يرد ذكره في كتب التراجم، وهو كما يبدو من عنوانه في شرح حديث جبريل.

٤ ـ برنامج رواياته:

ذكره ابن عبد الملك في التكملة[٢]: فمن تصانيفه برنامج رواياته، وقال: وإنما استخرجت هؤلاء المذكورين (يعني شيوخ ابن الزبير) من برنامج رواياته التي بعث إليّ محملاً لي ولبنيّ إياه، ونقل عن ابن الزبير قوله في آخر البرنامج: وكل من ضمّنت ذكره في هذا التعليق ممن ذكرت أني أخذت عنه عمم لي بالإجازة فيما رواه وألفه من له تأليف منهم إلا أبا الحسن الحفار والأستاذ أبا جعفر بن خلف، أما الحفار فلم تتفق لي إجازته مع كثرة قراءتي عليه لموته وأنا غائب عن غرناطة، وأما الأستاذ أبو جعفر فلازمته ولم تتفق منه الإجازة.

وذكر عقب ذلك الفصل روايته الأربعين للسفلي عن أبي زيد العشاب وتعقبه في أصول الفقه والعربية على أبي عبد الله العبدري الصوفي وإنشاده إياه فلم يسمهما في جملة شيوخه الذين ذكرهم في صدر برنامج رواياته المشار إليه لأن أبا زيد لم يجز له، وأبا عبد الله لم يكن يقول بالإجازة.

هذه بعض نقول عن التكملة تعطينا فكرة عن محتوى هذا البرنامج.

٥ ـ البرهان في تناسب سور القرآن:

كذا سمَّاه صاحب كشف الظنون[٣] وقال: ذكر فيه مناسبة كل سورة لما قبلها. وقال السّيوطي في الإتقان أفرده بالتأليف ـ يعني علم المناسبة ـ أبو جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان في كتاب سماه: «البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن»[٤]. وقد ذكره المؤلف وأحال عليه في مواطن كثيرة من كتابه

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن: ص٢٤١.

(٢) الإتقان: ٢/١٣٨.

(٣) الذيل والتكملة: ١/٣٩ ـ ٤٥.

(٤) كشف الظنون: ١/٢٤١.

ملاك التأويل[1]، ولكنه اقتصر على تسميته بالبرهان.

أما الكتاب نفسه وإن لم ترد فيه هو الآخر تسمية كاملة فمحتواه وبعض تعابير المؤلف واستعمالات فيه تؤكد مناسبة ما سمي به في كشف الظنون والإتقان. وأمّا تسميته بـ «البرهان في ترتيب سور القرآن»، كما جاء في الديباج والإحاطة ودرة الحجال والأعلام فتسمية بعيدة، ولعل الذي أوقع في هذا ما جاء تمهيداً في أول الكتاب تحت عنوان «باب التعريف بترتيب السور»[2].

ومهما يكن من أمر فإن ابن الزبير قد تناول في كتابه بيان وجه المناسبة بين السور على ما ترتبت في الإمام، ممهداً لذلك بمقدمة وباب في التعريف بترتيب السور.

يقول في المقدمة: «فاقتصرت بحكم الاضطرار في هذا الاختصار على توجيه ترتيب السور، وإن لم أر في هذا الضرب الخاص شيئاً لمن تقدم وغبر، وإنما بدر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع مفترقات، وذلك في الباب أوضح ومجال الكلام فيه أفسح وأسرح، أما تعلق السور على ما ترتبت في الإمام واتفق عليه الصحابة الأعلام فمما لم يُتَعرض له فيما أعلم...»[3]، ويقول في باب التعريف بترتيب السور: «اعلم أن الأمر في ذلك كيفما قدر، فلا بد من رعي للتناسب والتفات للتواصل والتجاذب...»[4].

٦ ـ تعليقة على كتاب سيبويه:

أشار إليها صاحب كشف الظنون بقوله: علق على كتاب سيبويه تعليقة[5]. وجاء في بغية الوعاة: صنف تعليقاً على كتاب سيبويه[6]. وكذا في معجم المؤلفين[7]. ومما يؤكد تأليف ابن الزبير لهذه التعليقة كثرة إحالاته في ملاك التأويل على «الكتاب» واستشهاداته المتعددة بما ورد فيه من أشعار وأمثال.

---

(١) ملاك التأويل: ١/١٥٥، ١/٣١٦، ٢/٨٠١ وغيرها.
(٢) البرهان في تناسب سور القرآن: ص٧٩.
(٣) البرهان في تناسب سور القرآن: ص٧٩.
(٤) البرهان في تناسب سور القرآن: ص٧٩.
(٥) كشف الظنون: ٢/١٤٢٧.
(٦) بغية الوعاة: ١/٢٩١ ـ ٢٩٢.
(٧) معجم المؤلفين: ١/١٣٨.

٧ ـ تفسير لكتاب الله:

أشار في البرهان أنه كان بصدد تأليفه، فقال في بيان مناسبة سورة الرحمن: . . . ولعل الله ييسر ذلك فيما في اليد من التفسير، نفع الله به ويسَّر فيه. وقال في موطن آخر: وقد بسط في التفسير وبُيِّن. وفي موطن ثالث: ومناسبة ما بعد يُبيّن في التفسير[١].

٨ ـ ردع الجاهل عن اعتساف[٢] المجاهل:

في الرد على الشوذية وإبداء غوائلها الخفية:

ورد ذكره في أغلب الكتب التي ترجمت لابن الزبير[٣]، وجاء في الذيل والتكملة أنه في الرد على الشوذية وإبداء غوائلها الخفية[٤]، وقال ابن الخطيب في الإحاطة: هو في الرد على الشوذية[٥]، وهو كتاب جليل ينبئ عن التفنن والاضطلاع. وجاء في الديباج شيء قريب من هذا: هو في الرد على الشوذية وهو كتاب جليل القدر ينبئ عن تفنن واطلاع.

أما ما جاء في كشف الظنون فيبدو غريباً، قال حاجي خليفة: هو في الرد على الشعر وذمّه، وقد أورد ابن الزبير في ملاك التأويل ذكر الشوذية ورد عليها، من ذلك ما جاء في تفسيره للآية الأولى من سورة النمل[٦] قال: . . . فإن الرسل ﷺ معصومون من الكفر مطلقاً باتفاق أهل القبلة إلا ما قالته الشوذية ومن قال بقولهم من المارقين ممن لا عبرة به.

٩ ـ الزمان والمكان:

ورد ذكر هذا الكتاب في كل من الإحاطة[٧] ومعجم المؤلفين[٨]

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن: ص١٩٤، وص١٥٤، وص٢٠٤، وص٢١٠.
(٢) في الإحاطة: عن اغتياب.
(٣) الإحاطة: شجرة النور الزكية، هدية العارفين، درة الحجال، الديباج المذهب، الدرر الكامنة، كشف الظنون.
(٤) الذيل والتكملة: ١/٣٩ ـ ٤٥.
(٥) انظر صفحة: ٣٦.
(٦) ملاك التأويل: ص٨٩٨.
(٧) الإحاطة: ١/١٨٨ ـ ١٩٣.
(٨) معجم المؤلفين: ١/١٣٨.

والإيضاح[1]، ووصفه صاحب الإحاطة بقوله: وهو وصمة. تجاوز الله عنه.

١٠ ـ سبيل الرشاد[2] في فضل الجهاد:

ورد ذكره في كثير من الفهارس وكتب التراجم[3]، وهو كما يدل عليه اسمه في بيان فضل الجهاد، وهو مشاركة من المؤلف في تحفيز همم المسلمين إلى الجهاد في سبيل الله وحماية أرض الإسلام بالأندلس من الغزو النصراني الذي استفحل أمره في عهده.

١١ ـ شرح الإشارة للباجي:

تجمع الكتب التي أوردت ذكره[4] أنه في الأصول، شرح فيه المؤلف كتاب الإشارة للباجي[5].

١٢ ـ صلة الصلة البشكوالية[6]:

سمَّاه بعضهم بتاريخ علماء الأندلس[7]، وقال ابن عبد الملك في التكملة[8]: فمن تصانيفه برنامج رواياته، وتاريخ علماء الأندلس وهو المعروف بصلة الصلة الذي وصل به صلة الراوية أبي القاسم بن بشكوال. . .

جزء من هذا الكتاب مطبوع حققه وأخرجه المستشرق لفي بروفنصال، طبع بالرباط بالمطبعة الاقتصادية سنة ١٩٣٨م.

---

(١) إيضاح المكنون: ٢/٣٠١. (٢) في درة الحجال: سبيل الإرشاد.

(٣) في الإحاطة: ١/١٨٨ ـ ١٩٣، إيضاح المكنون: ٢/٥، درة الحجال: ص١١ ـ ١٢، الديباج: ٤٢.

(٤) الإحاطة: ١/١٨٨ ـ ١٩٣، معجم المؤلفين: ١/١٣٨، شجرة النور الزكية: ص٢١٢، درة الحجال: ص١١ ـ ١٢، الديباج المذهب: ص٤٢.

(٥) الباجي: علي بن محمد الباجي المغربي الأصولي (٦٣١ ـ ٧١٤هـ).

(٦) معجم المؤلفين: الذيل على صلة ابن بشكوال وسمَّاه: صلة الصلة البشكوالية، حقق جزءاً منه المستشرق لفي بروفنصال سنة ١٩٣٨م.

(٧) الدرر الكامنة: ١/٨٩ ـ ٩١. (٨) الذيل والتكملة: ١/٣٩ ـ ٤٥.

١٣ ـ معجم شيوخه:

ورد ذكره في كلّ من كشف الظنون[١] والأعلام[٢] والدرر الكامنة[٣] وجاء في الأعلام: ومن كتبه معجم جمع فيه أسماء شيوخه وتراجمهم. وجاء في التكملة قول ابن الزبير متحدثاً عن شيوخه: وقد استوفيت ذكرهم في جزء مشيختي، ويعلق صاحب التكملة على ذلك فيقول: ولم أقف عليه (يعني معجم شيوخه)[٤].

١٤ ـ المقصد الواجب:

ذكره التنبكتي ونصَّ على أن إبراهيم بن محمد المدين نقل منه وكان يقول: ذكره ابن الزبير في كتابه المقصد الواجب[٥].

١٥ ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل:

في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل[٦].

كذا ورد اسمه في النسخ الأربع التي اعتمدتها في تحقيق هذا الكتاب دون أي اختلاف بينها.

قال ابن الزبير في مقدمة ملاك التأويل: «ولما تيسر بفضل الله تعالى المقصود من هذا الغرض بهر حسناً وكمالاً ولاح في أفق التفاسير لنجومها هلالاً سمَّيته بكتاب: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل»[٧]، ومن هنا يصبح ما جاء في الفهارس وكتب التراجم من اختلاف في اسمه تحريفاً للأصل.

---

(١) كشف الظنون: ٢/ ١٧٣٥، الأعلام: ١/ ٣٣، الدرر الكامنة: ١/ ٨٩ ـ ٩١.
(٢) الأعلام: ١/ ٨٣.
(٣) الدرر الكامنة: ١/ ٨٩ ـ ٩١.
(٤) الذيل والتكملة: ١/ ٣٩ ـ ٤٥.
(٥) نيل الابتهاج: ٥١ على هامش الديباج لابن فرحون، مصر ١٣٧١.
(٦) تم لي ـ بعون الله وتوفيقه ـ تحقيق هذا الكتاب وصدر عن دار الغرب الإسلامي في مجلدين في سبتمبر/ أيلول ١٩٨٣م.
(٧) انظر: ١، صفحة ١٤٨.

ورد في بعضها مختصراً[1]، وورد في البعض الآخر كاملاً مع شيء من التحريف: ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل وتوجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل[2].

وقد تعددت أقوال العلماء وآراؤهم فيه. قال صاحب كشف الظنون: هو في متشابه القرآن في فنون التفسير، لخص فيه كتاب الحصنكيفي[3] وزاد عليه أوله: الحمد لله المانح من شاء ما شاء[4]... وجاء في الدرر الكامنة: جمع كتاباً في فن من فنون التفسير سمَّاه: ملاك التأويل، نحا فيه طريق الحصنكيفي الخطيب في ذلك، فلخص كتابه وزاد عليه شيئاً بنفسه[5] ووصفه بعضهم بأنه غريب في معناه[6]، وربما ترجموا بقولهم هذا عما قال ابن الزبير في المقدمة: إنه باب لم يقرعه ممن تقدم وسلف، ومن حذا حذوهم ممن أتى بعدهم وخلف، أحد فيما علمته على توالي الأعصار والمدد، وترادف أيام الأبد، مع عظيم موقعه وجليل منزعه ومكانته في الدين...[7].

١٦ ـ نزهة البصائر والأبصار: وقد ذكره ابن الخطيب في الإحاطة[8]:

وفاة ابن الزبير:

توفي ابن الزبير الثقفي أبو جعفر يوم الثلاثاء[9] ثامن[10] ربيع

---

(١) الدرر الكامنة: ١/٨٩ ـ ٩١، الديباج: ص٤٢، درة الحجال: ص١١ ـ ١٢، البدر الطالع: ص٣٣، معجم المؤلفين: ص١/١٣٨، شجرة النور الزكية: ص٢١٢.

(٢) كذا ورد في كشف الظنون: ٢/١٨١٣، وفي إيضاح المكنون: ٢/ ٥٥١.

(٣) الحصنكيفي: الخطيب الإسكافي: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب عالم باللغة والأدب من أهل أصبهان صاحب كتاب: درة التنزيل وغرّة التأويل توفي سنة ٤٢٠هـ، (إرشاد الأريب: ٧/ ٢٠، الوافي: ٣/ ٣٣٧، البغية: ٦٣).

(٤) كشف الظنون: ٢/ ١٨١٣.

(٥) الدرر الكامنة: ١/ ٨٩ ـ ٩١.

(٦) الإحاطة: ١/ ١٨٨ ـ ١٩٣، شجرة النور الزكية: ص٢١٢، درة الحجال: ص١١ ـ ١٢، الديباج: ص٤٢.

(٧) مقدمة ملاك التأويل: ص١٤٦.

(٨) الإحاطة: ١/ ٤٧٥.

(٩) عن بغية الوعاة: ١/ ٢٩٢.

(١٠) في البدر الطالع والدرر الكامنة: ثاني عشر.

الأول[1] سنة ثمان وسبعمائة[2] للهجرة (٧٠٨هـ)، الموافقة لسنة ثمان وثلثمائة وألف للميلاد (١٣٠٨م) بغرناطة عن إحدى وثمانين سنة[3]، وعلى حال جميل[4].



(١) وقيل: رمضان، كما في الدرر الكامنة: ١/ ٩١.

(٢) جاء في الديباج: ص٤٢: وتوفي عام ثمانين وسبعمائة، وعلق على ذلك صاحب شجرة النور الزكية: وهو خلاف الصواب، وفي معجم المؤلفين: ١/١٣٨: توفي ٧٠٨ أو ٧٠٧هـ.

(٣) وفي شذرات الذهب: ٦/١٦، عن ثمانين سنة.

(٤) البدر الطالع: ص٣٥.

المبحث الثاني

ترتيب السور بين التوقيف والنظر

أجمع العلماء على أن ترتيب الآيات في سورها توقيفي، ليس للنظر والاجتهاد أي دور فيه، فقد كان جبريل ﷺ يوقف النبي ﷺ على مواقع الآيات في سورها، وكان ﷺ يوصي بذلك كتبة الوحي والصحابة رضوان الله عليهم.

وقد نقل هذا الإجماع غير واحد من العلماء منهم ابن الزبير الذي قال في مناسباته: «ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين[١]، وقال في ملاك التأويل: إن ترتيب السور بتوقيف على أصح المأخذين، وأما ترتيب الآي فلا توقف فيه، وإن ذلك كله معتمد فيه غير ترتيب النزول[٢].

ومنهم الزركشي في البرهان قال: أما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خلاف فيه[٣].

وقد تضافرت الأدلة من النصوص الصحيحة وأقوال الجلة من العلماء على تأكيد هذا الإجماع، فمن النصوص الكثيرة الواردة في هذا الشأن ما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، قد نسختها الآية الأخرى[٤]، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه[٥].

ومنها ما رواه الإمام أحمد[٦] بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن: ص٧٩.
(٢) ملاك التأويل: ٣١٦/١.
(٣) البرهان للزركشي: ٢٥٦/١.
(٤) سورة البقرة: آية ٢٣٤.
(٥) البخاري: تفسير سورة ٢.
(٦) مسند أحمد: ٢١٨/٤.

قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية في هذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ...﴾ الآية [النحل: ٩٠].

ومنها ما رواه مسلم بسنده عن عمر قال: ما سألت النبي عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بإصبعه في صدري وقال: أما تكفيك آية الصيف التي في آخر النساء[١]. فقد دل النبي ﷺ على موضع تلك الآية في سورة النّساء، وهي قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦].

ومنها ما رواه أبو يعلى[٢] في مسنده عن المسور بن مخرمة قال: قلت لعبد الرحمن بن عوف: يا خال أخبرني عن قصتكم يوم أحد، قال: اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصّتنا: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]. وهذا دليل قوي على أن الترتيب الثابت عندنا اليوم هو الذي كان في عهد النبي ﷺ. فإن رقم هذه الآية من المصحف تماماً كما حدده الحديث.

ومن أقوال الجلة من العلماء في هذا: ما قاله مكي بن أبي طالب القيسي[٣] وغيره: ترتيب الآيات في السور ووضع البسملة في الأوائل هو من النبي عليه السلام، ولما لم يأمر بذلك في أول براءة تركت بلا بسملة[٤].

---

(١) مسلم فرائض: ٩.

(٢) أبو يعلى: هو أحمد بن علي التميمي الموصلي الحافظ، الثقة المعروف بأبي يعلى: توفي سنة ٣٠٧ (الرسالة المستظرفة ٥٣ ـ ٥٤).

(٣) هو مكي بن أبي طالب حموش القيسي المقرئ ـ يكنى أبا محمد ـ أصيل القيروان سكن قرطبة ورحل إلى مصر مرتين، له عدة مؤلفات منها تفسير الهداية يوجد الجزء الأول منه مخطوطاً بالمكتبة الوطنية بتونس وكتاب في الناسخ والمنسوخ، وانتخاب كتاب الجرجاني في نظم القرآن (إنباه الرواة: ٣/ ٣١٣ ـ ٣١٩، شذرات الذهب: ٣/ ٢٦٠ ـ ٢٦١، وفيات الأعيان: ٢/ ١٢٠ ـ ١٢١).

(٤) مقدمتان في علوم القرآن: ٢٧٥ ـ ٢٧٦، تحقيق آرثر جفري، مصر ١٩٥٤.

ومنها ما ذكره القاضي أبو بكر[1] في الانتصار ونقله عنه السيوطي في الإتقان[2] وهو قوله: ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا.

وقال أيضاً: الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان، وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله في آي السور، لم يقدم من ذلك مؤخر ولا أخر منه مقدم، وأن الأمة ضبطت عن النبي ﷺ ترتيب آي كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة.

كل هذا من جهة ترتيب الآي، وقد أوجزت القول فيه لاتفاق العلماء على التوقيف فيه، ولأنه ليس من غرضنا الأساسي في هذا التقديم، أما من جهة ترتيب السور فالعلماء فيه على ثلاثة مذاهب:

ـ ذهب الجمهور منهم إلى أنه بالاجتهاد والنظر، وأن الرسول ﷺ أوكل أمر ترتيب السور إلى صحابته فاجتهدوا في ذلك وأعملوا الأنظار.

ـ وقال البعض بالتوقيف وجعلوا ترتيب السور كترتيب الآي، الكل من الله ﷻ.

ـ ومال البعض الآخر إلى التفصيل، فإذا كان الكثير من السور قد علم ترتيبها بالتوقيف فإنَّ البعض منها كان باجتهاد الصحابة. ولكل طائفة جهات تعلق نوردها في مظانّها.

١ ـ القائلون بالاجتهاد:

ينسب القول بالاجتهاد إلى الجمهور، وقد نقل هذا غير واحد من

---

(١) القاضي أبو بكر: (٣٣٨ ـ ٤٠٣هـ) هو محمد بن الطيب، قاض من كبار علماء الكلام ومن أئمة الأشاعرة، من كتبه: إعجاز القرآن والإنصاف، والانتصار، وفيات الأعيان: ٤٨١/١. قضاة الأندلس: ٣٧ ـ ٤٠ وغيرهما.

(٢) الإتقان للسيوطي: ٥١/١.

العلماء فابن الزبير الثقفي في برهانه يقول: والجمهور من العلماء إلى أن ترتيب السّور إنما وقع باجتهاد من الصحابة، وأن رسول الله ﷺ فوض ذلك إلى أمته بعده[1].

ويقول الزركشي في البرهان: ذهب جمهور العلماء ومنهم مالك والقاضي أبو بكر بن الطيب إلى أن الترتيب من فعل الصحابة، وأنه ﷺ فوض ذلك إلى أمته[2].

ويقول السيوطي في إتقانه: فجمهور العلماء على الثاني[3]، يعني القول بالاجتهاد. ومن أشهر القائلين بالاجتهاد مالك والقاضي أبو بكر بن الطيب[4] فيما اعتمده واستقر عليه مذهبه من قوله، قال: فإن قيل: قد اختلف السلف في ترتيب القرآن فمنهم من كتب في المصحف السور على تاريخ نزولها وقدم المكي على المدني، ومنهم من جعل من أوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وهو أول مصحف علي، وأما مصحف ابن مسعود فأوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ثم البقرة ثم النساء على ترتيب مختلف، ومصحف أُبيّ كان أوله الحمد ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة على اختلاف شديد.

فالجواب: أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هي عليه اليوم على وجه الاجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم[5]. ونقل عنه قوله: وترتيب السور اليوم هو من تلقاء زيد ومن كان معه مع مشاركة من عثمان رضي الله عنه[6].

وقال أبو الحسين أحمد بن فارس[7] في كتاب المسائل الخمس: جمع

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفي: ص٧٩.

(٢) البرهان للزركشي: ١/ ٢٥٧. (٣) الإتقان للسيوطي: ١/ ٨٢.

(٤) انظر في ذلك: نكت الانتصار للباقلاني: ص٨٢، تحقيق محمد زغلول سلام مصر ١٩٧١م.

(٥) البرهان للزركشي: ١/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٦) مقدمتان في علوم القرآن: ٢٧٥، تحقيق آرثر جفري، ط مصر ١٩٥٤م.

(٧) أبو الحسن أحمد بن فارس (٣٢٩ ـ ٣٩٥) من أئمة اللغة والأدب شيخ الهمذان وابن عباد وغيرهما، أصله مروزي استوطن الريّ وتوفي بها وإليها نسبته، من كتبه: مقاييس اللغة، وفقه اللغة، وجامع التأويل (وفيات الأعيان: ١/ ٣٥).

القرآن على ضربين: أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا الضرب هو الذي تولاه الصحابة رضوان الله عليهم، وأما الجمع الآخر فضم الآي بعضها إلى بعض وتعقيب القصة بالقصة فذلك شيء تولاه رسول الله ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربّه ﷻ[1].

وذكر مكي بن أبي طالب القيسي في تفسيره سورة براءة أن ترتيب السور من عمل الصحابة، أما ترتيب الآيات في السور ووضع البسملة في الأوائل هو من النبي عليه الصلاة والسلام، ولما لم يأمر بذلك في أول براءة تركت بلا بسملة[2].

وإن مما استدل به القائلون بالاجتهاد اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور قبل جمع المصحف الإمام، فمصحف علي كان مرتباً على النزول، وكان أول مصحف ابن مسعود البقرة ثم النساء ثم آل عمران على اختلاف شديد، وكذا مصحف أبيّ وغيره[3].

وفي هذا السياق قال الزركشي: وترتيب بعضها ليس هو أمراً أوجبه الله بل أمر راجع إلى اجتهادهم واختيارهم، ولهذا كان لكل مصحف ترتيب[4].

غير أن هذا الدليل كما يبدو قابل للمناقشة وغير مسلَّم به على علّاته إذ يمكن أن يكون اختلاف من خالف من الصحابة في الترتيب إنما كان قبل علمهم بالتوقيف النهائي خصوصاً وأن القرآن كان ينزل منجماً، ومنه ما ينسخ ويرفع بعد نزوله، وقد يكتمل نزول هذه السورة ولا يكتمل نزول الأخرى.

يضاف إلى هذا أن اجتهاد الصحابة في ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختياراً شخصياً لم يلزموا به أحداً ولم يدّعوا أن مخالفته محرمة، إذ لم يكتبوا تلك المصاحف للناس وإنما كتبوها لأنفسهم، حتى إذا اجتمعت الأمة على ترتيب عثمان أخذوا به وتركوا مصاحفهم الفردية، ولو أنهم كانوا يعتقدون أن

---

(١) البرهان للزركشي: ١/٢٥٩.
(٢) مقدمتان في علوم القرآن: ٢٧٥ ـ ٢٧٦، تحقيق آرثر جفري، مصر ١٩٥٤م.
(٣) الإتقان للسيوطي: ١/٨٢. (٤) البرهان للزركشي: ١/٢٦٢.

الأمر مفوض إلى اجتهادهم وموكول إلى اختيارهم لاستمسكوا بترتيب مصاحفهم ولَمَا أخذوا بترتيب عثمان[1].

ومن استدلالاتهم ما أخرجه ابن أشتة[2] في المصاحف عن أبي محمد القرشي قال: أمرهم عثمان أن يتابعوا الطوال، فجعلت سورة الأنفال وسورة التوبة في السبع ولم يفصل بينهما ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[3].

ولعل هذه الحادثة هي التي أخرجها مفصلة أحمد والترمذي وغيرهما من رواية يزيد الفارسي عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ووضعتموها في السبع الطوال؟

فقال عثمان رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ووضعتهما في السبع الطوال[4].

ودليلهم هذا قابل للمناقشة من جهات: فهو من جهة خاص بمحل وروده وهو سورة الأنفال وقرينتها سورة التوبة، وليس ثمة من مسوغ لتعميم الحكم وسحبه على كامل سور القرآن.

ومن جهة ثانية: فإن أبا جعفر النحاس[5] في «الناسخ والمنسوخ» أورد

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن لصبحي صالح: ٧١.

(٢) ابن أشتة: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن أشتة ويكنّى أبا بكر، نحوي محقق ثقة، كثرة اشتغاله بعلوم القرآن توفي ٣٦٠هـ. (غاية النهاية في طبقات القراء: ٢/ ١٨٤).

(٣) انظر في ذلك فتح الباري: ٨/ ٣١٤، ومسند أحمد: ١/ ٥٧.

(٤) مسند أحمد: ١/ ٥٧، سنن الترمذي: تفسير سورة ٩/ ١. المستدرك: تفسير ٢/ ٢١.

(٥) أبو جعفر النحاس: أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي من علماء مصر توفي سنة ٣٣٨هـ، من كتبه «الناسخ والمنسوخ»، مطبوع بمطبعة السعادة بمصر، ١٣٢٣هـ (إنباه الرواة: ١/ ١٠١).

رواية أخرى من طريق يزيد الفارسي عن ابن عباس ذكر فيها نحو ما ذكر في الأولى وجاء في آخرها: أن ابن عباس ﵁ قال: وكانتا ـ يعني الأنفال وبراءة ـ تُدْعَيان في زمان رسول الله ﷺ القرينتين، ففي هذا ما يدل على أن الأنفال والتوبة مستقلة الواحدة منهما عن الأخرى، وأن ولاء التوبة الأنفال واقترانها بها كان معلوماً من عهد رسول الله ﷺ.

ومن جهة ثالثة: فإن هذا الحديث مشكوك فيه، فيزيد الفارسي الذي انفرد بروايته عن ابن عباس يذكره البخاري في الضعفاء. بل ويذهب بعض المحققين إلى أن الحديث ضعيف جدّاً ولا أصل له[1].

يقول صبحي الصالح: لا يستند القسم الاجتهادي إلى دليل صحيح بل يعتمد على حديث ضعيف جداً، بل هو حديث لا أصل له يدور إسناده في كل رواياته على يزيد الفارسي[2] الذي رواه عن ابن عباس، ويزيد الفارسي هذا يذكره البخاري في الضعفاء فلا يقبل منه مثل هذا الحديث الذي ينفرد به، وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعي قراءة وسماعاً وكتابة في المصاحف، وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه، وحاشاه من ذلك، فلا علينا إذا قلنا: إنه حديث لا أصل له[3].

ومما استند إليه القائلون بالترتيب الاجتهادي ما روي من أن عثمان ﵁ لما بلغه خبر اختلاف المسلمين في قراءة القرآن أمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بنسخ المصاحف[4]. قالوا: إنّ ما أمر به عثمان هو التأليف وترتيب السور.

قال أبو بكر بن الطيب وهو من القائلين بالاجتهاد: وترتيب السّور اليوم

---

(١) انظر في ذلك تعليق المحقق أحمد محمد شاكر على الحديث رقم ٣٩٩، في مسند الإمام أحمد: ١/٣٢٩ وما بعدها.

(٢) يزيد الفارسي: انظر في ذلك تهذيب التهذيب لابن حجر: ١١/٣٧٤.

(٣) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح: ٧٢ ـ ٧٣.

(٤) البخاري: فضائل القرآن: ٢، ٣.

هو من تلقاء زيد ومن كان معه مع مشاركة من عثمان[1].

وقد نوقش رأيهم هذا بأنه تأويل بعيد، وليس في الحديث تصريح بما قالوه ولا تلميح، خصوصاً وأن الدافع الأساسي لهذا الجمع كان الاختلاف في القراءة لا الاختلاف في تأليف القرآن ونظمه.

يقول أبو جعفر النحاس في «الناسخ والمنسوخ»: وقد أشكل على بعض أصحاب الحديث ما طعن به بعض أهل الأهواء بالحديث أن عثمان رضي الله عنه أمر زيد بن ثابت أن يجمع القرآن وضم إليه جماعة، فتوهم أن هذا هو التأليف وهو غلط عظيم، وقد تكلم العلماء في معنى هذا بأجوبة، فمنهم من قال: إنما أمر بجمعه وإن كان مجموعاً لأنهم كانوا يقرؤونه على سبعة أحرف فوقع بينهم الشرّ والخلاف، وأراد عثمان رضي الله عنه أن يختار من السبعة حرفاً واحداً هو أفصحها ويزيل الستة، وهذا من أصح ما قيل فيه، لأنه روي عن زيد بن ثابت أنه قال هذا، ويدل على صحته أن زيد بن ثابت كان يحفظ القرآن فلا معنى لجمعه إياه إلا على هذا وما أشبهه. وقد قيل: إنما جمعه وإن كان يحفظه لتقوم حجته عند عثمان أنه لا يستبد برأيه[2].

هذه بعض أدلة القائلين بالاجتهاد والردود عليها، وهي كما ترى ليست على جانب كبير من القوة بحيث يمكن التسليم إليها، وهذا ما حدا بالكثير من المحققين إلى تضعيف القول بالاجتهاد بل وإلى التحذير من خطورة اعتماده، لما يثيره من شكوك حول تأليف القرآن الذي هو وجه من وجوه إعجازه، ولما يفتحه لأعداء الإسلام من منافذ للطعن.

قال أبو بكر ابن الأنباري[3]: فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن[4]، وقال أبو جعفر النحاس في تعليقه على حديث: «أعطيت السبع

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن: ٢٧٥.

(٢) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس: ١٥٩.

(٣) أبو بكر ابن الأنباري: هو محمد بن القاسم الأنباري صاحب «عجائب علوم القرآن» توفي سنة ٣٢٣هـ، (الأعلام: ٧/٢٢٦، وفيات الأعيان: ١/٥٠٣، بغية الوعاة: ٩١).

(٤) الإتقان للسيوطي: ١/٣٣.

الطوال مكان التوراة. . . الحديث»[1]: فهذا التأليف من لفظ رسول الله ﷺ، وهذا أصل من أصول المسلمين لا يسعهم جهله، لأن تأليف القرآن من إعجازه، ولو كان التأليف من غير الله ورسوله لسوعد بعض الملحدين على طعنهم[2].

٢ ـ القائلون بالتوقيف:

يرى القائلون بالتوقيف أن ترتيب سور القرآن على الوجه الذي توجد عليه في المصاحف إنما هو بتوقيف من النبي ﷺ. ولم توضع سورة في موضعها المخصص لها إلا بناء على أمر النبي وتعليمه وبرمزه وإشارته على حسب ما فهموه من تلاوته في المناسبات المتعددة.

ومن أشهر القائلين بالتوقيف: القاضي أبو بكر بن الطيب في أحد قوليه، وأبو بكر بن الأنباري حيث قال: أنزل الله القرآن كله إلى السماء الدّنيا ثم فرقه في بضع وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جواباً لمستخبر، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية والسورة، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كلها عن النبي ﷺ، فمن قدَّم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن[3].

ومن المنتصرين للتوقيف أبو جعفر النحاس. قال: ومما يدل على أن القرآن كان مؤلفاً على عهد النبي ﷺ ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: أعطيت السبع الطوال مكان التوراة. . . الحديث[4]، ثم علق أبو جعفر قائلاً: فهذا التأليف من لفظ رسول الله ﷺ، وهذا أصل من أصول المسلمين لا يسعهم جهله، لأن تأليف القرآن من إعجازه، ولو كان التأليف من غير الله ورسوله لسوعد بعض الملحدين على طعنهم[5].

---

(١) مسند أحمد: ٤/٧٠٧.
(٢) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس: ١٥٩.
(٣) الإتقان للسيوطي: ١/٨٢ ـ ٨٣.
(٤) مسند أحمد: ٤/١٠٧.
(٥) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس: ١٥٩.

وأيده الكرماني[1]، في البرهان فقال: ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه كان رسول الله ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين...[2].

وتشيّع له الطيبي[3] فقال: أنزل القرآن أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ[4].

وقال بهذا ابن الحصار[5] فقد جاء عنه: وترتيب السور ووضع الآيات موضعها إنما كان بالوحي[6].

كما قال بهذا ابن الزبير الثقفي على ما استقر عليه رأيه، قال في كتابه ملاك التأويل[7]: إن ترتيب السور بتوقيف على أصح المأخذين وأما ترتيب الآي فلا توقف فيه، وإن ذلك كله معتمد فيه غير ترتيب النزول[8].

ورجح الزركشي ذلك في البرهان فقال: وهو ـ يعني علم المناسبة بين السور ـ مبنيّ على أن ترتيب السور توقيفي، وهذا الراجح[9].

---

(١) الكرماني: هو أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة بن نصر الكرماني الشافعي الملقب بتاج القراء، توفي بعد سنة ٥٠٠هـ (بغية الوعاة: ٣٨٧).

(٢) الإتقان للسيوطي: ١/ ٨٣.

(٣) الطيبي: هو الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبي من شراح الكشاف توفي سنة ٧٤٣هـ (بغية الوعاة: ٢٢٨).

(٤) الإتقان للسيوطي: ١/ ٨٣.

(٥) ابن الحصار: لعله علي بن محمد الخزرجي أبو الحسن الحصار، فقيه إشبيلي الأصل جاور بمكة وتوفي بالمدينة سنة ٦١١هـ، له كتاب في الناسخ والمنسوخ (التكملة لابن الأبار ٦٨٦).

(٦) الإتقان للسيوطي: ١/ ٨٣.

(٧) طبع في مجلدين ـ تحقيق وتقديم سعيد الفلاح ـ ط. دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٨٣م.

(٨) ملاك التأويل لابن الزبير الثقفي: ١/ ٣١٦.

(٩) البرهان للزركشي: ١/ ٣٨.

ونجد على هذا المذهب ابن حجر[1] حيث قال: ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفياً. ومما يدل على أن ترتيبها توقيفي ما أخرجه أحمد[2] وأبو داود[3] بسنده عن أوس عن حذيفة الثقفي قال: كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف.. الحديث[4].

وانتصر لهذا الرأي من المعاصرين الدكتور صبحي الصالح، قال: وأما ترتيب السور فتوقيفي أيضاً، وقد علم في حياته ﷺ. وهو يشمل السور القرآنية جميعاً. ولسنا نملك دليلاً على العكس، فلا مسوغ للرأي القائل: إن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة ولا الرأي الآخر الذي يفصل...[5].

أدلة القائلين بالتوقيف:

لأنصار هذا الرأي جهات تعلق نذكر منها:

١ ـ أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على ترتيب المصحف الذي كتب في عهد عثمان ولم يخالف في ذلك أحد حتى من كان بحوزته مصاحف مكتوبة على ترتيب مخالف، فلو لم يكن الأمر توقيفياً لحصل من أصحاب المصاحف المخالفة في الترتيب التمسك بترتيب مصاحفهم، ولوصلنا في هذا الشأن شيء من أخبارهم كما وصلتنا مواقفهم في أمور أخرى، لكن عدولهم عن مصاحفهم وعن ترتيبها، بل وإحراقها دليل على أن الأمر ليس للرأي فيه مجال، ولا يشترط أن يكون التوقيف بنص صريح بل يكفي فيه الفعل أو الرمز أو الإشارة أو التقرير.

ونوقش هذا الدليل بأن الصحابة ربما حملهم على هذا الإجماع ما رأوه من توفيق عثمان في عمله، أو ما رأوه في هذا العمل من جمع كلمة الأمة ودرء سبب الفتنة عنها.

---

(١) ابن حجر (٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ) أحمد بن علي العسقلاني الحافظ صاحب المؤلفات الكثيرة، (البدر الطالع: ١/ ٨٧).

(٢) مسند أحمد: ٤/ ٩.

(٣) سنن أبي داود: ١/ ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٤) الإتقان للسيوطي: ١/ ٨٣.

(٥) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح: ٧١.

٢ ـ وأن السور المتجانسة في القرآن لم يلتزم فيها الترتيب والولاء على الاطّراد، فإذا كانت الحواميم قد رتبت ولاء فإن المسبحات لم يتمّ فيها ذلك بل فصل بينها بالمجادلة والممتحنة والمنافقون، كما فصل بين طسّمّ الشعراء وطسّمّ القصص بطسّ النمل مع أنها أقصر منهما، فلو كان الترتيب اجتهادياً لالتزم فيه التجانس على الاطّراد ولما حصل التفريق بين المتماثلات من السور في فواتحها وفي طولها وقصرها[1].

٣ ـ ومنها ما يلاحظ من تناسب وترابط متين بين سور الكتاب في ترتيبها الثابت في المصحف الإمام، فإن بعضها آخذ برقاب بعض في نظم عجيب معجز، لا يمكن أن يُردَّ إلى اجتهاد البشر وإلا كان ذلك منفذاً للطعن واستنقاصاً من شأن هذا الكتاب العزيز.

وما عمل ابن الزبير في هذا الكتاب إلا محاولة لإبراز هذا التناسب والتأكيد على أنه إلٰهي ووجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وقد قال أبو جعفر النحاس: تأليف القرآن من إعجازه[2]، وقال ولي الدين الملوي: فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة واحدة إلى بيت العزة ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر[3].

وقال الفخر الرازي في تفسير سورة البقرة: ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بحسب أسلوبه، أرادوا ذلك...[4].

وقد اشتغل بعض العلماء بإبراز هذا التناسب والتلاحم والتزم بعض المفسرين الوقوف عنده وكشف الغطاء عنه، لا بين الآيات فحسب بل وبين السور، أمثال برهان الدين البقاعي[5] في تفسيره القيم المعروف بـ«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور».

---

(١) انظر في هذا: الإتقان للسيوطي: ١/ ٨٤.

(٢) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس: ١٥٩.

(٣) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٣٨. (٤) التفسير الكبير للرازي: ٧/ ١٣٨.

(٥) البقاعي: إبراهيم بن عمر بن حسين الرباط أبو الحسن برهان الدين مؤرخ وأديب =

جاء في البرهان للزركشي: ولترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صدر عن حكيم، أحدها: بحسب الحروف، كما في الحواميم، وثانيها: لموافقة أوّل السورة لآخر ما قبلها في المعنى، كآخر الحمد وأوّل البقرة، وثالثها: للوزن في اللفظ، كآخر تبت وأول الإخلاص، ورابعها: لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى مثل: «والضحى» و«ألم نشرح»[1].

وقال بعض الأئمة: وسورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية والالتجاء إليه في دين الإسلام والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين، وآل عمران مكملة لمقصودها، فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم. . .، أما سورة النساء فتتضمن جميع أحكام الأنساب التي بين الناس. . .، وأما المائدة فسورة العقود وبها تمام الشرائع، قالوا: وبها تم الدين فهي سورة التكميل، بها ذكر الوسائل كما في الأنعام والأعراف ذكر المقاصد. . .

وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيات: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة من أحسن الترتيب[2].

وقال الزركشي في موطن آخر[3]: ومن أسراره مناسبة فاتحة السورة بخاتمة التي قبلها، حتى إن منها ما يظهر تعلقها به لفظياً كما قيل في: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥] ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١] وللقارئ الكريم في مناسبات ابن الزبير ما يفي بالحاجة في هذا المجال.

هذه بعض أدلة القائلين بالتوقيف، وقد دعموها بالروايات الكثيرة الواردة في هذا السياق منها: ما أخرجه أحمد وأبو داود من حديث حذيفة الثقفي

= أصله من البقاع في سورية كانت وفاته بدمشق سنة ٨٥٨هـ. من أشهر مؤلفاته: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. طبع بالهند، يعرف بمناسبات البقاعي أو تفسير البقاعي (البدر الطالع: ١/١٩، الضوء اللامع: ١/١٠١ ـ ١١١).

(١) البرهان للزركشي: ١/٢٦٠.

(٢) البرهان للزركشي: ١/٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٣) البرهان للزركشي: ١/١٨٦.

قال: كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف. . . الحديث، وفيه: فقال لنا رسول الله ﷺ: «طرأ عليّ حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه». فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزب المفصل من قَ حتى نختم[1].

فهذا دليل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله ﷺ[2].

ومنها ما رواه واثلة بن الأسقع عن النبي أنه قال: «أعطيت السبع الطوال مكان التوراة، وأعطيت المئين مكان الزبور، وأعطيت المثاني مكان الإنجيل، وفُضِّلت بالمفصل»[3].

علق أبو جعفر النحاس على هذا الحديث بقوله: فهذا التأليف من لفظ رسول الله ﷺ، وهذا أصل من أصول المسلمين لا يسعهم جهله، لأن تأليف القرآن من إعجازه، ولو كان التأليف من غير الله ورسوله لسوعد بعض الملحدين على طعنهم[4].

وأخرج ابن أشته في كتاب المصاحف من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال: سمعت ربيعة يسأل: لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة وإنما أنزلتا بالمدينة؟ فقال: قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه به ومن كان معه فيه واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مما يُنتهَى إليه ولا يسأل عنه[5].

وفي صحيح البخاري أنه ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ: «قل هو الله أحد» والمعوذتين[6]، فذكرها ولاء على ما هي عليه في المصحف.

---

(١) مسند أحمد: ٩/٤، سنن أبي داود: ١/ ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٢) الإتقان للسيوطي: ١/ ٨٣ ـ ٨٤.

(٣) مسند أحمد: ١٠٧/٤.

(٤) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس: ١٥٩.

(٥) الإتقان للسيوطي: ١/ ٨٤.

(٦) البخاري: طب ٣٩.

وفيه عن ابن مسعود ﷺ أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي[1]، فذكرها نسقاً كما استقر ترتيبها.

إن مثل هذه الروايات كثيرة، وهي وإن كانت خاصة بمحالها ولا تشكل دليلاً قطعياً على ترتيب توقيفي لكامل سور القرآن، ففيها دليل لا يُرَد بأن السور التي ورد ذكرها كانت على ترتيب مماثل لما في المصحف، وإذا كانت هذه الروايات بحكم ورودها في مناسبات معينة قد اقتصرت على بعض سور القرآن فلا تقوم دليلاً على أن ما لم يرد ذكره ولم يتعرض له كان ترتيبه مخالفاً لما بين أيدينا، بل الأقرب أن تدل على المماثلة وعدم المفارقة.

القائلون بالتفصيل:

يذهب هؤلاء إلى أن ترتيب بعض سور القرآن كان بتوقيف من النبي ﷺ وترتيب البعض الآخر فوض أمره إلى اجتهاد الصحابة. وحجتهم في ذلك تردد الأحاديث الواردة في الموضوع بين التوقيف والاجتهاد وعدم قطعها بهذا أو بذاك، وقد تم إيراد الكثير منها في أدلة القائلين بالاجتهاد وأدلة المنتصرين للتوقيف، فأغنى عن إعادة ذكرها هنا.

وقد انتصر لهذا المذهب جلة من العلماء أمثال: ابن عطية[2] والبيهقي وابن الزبير الثقفي والسيوطي، ومال إليه من المحدثين عبد العظيم الزرقاني فقال: ولعله أمثل الآراء[3].

ولئن كان هؤلاء قد انتصروا جميعاً لهذا المذهب ورأوه الأمثل فإنهم اختلفوا في تحديد السور التي جاء ترتيبها عن توقيف والسور التي كان ترتيبها عن اجتهاد.

---

(١) البخاري: فضائل القرآن: ٦/ ٤٥.

(٢) ابن عطية: هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرؤوف صاحب التفسير المشهور المعروف بالمحرر الوجيز، توفي بلورثة بالأندلس سنة ٥٤٢هـ (نفح الطيب: ١/ ٥٨٥، الأعلام: ٤/ ٥٣).

(٣) مناهل العرفان: ١/ ٣٥٦.

ففي حين يقصر ابن عطية التوقيف على السبع الطوال والحواميم والمفصل، يوسع ابن الزبير مجاله ويسحبه على أكثر من ذلك ويبلغ به البيهقي وابن العربي والسيوطي حداً لا يخرج معه عن التوقيف إلا الأنفال وبراءة.

قال القاضي ابن عطية: وظاهر الآثار أن السبع الطوال والحواميم والمفصل كان مرتباً في زمن النبي ﷺ وكان في السور ما لم يرتب، فذاك هو الذي رتب وقت الكتب[1]. وقال ابن العربي في إحكام القرآن عند بيان وجه سقوط البسملة من أول براءة: وفي هذا كله دليل على أن تأليف القرآن كان منزلاً من عند الله وأن تأليفه من تنزيله... إلا هذه السورة[2].

وقال ابن الزبير الثقفي في مقدمة البرهان رداً على ما قاله ابن عطية: وقد مال القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية رحمه الله في ترتيب السور إلى القول بالتفصيل وأن كثيراً من سور القرآن قد كان علم ترتيبها في أيامه ﷺ كالسبع الطوال والحواميم والمفصل، وأشار كلامه إلى أن ما سوى ذلك يمكن أن يكون ﷺ فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده، ولم يقطع القاضي أبو محمد في هذا القسم بشيء، وظواهر الآثار شاهدة بصحة ما ذهب إليه في أكثر مما نص عليه ويبقى قليل من السور يمكن فيها جري الخلاف أو يكون وقع[3].

وقال في موضع آخر من برهانه: الآثار المستفيضة والمقطوع به منها، إنما ورد ذلك في الأكثر ولم يرد فيما بين كل سورتين سورتين ولا شك أنه إذا بقي بعض ذلك لاجتهادهم ولو فيما بين سورتين جرى القول المشهور عليه وصح اعتماده[4].

وقال البيهقي في المدخل: كان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتباً سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان[5].

(١) مقدمتان في علوم القرآن: ٢٧٦.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي: ١/ ٣٦٦، الطبعة الأولى، مصر ١٣٣١.
(٣) البرهان في تناسب سور القرآن: ص٨١.
(٤) مقدمة البرهان لابن الزبير الثقفي: ص٨٢.
(٥) الإتقان للسيوطي: ١/ ٨٣.

وقال السيوطي في الإتقان: والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة والأنفال، ولا ينبغي أن يستدل بقراءته ﷺ سوراً ولاء على أن ترتيبها كذلك، وحينئذ فلا يرد حديث قراءته النساء قبل آل عمران[1] لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب، ولعله فعل ذلك لبيان الجواز[2].

التوفيق بين الآراء:

حاول ابن الزبير الثقفي أن يوفق بين الآراء الثلاثة، فبين أنها تلتقي جميعاً على القول بالتوقيف، والخلاف بينها لا يعدو أن يكون لفظياً: هل هو بتوقيف قولي صريح من رسول الله أم هو بتوقيف فعلي مستفاد من أفعال رسول الله ﷺ؟

فالمنتصرون للاجتهاد يقولون: إنه رُمز إليهم الترتيب لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته وسماعهم ذلك عن الرسول عند استظهاره على جبريل وقراءته في الصلاة وفي المناسبات المختلفة.

يقول ابن الزبير: إن كان بتوقيف منه ﷺ فلا مجال للخصم بعد ذلك التحديد الجليل والرسم، وإن كان مما فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده فقد أعمل الكل من الصحابة في ذلك جهده وهم الأملياء بعلمه، والمسلَّم لهم في وعيه وفهمه، والعارفون بأسباب نزول الآيات ومواقع الكلمات، وإنما ألّفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ، وهذا قول مالك رحمه الله في حكاية بعضهم عنه. ومالك أحد القائلين بأن ترتيب السور باجتهاد من المسلمين. . .

وكيفما دار الأمر فمنه ﷺ عُرف ترتيب السور، وعلى ما سمعوه منه بنوا

---

(١) روى مسلم عن حذيفة قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح سورة البقرة، فقلت يركع عند المائة ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران. . . الحدث (مسلم: مسافرين: ٢٠٣).

(٢) الإتقان للسيوطي: ١/ ٨٤.

جليل ذلك النظر، فإذاً إنما الخلاف هل ذلك بتوقيف قولي أم بمجرد استناد فعلي، بحيث بقي لهم فيه مجال للنظر؟ فهذا موضع الخلاف[1].

وقد أشار الزركشي في البرهان إلى مثل هذا، ولعله نقل ذلك عن ابن الزبير، فالشبه بين ما جاء في البرهانين كبير، وربما كان قول السيوطي في الإتقان: وسبقه إلى ذلك أبو جعفر ابن الزبير[2]، تنبيهاً إلى ذلك.

قال الزركشي: الخلاف بين القائلين بالتوقيف والقائلين بالاجتهاد يرجع إلى اللفظ لأن القائل بالثاني يُقرّ بأنه رُمز إليهم بذلك لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته، ولهذا قال الإمام مالك: إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ مع قوله بأن ترتيب السور اجتهاد منهم...[3].

حُرمة هذا الترتيب:

إن ترتيب السور سواء أكان بتوقيف أم باجتهاد، أم بهما معاً، أمر مرعي محترم. فإن كان عن توقيف ففي مراعاته واحترامه وخاصة في كتابة المصاحف التزام بسنة رسول الله، وإن كان عن اجتهاد من الصحابة ففيه امتثال لإجماعهم، والإجماع حجة، وهو في كلتا الحالتين صيانة لكتاب الله ودرء لأسباب الفتنة والمفسدة، إذ لو وقع التساهل في ترتيب المصاحف لأدى ذلك على المدى البعيد إلى الاختلاف في تأليف القرآن ونظمه، وتأليف القرآن من إعجازه، وقد قال ابن سيرين: تأليف الله خير من تأليفكم[4].

وقال أبو جعفر النحاس: فهذا التأليف من لفظ رسول الله ﷺ، وهذا أصل من أصول المسلمين لا يسعهم جهله لأن تأليف القرآن من إعجازه ولو كان التأليف من غير الله ورسوله لسوعد بعض الملحدين على طعنهم[5].

أما ترتيب السور عند التلاوة فمندوب، وتفريقها أو عكسها جائز، ولكنه

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفي: ص٨٠.

(٢) الإتقان للسيوطي: ١/ ٨٣.

(٣) البرهان للزركشي: ١/ ٢٥٧.

(٤) الإتقان للسيوطي: ١/ ١٤٤.

(٥) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس: ١٥٩.

خلاف الأولى، واستدلوا بما رواه مسلم عن حذيفة قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح سورة البقرة فقلت يركع عند المائة ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران. . . الحديث[1].

علق ابن الزبير على الحديث فقال: ربما فعل هذا إرادة للتوسعة على الأمة وبياناً لجليل تلك النعمة[2]، وقال السيوطي: ولا ينبغي أن يستدل بقراءته ﷺ سوراً ولاء على أن ترتيبها كذلك، وحينئذ فلا يرد حديث قراءته النساء قبل آل عمران لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب ولعله فعل ذلك لبيان الجواز[3]، وقال في موضع آخر: الأولى أن يقرأ على ترتيب المصحف.

قال في شرح المهذب: «لأن ترتيبه لحكمة فلا يتركها إلا فيما ورد فيه الشرع كصلاة صبح يوم الجمعة بـ «بالّم تنزيل» «وهل أتى» ونظائره[4]».

وأما قراءة السور منكوسة من آخرها إلى أولها فمتفق على منعه لأنه يذهب بعض نوع الإعجاز ويزيل حكمة الترتيب، أخرج الطبراني بسند جيد عن ابن مسعود أنه سئل عن رجل يقرأ القرآن منكوساً، قال: ذلك منكوس القلب[5].

وأما خلط سورة بسورة، فقد عد الحليمي[6] تركه من الآداب لما أخرجه أبو عبيد عن عمر مولى عفرة أن النبي ﷺ قال لبلال: إذا قرأت السور فأنفذها[7]. وقال البيهقي، وأحسن ما يحتج به أن يقال: إن هذا التأليف لكتاب الله مأخوذ من جهة النبي ﷺ، وقد أخذه عن جبريل، فالأولى للقارئ أن يقرأه على التأليف المنقول[8].

---

(١) صحيح مسلم: مسافرين: ٢٠٣، وانظر مصنف ابن أبي شيبة: ١/ ٣٦٨.

(٢) البرهان لابن الزبير الثقفي: ص٧٤.

(٣) الإتقان للسيوطي: ١/ ٨٤.

(٤) الإتقان للسيوطي: ١/ ١٤٤.

(٥) الإتقان للسيوطي: ١/ ١٤٤.

(٦) هو: أبو عبد الله حسين بن الحسن الحليمي الجرجاني صاحب كتاب: «المنهاج»، توفي سنة ٤٠٣هـ. (الأعلام: ٢/ ٢٥٣).

(٧) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، لوحة ٢٠ عن عمر مولى عفرة، انظر: نكت الانتصار للباقلاني: ٨٥، والإتقان للسيوطي: ١/ ١٤٤، ومصنف ابن أبي شيبة: ٢/ ٥٣٢.

(٨) الإتقان للسيوطي: ١/ ١٤٤.

وقد بسط الإمام النووي[1] هذا الموضوع في كتابه «التبيان» فقال: قال العلماء: الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران ثم ما بعدها على الترتيب سواء أقرأ في الصلاة أم في غيرها حتى قال بعض أصحابنا: إذا قرأ في الركعة الأولى سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ يقرأ في الثانية بعد الفاتحة من البقرة.

قال بعض أصحابنا: ويستحب إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التي تليها، ودليل هذا أن ترتيب المصحف إنما جعل هكذا لحكمة فينبغي أن يحافظ عليها إلا فيما ورد الشرع باستثنائه كصلاة الصبح يوم الجمعة يقرأ في الأولى سورة السجدة، وفي الثانية «هل أتى على الإنسان»، وصلاة العيد في الأولى «قۤ»، وفي الثانية: «اقتربت الساعة»، وركعتي الفجر الأولى: «قل يا أيها الكافرون» وفي الثانية: «قل هو الله أحد»، وركعات الوتر في الأولى: «سبح اسم ربك الأعلى»، وفي الثانية: «قل يا أيها الكافرون»، وفي الثالثة: «قل هو الله أحد» والمعوذتين.

ولو خالف الموالاة فقرأ سورة لا تلي الأولى أو خالف الترتيب فقرأ سورة قبلها جاز، فقد جاءت بذلك آثار كثيرة، وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الركعة الأولى من الصبح بالكهف وفي الثانية بيوسف[2].

وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف، وروى ابن أبي داود عن الحسن أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على تأليفه في المصحف.

وبإسناده الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قيل له: إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً فقال: ذلك منكوس القلب[3].

وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها. فممنوع منعاً متأكداً لأنه يذهب

---

(١) هو: الإمام محيي الدين أبو زكرياء يحيى بن شرف النووي الشافعي، المتوفى سنة ٦٧٦هـ.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي: ٤٨ ـ ٤٩، مصر، ١٩٦٠م.

(٣) رواه البيهقي، انظر في ذلك البرهان للزركشي: ١/٢٥٧.

ببعض ضروب الإعجاز ويزيل حكمة ترتيب الآيات. وقد روى ابن أبي داود عن إبراهيم النخعي الإمام التابعي الجليل وعن الإمام مالك بن أنس أنهما كرها ذلك، وأن مالكاً كان يعيبه ويقول: هذا عظيم...

وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوّله فحسن، وليس هذا من الباب، فإن ذلك قراءة منفصلة في أيام متعددة على ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم، والله أعلم[1].



(١) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي: ص٤٨ ـ ٤٩، طبعة مصر، ١٩٦٠م.

المبحث الثالث

مناسبة آي القرآن وسوره

من أجلّ علوم القرآن المناسبة بين الآي والسور.

والمناسبة في اللغة المقاربة والمشاكلة، وفلان يناسب فلاناً أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل، ومنه المناسبة في العلة في باب القياس التي تعني الوصف المقارب للحكم[1].

ومرجع هذه المناسبة في الآيات والسور إلى معنى رابط بينها عام، أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول...[2].

وأول من أظهر علم المناسبة ونبه إلى جلالة قدره وعاب على العلماء تقصيرهم في الكشف عن أسراره الإمام أبو بكر النيسابوري[3].

قال الشيخ أبو الحسن الشهرباني[4]: أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري... وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة من جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة[5].

وقال ابن الزبير الثقفي في مقدمة البرهان: لم أر في هذا الضرب

---

(١) البرهان للزركشي: ١/ ٣٥. (٢) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٣٩.

(٣) هو: عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري الحافظ، الفقيه الشافعي كان إمام الشافعية بالعراق، رحل في طلب العلم إلى الشام ومصر ثم استقر ببغداد، توفي سنة ٣٢٤هـ (اللباب: ٣/ ٢٥٢، طبقات القراء: ١/ ٤٤٩).

(٤) نسبة إلى شهرابان، قرية شرقي بغداد، ينسب إليها الكثير من العلماء (معجم البلدان لياقوت: ٣/ ٣٤٠)، (مجهول).

(٥) البرهان للزركشي: ١/ ٣٦.

الخاص ـ يعني علم المناسبة ـ شيئاً لمن تقدم وغبر، وإنما بدر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع مفترقات، وذلك في الباب أوضح، ومجال الكلام فيه أفسح وأسرح، وأما تعلق السور على ما ترتب في الإمام واتفق عليه الصحابة الأعلام فمما لم يُتعرض له فيما أعلم، ولا قرع أحد هذا الباب ممن تأخر أو تقدم. . .[1].

وقلة اعتناء المفسرين بهذا العلم إنما يعود أساساً لدقته، ولما يستجره من التكلف فيما خفي من بعض وجوه المناسبة بين الآي أو السور، ومن الذين اعتنوا به ابن العربي[2]، نقل السيوطي في الإتقان[3] قوله: ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه.

ومن الذين أكثروا منه الإمام فخر الدين الرازي، يقول في تفسيره سورة البقرة: ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك. . .[4].

ومن أشهر الذين أفردوه بالتأليف العلامة أبو جعفر بن الزبير في كتابه البرهان في تناسب سور القرآن، والشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سمَّاه: نظم الدرر في تناسب الآي والسور، والسيوطي في كتابه الذي صنفه في أسرار التنزيل[5]، وقد لخص منه مناسبة السور خاصة في جزء لطيف سمَّاه: تناسق الدرر في تناسب السور[6].

---

(١) مقدمة البرهان لابن الزبير الثقفي: ص٧٧.

(٢) ابن العربي: هو أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري المعروف بابن العربي من علماء إشبيلية توفي سنة ٥٤٤هـ، (الصلة: ترجمة رقم ١١٨١).

(٣) الإتقان للسيوطي: ٢/١٣٨.

(٤) التفسير الكبير للرازي: ٧/١٣٨.

(٥) ذكره السيوطي في الإتقان: ٢/١٣٨.

(٦) حققه عبد القادر أحمد عطا، طبع دار بوسلامة، تونس ١٩٨٣م.

والناس إزاء علم المناسبة بين منتصر له غلا[1] في تكلف المناسبة حتى فيما لا مناسبة فيه، حجته في ذلك أن ترتيب القرآن في آياته وسوره توقيفي ولا يخلو ذلك من أسرار من أجلِّها الإعجاز بالنظم، فطفق يثبت ذلك بكل الوسائل، وبين مقصر أغفل التنبيه حتى إلى ما وضحت وظهرت مناسبته، مستنده أن آي القرآن وسوره على حسب الوقائع المتفرقة والأزمان المتباعدة، ومن التكلف المناسبة بينها، وبين معتدل توسط في ذلك، ونبه إلى المناسبة في مواطن ظهورها ورغب عن التكلف فيما لا سبيل فيه إلى المقاربة، ودليله في ذلك أن المناسبة بين الآيات والسور ـ وإن سلّمنا بوجودها ـ فهي مترددة بين الظهور والخفاء، فلا داعي إلى ركوب متن التكلف والتمحل فيما خفي منها.

ونقل السيوطي عن ولي الدين الملوي قوله: والذي ينبغي في كل آية أن يبحث ـ أول كل شيء ـ عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له[2].

وقال مزرياً على من أنكر المناسبة[3]: قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، وحافظ القرآن الكريم لو استفتي في أحكام متعددة، أو ناظر فيها، أو أملاها، لذكر آية لكل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يقل كما أفتى، ولا كما نزل مفرقاً، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة، ومن المعجز البيّن أسلوبه ونظمه الباهر، فإنه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال الرازي يلوم من أعرض من المفسرين عن لطائف المناسبة ولم ينبه

(١) غلا: بالغ وتجاوز الحدّ. (٢) الإتقان للسيوطي: ٢/١٣٨.
(٣) البرهان للزركشي: ١/٣٧، الإتقان للسيوطي: ٢/١٣٨.

لأسرارها[1]... إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار صورته   والذنب للطرف لا للنجم في الصغر[2]

ودرءاً للخلاف، وإبعاداً للتكلف المقيت في المناسبة، عمل بعض العلماء على التنبيه إلى بعض الضوابط التي ينبغي أن تلتزم في القول بها، كوحدة الموضوع، ووجود رابط من الروابط، عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والتضاد، والتنظير والاستطراد، والتخلص.. ونحو ذلك.

قال العز بن عبد السلام[3]:

يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدها بالآخر... ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصان عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض، إذ لا يحسن أن يربط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض مع اختلاف العلل والأسباب كتصرف الملوك والحكام والمفتين وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة، وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض مع اختلافها في نفسها واختلاف أوقاتها[4].

وينقل السيوطي عن بعض المتأخرين قوله:

الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب،

---

(١) التفسير الكبير: ١٣٨/٧.   (٢) البحر البسيط.

(٣) العز بن عبد السلام: هو الإمام عبد العزيز بن عبد السلام المشهور بالعز ولد سنة ٥٧٧هـ، وتوفي سنة ٦٦٠هـ، (ترجمته الكاملة في طبقات الشافعية: ٥/ ٨٠ ـ ١٠٧).

(٤) البرهان للزركشي: ٣٧/١.

وتنظر ـ عند انجرار الحديث في المقدمات ـ إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الروابط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة[1].

فمعيار الطبع والتكلف في إثبات المناسبة بين الآي والسور إنما يعود أساساً إلى مدى التماثل والتقارب أو البعد والتنافر بين الموضوعات، فإن تماثلت وتقاربت، وارتبطت الأوائل بالأواخر فالتناسب معقول مقبول، وإن تنافرت وتباعدت فلا سبيل إلى القول بالتناسب، وإلا كان التكلف والتمحل والإغراب، وصدق من قال: المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول[2].

إن وجه المناسبة بين الآيات والسور يخفى تارة ويظهر أخرى، وإن فرص خفائه تقل بين الآيات وفرص ظهوره تقل بين السور، ذلك لأن الكلام قلّما يتم بآية واحدة، فتتعاقب الآيات في الموضوع الواحد، ولأن السورة ـ كما يدل عليه اسمها ـ غالباً ما تكون مكتملة محيطة بموضوعها، وليس بالضرورة أن يكون تشوف بينها وبين سابقتها ولاحقتها، ولا أن تكون وحدتها الموضوعية هي الوحدة الموضوعية عينها في السور جميعها، حتى وإن سلمنا بالتوقيف في ترتيبها.

ولكل ما تقدم كثر اشتغال المفسرين بالمناسبة بين الآيات، وندر وقوفهم على ما بين السور، قال ابن الزبير الثقفي: بدر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع مفترقات وذلك في الباب أوضح ومجال الكلام فيه أفسح وأسرح، أما تعلق السور على ما ترتب في الإمام واتفق عليه الصحابة الأعلام فمما لم يُتعرض له فيما أعلم، ولا قرع أحد هذا الباب ممن تأخر وتقدم[3].

---

(١) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٤١.

(٢) البرهان للزركشي: ١/ ٣٥.

(٣) البرهان في تنسب سور القرآن: ص٧٧.

ومن العلماء من لم يخف تحفظه إزاء المناسبة بين السور، ولم يتردد في إظهار تخوفه من ركوب بعضهم متن التكلف والإغراب، يقول الدكتور صبحي الصالح: والحق أن الذي ينبغي التنقيب عنه والاستيثاق من نتائجه هو بالمقام الأول وجه المناسبة بين الآيات. . .، أما التماس الترابط بين السور ـ على ما فيه من تعسف وتكلف ـ فهو مبني على أن ترتيب السور توقيفي ـ ولهذا انتصرنا وعليه عوّلنا ـ إلّا أن ترتيب السور التوقيفي لا يستلزم حتماً أن يكون بين كل سورة سابقة وكل سورة لاحقة أواصر قربى. . .[1].

ويقول في موضع آخر[2]: وما نظن احتفال المفسرين قليلاً بهذا النوع لدقته وحسب بل لقلة جدواه وكثرة التكلف فيه.

وكيفما تكن مواقف العلماء من المناسبة بين الآي والسور، ومهما يتسم به توجيههم للمناسبة من طبع أو تكلف، فإن ما قاموا به قد أثمر فوائد جمة، فقد ساعد على إبراز ما بين أجزاء القرآن من لحمة متينة، فإن بعضه آخذ بأعناق بعض في تأليف محكم، حاله حال البناء المتين المتلائم الأجزاء، وكالكلمة الواحدة متسق المعاني منتظم المباني، ومن محاسن الكلام عند الأئمة أن يرتبط بعضه ببعض.

كما أعان على الكشف عن جانب من جوانب الإعجاز القرآني، فالمتأمل في لطائف نظم سور الكتاب وفي بدائع ترتيبها ـ رغم تنجيمها على نيّف وعشرين سنة ـ يتبين أن القرآن مصدره الحكيم الخبير، وأنه إلى جانب إعجازه من ناحية فصاحة ألفاظه وشرف معانيه معجز من جهة ترتيبه ونظم آياته وسوره، ولعل الذين قالوا: إنّه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك.

وإن لنا في مناسبات ابن الزبير أقوى دليل على ما قلنا، فقد أبانت من جهة لطائف القرآن وأسراره المودعة في الترتيبات والروابط، وأثبتت من جهة أخرى أن هذا الكتاب لا تنتهي عجائبه، يُفرق على نيف وعشرين سنة وعلى

---

(١) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح: ١٥١ ـ ١٥٢.

(٢) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح: ١٥٦.

موضوعات عديدة، متقاربة حيناً ومتباينة أحياناً، فيأتي سبيكة واحدة متناسج الآيات متناسب السور: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

إن فضيلة هذا العلم لم تقف عند هذا بل تجاوزته إلى تسديد الفهوم بتجلية المفهوم، فالمناسبة لا تقل أهمية عن السبب في الإعانة على فهم المعنى وتبين حدود الأحكام، ولئن جرت عادة المفسرين البداءة بذكر سبب النزول فإنهم يقدمون أحياناً ذكر المناسبة كلّما رأوا فيها المصحح الحقيقي والذي لا غنى عنه لنظم الكلام وإجلاء المعنى.

يقول الزركشي: إذا كان وجه المناسبة لا يتوقف على سبب النزول فالأولى تقديم وجه المناسبة[1]، من ذلك أن قوله تعالى في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١] قد نزل في كعب بن الأشرف[2]، وكان من أهل الكتاب قدم مكة وشاهد قتلى بدر وحرض الكفار على الأخذ بثأرهم وقتال النبي ﷺ فسألوه: من أهدى سبيلاً؟ المؤمنون أم هم؟ فتملق عواطفهم وقال: بل أنتم أهدى من المؤمنين سبيلاً، وبعد أن تتعاقب الآيات في حق هذا الرجل وحق من شاركه في مقالته من أهل الكتاب يتحول السياق القرآني إلى آية جديدة موضوعها أداء الأمانات إلى أهلها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، ويذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري[3] حاجب الكعبة، لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح البيت يوم الفتح ثم رده

---

(١) البرهان للزركشي: ١/ ٣٤.

(٢) كعب بن الأشرف: (ت٣هـ) من بني نبهان، شاعر جاهلي دان باليهودية وأدرك الإسلام فلم يسلم، أكثر من هجو الرسول والصحابة، فأمر الرسول بقتله فقتل. (ابن الأثير: ٢/ ٥٣، الروض الأنف: ٢/ ١٢٣).

(٣) عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري: صحابي كان حاجب البيت الحرام، مات بالمدينة سنة ٤٢هـ (الإصابة. ت٥٤٤٤).

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٩١ ـ ٩٢، وتفسير ابن كثير: ١/ ٥١٥.

عليه[1]، وبين الآية الأولى التي نزلت عقب بدر والثانية التي نزلت عند الفتح ست سنوات فلم قرنتا؟ ولم أعقب هذا الموضوع بذلك رغم البعد الزمني؟

يجد العلماء بين هذين المقطعين رابطاً مشتركاً رغم السنوات الست التي تفصل بينهما، لأن الزمان إنما يشترط في سبب النزول ولا يشترط في المناسبة، إذ المقصود منها وضع آية في موضع يناسبها[2]، فيجعلون منهما موضوعاً واحداً محكم البناء متلاحم الأجزاء آخذاً بعضه برقاب بعض، معولين على المناسبة وغير حافلين بالسبب فيقولون: إنّ الذين تملقوا عواطف المشركين وقالوا لهم: أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، هم أهل كتاب يجدون عندهم في كتابهم بعث النبي وصفته، وقد أخذت عليهم المواثيق ألا يكتموا تلك الأمانة فخانوها ولم يؤدوها، وكانت حالهم في الخيانة كحال الذين يحملون الأمانات ثم لا يحملونها، وناسب أن يدعوا ويدعى معهم كل إنسان إلى استشعار معنى الأمانة في كل ما كان عنه مسؤولاً.

قال ابن العربي: وجه النظم أنه أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد ﷺ، وقولهم: إن المشركين أهدى سبيلاً، فكان ذلك خيانة منهم، فانجر الكلام إلى ذكر جميع الأمانات[3].

ثم إن المناسبة، وإن تقدمت أحياناً على سبب النزول وكانت أقرب إلى ترابط المعنى واكتماله، فإنها كثيراً ما يُشكل وجهها ويتوقف فهمها على معرفة السبب، ولعل هذا ما يعنيه مسلك المحققين في إيجاب البدء بذكر سبب النزول، يقول الزركشي: إذا كان وجه المناسبة متوقفاً على سبب النزول... فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب لأنه حينئذٍ من باب تقديم الوسائل على المقاصد[4].

والذي نخلص إليه أن المحققين، وإن ذهبوا مرة إلى تقديم السبب حين لا تتضح المناسبة إلا به، وذهبوا أخرى إلى تقديم المناسبة حين لا يتوقف

---

(1) البرهان للزركشي: ١/٢٦.

(2) البرهان للزركشي: ١/٢٦.

(3) البرهان للزركشي: ١/٣٤.

وجهها على سبب النزول، فإنهم التزموا بهذا وبذاك وجمعوا في تفسير كتاب الله بين السبب التاريخي والسياق الأدبي، فما أغفلوا حقائق التاريخ في اشتراط الزمان لمعرفة سبب النزول، ولا أغفلوا التناسق الفني حين أقصوا فكرة الزمان لمراعاة السياق، وما أكثر الآيات التي نزلت على الأسباب الخاصة ووضعت مع ما يناسبها من الآي رعاية لنظم القرآن وحسن السياق، وما أكثر السور التي تأخر نزولها وتقدم ترتيبها، والعكس، مراعاة لوجوه المناسبة.

هذه بعض ملامح عن علم المناسبة رأيت من الصالح التمهيد بها لمناسبات ابن الزبير، علها تعطي فكرة عن هذا العلم الجليل الذي قل فيه التصنيف عامة وندر منه المطبوع خاصة. والله ولي التوفيق.





بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم تسليماً

قال الشيخ الإمام، العالم العَلَم الأوحد الصدر الجليل، المحدث الناقد المحقق، حبر التأويل وكاشف أسرار التنزيل، أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي رحمه الله. . .[1].

الحمد لله الحكيم العليم، العلي العظيم، ذي الفضل العميم والجود القديم، الذي ابتدأ الإنسان بالنعم فُرادى ومثنى، وخلقه في أحسن تقويم بعد كونه نطفة من مني تُمنى، وخصه بمزية التشريف والتكريم، أهّله لتلقي خطابه، وهيأه لتحمل فرقانه العزيز وكتابه، وقد قال سبحانه فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

والصلاة على محمد نبيه المعظم ورسوله المصطفى المكرم، المخصوص بالكتاب، والفاتح لأولي البصائر ـ بما أيد به من الأعلام الباهرة والحجج القاطعة القاهرة ـ مستغلق ذلك الباب، فأوضح السبيل للسالك، فلن يهلك على الله بعد بيانه إلّا هالك، وأنى بسلوك ذلك الباب لمن حقت عليه كلمة العذاب، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

وبعد، فإني اعتبرت قوله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2].

---

(١) جاء في ن٢: قال الشيخ الفقيه الإمام المحدث المقرئ الأستاذ والعلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي رضي الله عنه وأرضاه.

(٢) البخاري: فضائل القرآن: ٦١، مسلم: إيمان: ٢٣٩.

وتأملت ما أيد به (عليه السلام)[1] من المعجزات سوى القرآن، فإذا بضروب لا يحصيها العد، ولا تكاد تنحصر بالحد، وقد قال ﷺ: «وإنما كان الذي أوتيت وحياً»[2] يشير إلى دليل القرآن، وما خص به ﷺ من ساطع ذلك البرهان، وما ذاك إلا لكون (معجزته)[3] أوضح وأحكم، وأهدى وأقوم، فإنما ضمنت إلى ـ الدلالة والشهادة ـ إيضاح الطريق وأعلمت (بحال)[4] كل فريق، ثم زادت بنقائها للمعتبر ومشاهدتها للمذّكر، وقد اضطر من (تأخر)[5] فيما سواها للخبر، وليس كالعيان، فلله ما أعظمها معجزة باقية مدى الدهور والأزمان، وللمشاهدة حال لا ينكر وتعريف لا يتنكر، وفرق بين ما عرف بالمشاهدة وبين ما علم بالدليل، وحسبك سؤال نبي الله الخليل[6].

فالحمد لله الذي جمع لهذه الأمة الأمرين وخصّها بالاعتبارين، فمن معجزات نبينا ﷺ المستوضح اعتباراً بالبيان، والمشاهد حساً بالعيان، وكما أن من تعامى في حياته ﷺ عن نبع الماء من بين أصابعه وغير ذلك من معجزاته ملوم مدحور، ومأزور[7] غير مأجور، فكذلك من تعامى عن آيات الكتاب وكأن لم يقرع أذنه قارع من هذا الباب، ولهذا نبه تعالى بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤]، وبقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] وجهات اعتباره كثيرة، ولسلف هذه الأمة وخلفها مسالك في ذلك شهيرة.

وإني تأملت منها ـ بفضل الله ـ وجوه ارتباطاته وتلاحم سوره وآياته إلى ما يلتحم (مع)[8] هذا القبيل من عجائب شواهد التنزيل، فعلقت في ذلك ما

---

(١) في ن٢: صلى الله عليه وسلم.
(٢) البخاري فضائل القرآن: ١، مسلم: إيمان: ٢٣٩.
(٣) في ن١: معجزاته بالجمع.
(٤) في ن١: بمآل.
(٥) سقط من ن١.
(٦) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠].
(٧) مأزور: آثم، أصله موزور من وزر يزر، وإنما قالوا مأزور لمكان مأجور قلبت الواو همزة ليأتلف اللفظان.
انظر لسان العرب: مادة وزر.
(٨) في ن٢: من.

قدر لي، ثم قطعت بي قواطع الأيام عن تتميم رَوْمي من ذلك وعملي، فاقتصرت بحكم الاضطرار في هذا الاختصار على (توجيه)[١] ترتيب السور، وإن لم أر في هذا الضرب الخاص شيئاً لمن تقدم وغبر، وإنما بدر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع مفترقات، وذلك في الباب أوضح ومجال الكلام فيه أفسح. أما تعلق السور على ما ترتبت في الإمام واتفق عليه الصحابة الأعلام، فمما لم يتعرض له فيما أعلم، ولا قرع أحد هذا الباب ممن تأخر أو تقدم[٢]. فإن صلى أحد بعد فهذه الإقامة، أو أتمَّ فمرتبط حتماً بهذه الإمامة، فإن أنصف فلا بد أن ينشد إذعاناً للحق وإنابة: فلو قبل مبكاها بكت صبابة.

(ولما)[٣] كمل لي بفضل الله الأمل من جليل هذا العمل، غريباً في بابه، رفيعاً في نصابه، (وَسَمْته باسم مَنْ اليُمن في تأميله، والسعادة في اتباع سبيله، مبقي الرسوم العلمية، وحامي الانتهاجات الدِّينية، أمير المسلمين، ومستوضح سبيل المتقين، أبو عبد الله ابن أمير المسلمين وناصر الدين، المجاهد في سبيل الله والغالب به لي وبحمد الله، محمد بن يوسف بن نصر[٤]، نصر الله أخلافهم، وأبقى أيامهم، وأدام بدولتهم النعمة على هذه الأمة.

وبقيامي من خدمتهم بالواجب المفترض، تيسر لي المطلوب بحول الله من هذا الغرض، فوفيته ببركتهم)[٥] (حسن)[٦] التحرير معدوم النظير، يحصل

---

(١) في ن٢: وجوه.

(٢) انظر في هذا المبحث الذي قدمت به الكتاب ص:٦٦.

(٣) في ن٢: وقد.

(٤) هو: محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، المتوفى سنة ٦٧١هـ. جاء في الإحاطة في ترجمة ابن الزبير: ولحق بغرناطة آوياً إلى سلطانها الأمير عبد الله ابن الأمير الغالب بالله بن نصر، فأكرم مثواه وعرف حقه: (الإحاطة: ١/ ١٨٨).

(٥) ما بين القوسين ساقط من ن٢.

(٦) في ن٢: موفى.

بمطالعته العلم اليقين، وتفصح بشهادته أن العاقبة للمتقين، (وما هي إلا أنوار إيمانهم وبركات سلطانهم)[1]، والله ينفع فيه بالنية ويبلغ من مرضاته الأمنيَّة، بمنه ويُمنه.

---

(١) سقط من ن٢.

باب التعريف بترتيب السور

وهل ذلك بتوقيف من الشارع (عليه السلام)[1]؟ أم هو من فعل الصحابة (رضوان الله عليهم)[2]؟.

اعلم أولاً أن ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره، من غير خلاف في هذا بين المسلمين، وإنما اختلف في ترتيب السور على ما هي عليه[3].

وكما ثبت في الإمام مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي بعث بنسخه إلى الآفاق، وأطبقت الصحابة على موافقة عثمان في ترتيب سوره وعمله فيه، فذهب مالك والقاضي أبو بكر بن الطيب[4] فيما اعتمده واستقر عليه مذهبه من قوليه، والجمهور من العلماء، إلى أن ترتيب السور إنما وقع باجتهاد من الصحابة، وأن رسول الله ﷺ فوض ذلك إلى أمته بعده.

وذهب طائفة من العلماء إلى أن ذلك إنما وقع بتوقيفه ﷺ وأمره، ولكل من الطائفتين جهات تعلق، وكلا القولين ـ والحمد لله ـ لا يقدح في الدين ولا يثمر إلا اليقين.

فأقول مستعيناً بالله سبحانه: اعلم أن الأمر في ذلك كيفما قدر فلا بد من رعي للتناسب والتفات للتواصل والتجاذب، فإن كان بتوقيف منه ﷺ فلا مجال للخصم بعد ذلك التحديد الجليل والرسم، وإن كان مما فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده فقد أعمل الكل من الصحابة في ذلك جهده، وهم الأملياء بعلمه، والمسلَّم لهم في وعيه وفهمه، والعارفون بأسباب نزول الآيات ومواقع الكلمات، وإنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ، وهذا

---

(١) في ن٢: صلى الله عليه وسلم. (٢) سقط من ن٢.

(٣) انظر في ذلك المبحث الذي صدرت به هذا الكتاب: ص٤٧.

(٤) أبو بكر بن الطيب: تقدمت ترجمته ص٤٦.

قول مالك رحمه الله في حكاية بعضهم[1] عنه، ومالك أحد القائلين بأن ترتيب السور اجتهاد من المسلمين كما تقدم عنه. وكيفما دار الأمر، فمنه ﷺ عرف ترتيب السور، وعلى ما سمعوه منه بنوا جليل ذلك النظر. فإذاً إنما الخلاف هل ذلك بتوقيف قولي أو بمجرد استناد فعلي بحيث (بقي)[2] لهم فيه مجال للنظر؟ فهذا موضع الخلاف.

فإن قيل: إذا كانوا قد سمعوه منه كما استقر عليه ترتيبه ففيم إذا أعملوا (الأنظار)[3]؟ وأيّ مجال بقي لهم بعد للاختيار؟

فالجواب: أنّا قد رُوينا في صحيح مسلم عن حذيفة (رضي الله عنه)[4] قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران... الحديث[5]. فلما كان ﷺ ربما فعل هذا للتوسعة على الأمة، وبياناً لجليل تلك النعمة، كان محلاً للتوقف، حتى استقر النظر على (رعي)[6] ما كان من فعله الأكثر، فهذا محل اجتهادهم في المسألة، والله أعلم.

ثم يشهد لما بنينا كتابنا هذا عليه ما ورد في مصنف ابن أبي شيبة[7] عن أناس من أهل المدينة. قال الحكم: أرى فيهم أبا جعفر قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقون، (فأما سورة الجمعة فيبشر بها المؤمنين ويحرضهم، وأما سورة المنافقين فيؤيّسُ بها المنافقين)[8]

---

(١) حكى ذلك عنه ابن وهب وأخرجه القاضي أبو بكر في الانتصار (انظر الإتقان: ١/ ٨١ ـ ٨٢).

(٢) في ن٢: يبقى.

(٣) في ن٢: الأفكار.

(٤) سقط من ن١.

(٥) مسلم: مسافرين: ٢٠٣.

(٦) في ن٢: راى.

(٧) ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي، الكوفي، الحافظ للحديث، صاحب المسند والمصنف، ولد سنة ١٥٩هـ، وتوفي سنة ٢٣٥هـ (التذكرة: ٢/ ١٨، التهذيب: ٦/ ٢، تاريخ بغداد: ١٠/ ٦٦).

(٨) بهامش ن١.

ويوّبخهم بها[1]. وحكى الخطابي[2] أن الصحابة لما اجتمعوا على القرآن وضعوا (سورة)[3] القدر (عقب)[4] العلق استدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] إشارة إلى قوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾. قال القاضي أبو بكر بن العربي[5]: وهذا بديع (جداً)[6].

قلت: ومن ظن ممن اعتمد القول بأن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة، أنهم لم يراعوا في ذلك التناسب والاشتباه، فقد سقطت مخاطبته، وإلا فما المراعى وترتيب النزول غير ملحوظ في ذلك بالقطع؟ بل هذا معلوم في ترتيب آي القرآن الواقع ترتيبها بأمره ﷺ وتوقيفه بغير خلاف.

ألا ترى أن سورة البقرة من المدني وقد تقدمت سور القرآن بتوقيفه ﷺ في الصحيح المقطوع به[7]، وتقدم المدني على المكي في ترتيب السور والآي كثير جداً، فإذا سقط تعلق (المكان)[8] بترتيب النزول لم يبق إلا رعي التناسب والاشتباه، وارتبط النظائر والأشباه. وتدبر بعقلك وضوح ذلك في عدة سور كالأنفال وبراءة، والطلاق والتحريم، والتكوير والانفطار، والضحى وألم نشرح، والفيل وقريش، والمعوّذتين، إلى غير هذه السور مما لا يتوقف في وضوحه من له أدنى نظر.

وقد (مال)[9] القاضي أبو محمد (عبد الحق)[10] بن عطية[11] رحمه الله في ترتيب السور إلى القول بالتفصيل، وأن كثيراً من سور القرآن قد كان علم

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٢/ ١٤٢، طبعة الهند، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) الخطابي: محمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي أبو سليمان، فقيه، محدث، صاحب معالم السنن، وبيان إعجاز القرآن، ولد سنة ٣١٩هـ، وتوفي سنة ٣٨٨هـ.

(٣) في ن٢: سور.

(٤) في ن٢: عقيب.

(٥) انظر ترجمته: ص٦٦.

(٦) سقط من ن١.

(٧) قال ﷺ: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران». مسلم: مسافرين: ٢٥٣.

(٨) في ن٢: الضمان.

(٩) في ن٢: قال.

(١٠) سقط من ن١.

(١١) انظر ترجمته: ص٥٨.

ترتيبها في أيامه ﷺ كالسبع الطوال والحواميم والمفصل، وأشار كلامه إلى أن ما سوى ذلك يمكن أن يكون ﷺ فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده، ولم يقطع القاضي أبو محمد في هذا القسم بشيء.

وظواهر الآثار شاهدة بصحة ما ذهب إليه في أكثر مما نص عليه، ويبقى قليل من السور يمكن فيها جري الخلاف أو يكون وقع. وإذا كان مستند المسألة النقل لم يصعب خلاف غير أهله، على أن ما مهدناه في المراعاة في الترتيب حاصل لا محالة على كل قول.

ولنورد بعض ما يشهد بظاهره من الآثار لما قاله القاضي أبو محمد وعلي ما نطنا به[1]، فمن ذلك قوله ﷺ: اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران، في حديث خرجه مسلم وغيره[2]، وخرج أيضاً قوله ﷺ: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران»[3]، وفي مصنف ابن أبي شيبة[4] عن ابن خالد[5] قال: صلى (رسول الله)[6] ﷺ بالسبع الطوال في ركعة[7]، وفيه: أنه ﷺ كان يجمع المفصل في ركعة[8]، وفي صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن يزيد قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي[9]، فذكرها نسقاً كما استقر ترتيبها، وفي صحيح البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفّيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب

---

(١) كذا في النسختين.

(٢) مسلم: مسافرين: ٢٥٢، أبو داود: ١/ ٨٨.

(٣) مسلم: مسافرين: ٢٥٣.

(٤) ابن أبي شيبة: تقدمت ترجمته، ص٨٠.

(٥) في ن٢: عن معبد بن خالد: وهو أبو زرعة صحابي من القادة الذين شاركوا في فتح مكة مات سنة ٧٢هـ. (الإصابة: ترجمة ٨٠٩٤).

(٦) بهامش ن٢.

(٧) مصنف ابن أبي شيبة: ١/ ٣٦٨.

(٨) مصنف ابن أبي شيبة: ١/ ٣٦٨.

(٩) البخاري: فضائل القرآن: ٦ ـ ٤٥ تفسير: ٦/ ١٨٩. والعتاق والتلاد كناية عن تقادمها في النزول.

الفلق، وقل أعوذ برب الناس. . . . الحديث[1]، وفي المصنف عن عمر: أنه قرأ في ركعة واحدة ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ولإيلاف قريش، وروى أنهما في مصحف أُبيّ غير مفصول بينهما بالبسملة[2].

قلت: والوارد من هذا عن النبي ﷺ وعن كبار الصحابة قبل كتابة المصحف كثير، ومروي من طرق شتى وفي أحوال محتلفة.

فإن قيل: فقد كان يجب ـ على ما أشرت إليه ـ أن يكون القول بالتوقيف أكثر وأشهر، والأمر على خلاف ذلك، فإن مالكاً رَحِمَهُ اللَّهُ والقاضي أبا بكر من المتكلمين وأكثر أهل العلم قائلون بأن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة، وقد مرّ[3].

فالجواب: أن الآثار المستفيضة والمقطوع به منها، إنما ورد ذلك في الأكثر، ولم يرد فيما بين كل سورتين سورتين، ولا شك أنه إذا بقي بعض ذلك لاجتهادهم ولو فيما بين سورتين، جرى القول المشهور عليه، وصح اعتماده. (ثم إن الآثار إنما وردت)[4] بفعل لا بقول أو أمر يحصل منه التوقيف، فإذاً قد آل الأمر إلى أن تلك الآثار هي مستند اجتهادهم وأصل اتفاقهم، وهذا ما أراده مالك رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: وإنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ، وهذا القدر كاف في المقصود (والحمد لله رب العالمين)[5].

سورة أم القرآن

قد ذكر الناس كيفية تضمنها مجملاً لما تفصل في الكتاب العزيز بجملته، وهو أوضح وجه في تقدمها سورَةُ المكرمة، ثم (هي)[6] مما يلزم

---

(١) البخاري: طب: ٣٩. الترمذي تفسير: ٣٤٧/٩ من تحفة الأحوذي.

(٢) فتح الباري: ٨/ ٧٣٠.

(٣) مقدمة المؤلف: ص٧٩.

(٤) في ن٢: وقعت.

(٥) سقط من ن١.

(٦) انظر: مفاتيح الغيب للرّازي: ٤/ ٦٥، الكشاف للزمخشري: ١/ ٤، البيضاوي: ١/ ٣٥ بحاشية الشهاب.

المسلم حفظه، ولا بد للمصلي من قراءتها، ثم افتتاحها بحمد الله سبحانه، وقد شرع في ابتداءات الأمور، وأوضح الشرع فضل ذلك، وأخذ به كل خطيب ومتكلم، وفيها تعقيب الحمد (له)[1] سبحانه بذكر صفاته الحسنى، والإشارة إلى إرسال الرسل في قوله: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: ٦]، وقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقد قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وذكر افتراق الخلق بذكر المهتدين وذكر المغضوب عليهم والضالين، وأن ملاك الهدى بيده: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وهذا كله أشفى شيء في بيان (وجه)[2] التقديم[3].

سورة البقرة

لما قال العبد بتوفيق ربه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] قيل له: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، هو مطلوبك وفيه أربك[4]، وهو الصراط المستقيم، ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] القائلين: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ [الفاتحة: ٦][5] والخائفين من حال الفريقين المغضوب عليهم والضالين، فاتخذوا وقاية من العذاب خوف ربهم وتقواه، بامتثال أمره ونهيه.

ثم أشير من الأعمال إلى ما (يستجرّ)[6] سائرها من قبيلي البدنيات والماليات بياناً للصراط المستقيم، فقيل في وصف المتقين: إنهم ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وحصل من هذا حصر الفعل والترك الضابطين لجميع الأعمال كيفما تشعبت كما مهد في التفسير عند ضم ما ورد هنا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ووقع الفعل صريحاً والترك

---

(١) في ن٢: لله.
(٢) سقط من ٢.
(٣) وقد قال الحسن البصري: إنّ الله أودع علوم الكتب السّابقة في القرآن، وقد أودع علوم القرآن في المفصّل، ثم أودع علوم المفصّل في الفاتحة، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٨٧ و).
(٤) أرب: الأرب: الحاجة والغاية ويجمع على آراب.
(٥) الصراط: ساقط من ن١.
(٦) في ن٢: يستحق.

إيماء للتناسب المبين حين ذكر، ثم بين لهم قدر النعمة عليهم في طلب الهدى من الله في قولهم: اهدنا[1] فقيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا . . .﴾ [البقرة: ٦] ليعلموا أن الهدى من عنده فيلحوا في الطلب ويتبرؤوا من ادعاء حول أو قوة.

ثم نُبِّهوا على الإخلاص، وأن يكون قولهم: «إهدنا» صادراً عن يقين وإخلاص، حتى لا يشبهوا من يقول: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، وبسط لهم من حال هؤلاء في ثلاث عشرة آية[2] ما يوضح لهم طريق الهدى الواضح إذا حذروا من (شكوك)[3] هؤلاء وحيرتهم فقالوا: اهدنا عن يقين وإخلاص.

ثم أعقب ذلك بذكر الدلائل المشاهدة[4]: من جعل الأرض فراشاً والسماء بناء، وإنزال الماء، وإخراج النبات، وذلك كله أمر مشاهد يصل إليه كل عاقل بأول وهلة، ثم أعقب بابتداء الخلق، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، (وذلك كله)[5] مبين لقوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] إذ من البدأة تعلم العودة لمن تدبر، وقد نبه تعالى بتكرر النبات.

ثم ذكر أحوال بني إسرائيل وإمهالهم على مرتكباتهم، ومعاملتهم بالعفو والإقالة[6]، وذلك مبين سعة رحمته، وأعلم تعالى أن أفعالهم تلك مما أعقبهم أن ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله، تحذيراً لمن طلب سلوك الطريق المستقيم من حالهم، وإعلاماً لعباده أن المتقين المستجاب لهم عند قولهم: «اهدنا» ليسوا في شيء من ذلك، لأنهم قالوا: اهدنا عن يقين وإخلاص متبرئين من الدعاوى.

ثم أعقب تعالى تفصيل أحوال هؤلاء بقوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] ليبين أحوال المصطفين من أهل الصراط المستقيم، فأنبأ

---

(١) سورة الفاتحة: آية ٦.

(٢) إلى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

(٣) في ن٢: شكك.

(٤) بداية من الآية ٢١ من سورة البقرة.

(٥) سقط من ن١.

(٦) بداية من الآية ٤٠ من سورة البقرة.

تعالى بحال إبراهيم وإتمامه ما ابتلاه به من غير توقف ولا بحث عن علّة، وهي أسنى أحوال العباد. وفي طرف من حال من قدم من بني إسرائيل، وهذا الموضع مما يعضد ما ظهر في قصة أمر بني إسرائيل بذبح البقرة من وجوه الحكمة، فتوقفوا وشددوا بعد إساءتهم الأدب مع نبيهم، فأورثهم ذلك نكالاً وبعداً، فالصراط المستقيم حال إبراهيم عليه السلام ومن ذكر من الأنبياء والرسل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهم المنعم عليهم.

ثم أعقب ذلك بما نسبوا لإبراهيم وبنيه المصطفين بعد أن بيَّن حاله فقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ...﴾ الآية [البقرة: ١٤٠]، وبين فساد اليهودية والنصرانية، وبرّأ نبيه إبراهيم والأنبياء عن ذلك، وأوضح أن الصراط المستقيم هو ما كانوا عليه لا اليهودية ولا النصرانية.

ثم ذكَّرهم بوحدانيته تعالى فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، (وبيَّن)(١) سوء حال المشركين: وأنهم لاحقون باليهود والنصارى في انحرافهم عن الصراط المستقيم وحَيْدتهم (عن)(٢) الجادة، ووقع تنبيه هؤلاء بدون ما تضمنه تنبيه بني إسرائيل من التقريع والتوبيخ لفرقان ما بينهم، لأن كفر (أولئك)(٣) تَعْنيت بعد مشاهدة الآيات: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، ومتى بُيِّن (شيء)(٤) في الكتاب العزيز من أحوال النصارى فليس على ما ورد من مثله في بني إسرائيل لما ذكر، وخطاب مشركي العرب ـ فيما أشير إليه ـ دون خطاب الفريقين، إذ قد تقدم لهم ما لم يتقدم للعرب، وبشروا في كتبهم، وليس لمشركي العرب كتاب، والزيغ عن الهدى شامل للكل، وليسوا في شيء من الصراط المستقيم، مع أن أسوأ الأحوال حال من أضله الله على علم: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وهنا انتهى ذكر ما حُذِّر منه ونُهي عنه من أراد سلوك الصراط المستقيم، وبيان حال من حاد عنه وتنكبه وظن أنه على شيء.

---

(١) بهامش ن٢.

(٢) سقط من ن٢ وحيدتهم عن الجادة: مجانبتها والميلان والعدول عنها (لسان العرب: مادة حيد).

(٣) في ن٢: هؤلاء.

(٤) سقط من ن١.

وضمّ مفترق أصناف الزائغين في أصناف ثلاثة، وهم اليهود والنصارى وأهل الشرك، وبهم يلحق سائر من تنكب، فيلحق باليهود منافقو أمتنا ممن ارتاب بعد إظهار إيمانه، وفعل أفاعيلهم من المكر والخديعة والاستهزاء، ويلحق بالنصارى من اتصف بأحوالهم، وبالمشركين من جعل لله نداً، واعتقد فعلاً لغيره تعالى على غير طريقة الكسب[1]، والمجوس لاحقون بأهل الشرك. والشرك أكثر هذه الطرق السيئة تشعباً، ولهذا قال ﷺ: «الشرك أخفى من دبيب النّمل»[2]، ومن فعل أفعال من ذكر ولم ينته به الأمر إلى مفارقة دينه والخروج في شيء من اعتقاده خيف عليه أن يكون ذلك وسيلة إلى اللحوق بمن تشبه به، وإلى هذا أشار ﷺ بقوله: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً....»[3]، إلى أشباه هذا من الأحاديث.

ثم ذكر تعالى في أول آية: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ﴾ [البقرة: ١٧٧] ما (لزم)[4] المتقين، لمّا بيّن لهم ما هو خروج عن الصراط المستقيم وحذروا (منه)[5] أعقب بذكر ما يلزمهم، فابتدئ من هنا بذكر الأحكام إلى قوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] خاتمة السورة. وفصل لهم كثيراً مما كلفوه، فذكر الإيمان، وفصل تفصيلاً لم يتقدم، وأعقب بذكر الصدقة وموقعها على التفصيل، وفي ذكر إتيان المال (عقيب)[6] (الإيمان)[7] إشعار بما فيه السلامة من فتنة المال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وإشارة من الآية إلى أنه يبعد حب المال بل يستحيل وجوده ممن أحب الله سبحانه، وأن محبة الله تعالى تهوّن عليه كلّ شيء: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: ٨٨]، ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ [طه: ١٣٢].

ثم ذكر الزكاة والصيام والحج والجهاد، إلى غير ذلك من الأحكام كالنكاح والطلاق والعدة والحيض والرضاع والحدود والربا والبيوع، إلى ما تخلل هذه الآيات من تفاصيل الأحكام ومجملها. وقدم منها الوفاء بالعهد

---

(١) يشير إلى القدرية والمعتزلة الذين قالوا بخلق العبد لأفعاله.
(٢) مسند أحمد ٤/٤٠٣.
(٣) سنن النسائي: إيمان ٢٠.
(٤) في ن١: الزم.
(٥) في ن٢: منها.
(٦) في ن٢: عقب.
(٧) في ن١: الحال.

والصبر لأن ذلك يحتاج إليه في كل الأعمال، وما تخلل هذه الآيات من لدن قوله: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] مما ليس من قبيل الإلزام والتكليف فلسبب أوجب ذكره، ولتعلق استدعاه.

ولما بيَّن سبحانه أن الكتاب هو الصراط المستقيم، وذكر افتراق الأمم كما شاء، تناول أحوال الزائغين والمتنكبين تحذيراً من حالهم، ونهياً عن مرتكبهم، وحصر قبيل المتروك بجملته، وانحصار التاركين، وأعقب بذكر مستلزمات المتقين وما ينبغي لهم امتثاله والأخذ به من الأوامر والأحكام والحدود، أعقب ذلك بأن الإيمان يجب أن ينطوي على ذلك، وأن يسلم الأمر لمالكه، فقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ ...﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فأعلم أن هذا إيمان الرسول ومن كان معه على إيمانه، وأنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] لا كقول بني إسرائيل: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦] وأنه أثابهم على إيمانهم برفع الإصر والمشقة والمؤاخذة بالخطأ والنسيان عنهم فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فحصل من (السورة)[1] بأسرها بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال أخذاً وتركاً، وبيان شرف من أخذ به وسوء حال من تنكب عنه، وكأن العباد لما علِّموا أن يقولوا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] إلى آخر السورة قيل لهم: عليكم بالكتاب إجابة لسؤالهم، ثم بيَّن لهم حال من سلك ما طلبوه، فكأن قد قيل لهم: أهل الصراط المستقيم وسالكوه هم الذين من أمرهم ومن شأنهم...، والمغضوب عليهم من المتنكبين هم اليهود الذين من أمرهم ومن شأنهم...، والضالون هم النصارى الذين من أمرهم ومن شأنهم...، فيجب على من رغب في سلوك الصراط المستقيم أن يحذر ما أصاب هؤلاء مما نبه عليه، من أن يأخذ نفسه بكذا وكذا. وأن ينسحب (إيمانه)[2] على كل ذلك، وأن يسلم الأمر لله الذي

(١) في ن٢: هذه.

(٢) في ن٢: بإيمانه.

(يطلب)[1] منه الهداية، ويتضرع إليه بأن لا يؤاخذه بما يثمره النسيان والخطأ، وأن لا يُحمّله ما ليس في وسعه، وأن يعفو عنه، إلى آخر السؤال.

سورة آل عمران

اتصالها بسورة البقرة ـ والله أعلم ـ من جهات:

إحداهما: ما يتبين في صدر السورة مما هو إحالة على ما ضمّن في سورة البقرة بأسرها.

ثم الإشارة في صدر السّورة أيضاً إلى أن الصراط المستقيم قد بُيِّن شأنه ـ لمن تقدم ـ في كتبهم، وأن هذا جاء مصدقاً لها: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣، ٤]، ليبين لأمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن من تقدَّمهم قد بُيِّن لهم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

والثالثة[2]: قصة عيسى عليه السلام، وابتداء أمره من غير أب، والاعتبار به نظير الاعتبار بآدم عليه السلام، ولهذا أشار قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]، (كما)[3] أتبعت قصة آدم بذكر بني إسرائيل لوقوفهم من تلك القصة على ما لم تكن العرب تعرفه، وأنذروا وحذّروا، وأتبعت أيضاً قصة عيسى عليه السلام بذكر الحواريين وأمر النصارى إلى آية المباهلة[4] حسب ما يبسط بعد.

ولنبيِّن وجه الاتصال من صدر السورة فأقول ـ مستعيناً بالله ـ: إن قوله سبحانه: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٣] بيان لحال الكتاب الذي هو هدى للمتقين. لمّا بين افتراق الأمم بحسب السابقة إلى أصناف ثلاثة، وذكر من

---

(١) في ن١: طلب.

(٢) لم يقع النّص على الثانية وربّما هي عند قوله: «ثم الإشارة في صدر السورة» بالسّطر الرابع.

(٣) في ن١: ثم لما.

(٤) سورة آل عمران: آية ٦١.

تَعْنيت بني إسرائيل وتوقفهم ما تقدم، أخبر تعالى هنا أنه أنزل عليهم التوراة وأنزل بعده الإنجيل، كل ذلك هدى لمن وفق، ثم أشار قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ٥]، إلى ما تقدم من تفصيل أخبارهم، فكأن الكلام في قوة أن لو قيل: أتخفى عليه مرتكبات العباد وهو مصورهم في الأرحام والمطلع عليهم حيث لا يطلع عليهم غيره؟.

ثم لما بلغ الكلام هنا كأن قد قيل: فكيف طرأ عليهم مع وجود الكتاب؟

فأخبر تعالى بشأن الكتاب، أنه محكم ومتشابه، وكذا غيره من الكتب والله أعلم، فحال أهل التوفيق تحكيم المحكم، وحال أهل الزيغ اتباع المتشابه والتعلق به، وهذا بيان لقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، وكل هذا بيان لكون الكتاب العزيز أعظم فرقاناً وأوضح بياناً، إذ قد أوضح أحوال المختلفين ومن أين أتى عليهم مع وجود (الكتب)[1]، وفي أثناء ذلك تنبيه العباد على عجزهم وعدم (استبدادهم)[2] لئلا يغتر الغافل فيقول: مع هذا البيان ووضوح الأمر لا طريق إلى تنكب الصراط، فنبهوا حين علّموا الدّعاء من قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ثم كرر تنبيههم لشدة الحاجة ليذكر هذا أبداً، ففيه معظم البيان، ومنه ينشأ الشرك الأكبر، إذ اعتقاد الاستبداد بالأفعال إخراج لنصف الموجودات عن يد بارئها: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦][3].

فمن التنبيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا . . .﴾ [آل عمران: ٤]، ومنه: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، ومنه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، إلى ختامها. هذا من جلي التنبيه ومحكمه، ومما يرجع إليه ويحرز معناه بعد اعتباره: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فمن رأى الفعل أو بعضه لغيره تعالى حقيقة فقد قال

---

(١) في ن١: الكتاب. (٢) في ن٢: استمدادهم.

(٣) وفي هذا ردّ على القدرية والمعتزلة في القول بخلق العبد لأفعاله.

بإلهية غيره، ثم حذروا أشدّ التحذير لمّا بَيّن لهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾ [آل عمران: ٤]، ثم ارتبطت الآيات إلى آخرها.

سورة النساء

لمّا تضمنت سورة البقرة ابتداء الخلق وإيجاد آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، وأعقبت بسورة آل عمران لتضمنها مع ما ذكر في صدرها أمر عيسى عليه السلام، وأنه كمثل آدم في عدم الافتقار إلى أب، وعلم الموقنون من ذلك أنه تعالى لو شاء لكانت في من بعد آدم عليه السلام فكان سائر الحيوان لا يتوقف على أبوين، أو كأن يكون كعيسى عليه السلام لا يتوقف إلّا على أم فقط، أعلم سبحانه بأن من عدا المذكورَيْن عليهما السلام من ذرية آدم سبيلهم (بسببية الأبوين)[1]، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ . . .﴾ [النساء: ١] إلى قوله: ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء: ١]، ثم أعلم تعالى بكيفية النكاح المجعول سبباً في التناسل[2] وما يتعلق به وبين حكم الأرحام والمواريث[3].

وتضمَّنت السورة ابتداء الأمر وانتهاءه، فأعلمنا بكيفية التناكح وصورة الاعتصام، واحترام بعضنا لبعض، وكيفية تناول الإصلاح فيما بين الزوجين عند التشاجر والشقاق، وبين لنا ما ينكح وما لا ينكح، وما أبيح من العدد، وحكم من لم يجد الطَّول، وما يتعلق بهذا إلى المواريث، وفصَّل ذلك كلّه إلّا الطلاق، لأن أحكامه قد تقدمت، ولأن بناء هذه السورة على التواصل والائتلاف، ورعي حقوق ذوي الأرحام، وحفظ ذلك كله إلى حالة الموت المكتوب علينا، وناسب هذا المقصود من التواصل والألفة ما افتتحت به السورة من قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [النساء: ١]، (فافتتحت)[4] بالالتئام والوصلة، ولهذا خصت من حكم تشاجر

---

(١) في ن٢: سبيل أبوين.

(٢) بداية من الآية الكريمة: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣].

(٣) في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ . . . الآيات [النساء: ٧].

(٤) سقط من ن٢.

الزوجين بالإعلام بصورة الإصلاح والمعدلة إبقاء لذلك التواصل، فلم يكن الطلاق ليناسب هذا، فلم يقع هنا له ذكر (إلا)[1] إيماء في قوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠] ولكثرة ما يعرض من رعي حظوظ النفوس عند الزوجية ومع القرابة، ويدق ذلك ويغمض، لذلك تكرر كثيراً في هذه السورة الأمر بالاتقاء[2]، وبه افتتحت، ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

ثم حذروا من حال من صمم على الكفر وحال اليهود والنصارى والمنافقين وذوي التقلب في الأديان بعداً عن اليقين، وكل ذلك تأكيد لما أمروا به من الاتقاء، والتحمت (الآي)[3] إلى الختم بالكلالة في المواريث المتقدمة.

سورة المائدة

لما بيّن تعالى حال أهل الصراط المستقيم ومن تنكب[4] عن نهجهم، ومآل الفريقين من المغضوب عليهم والضالين، وبيّن لعباده المتقين ما فيه هداهم وبه خلاصهم أخذاً وتركاً، وحصل طيّ ذلك الأسهم الثمانية الواردة في حديث حذيفة من قوله: الإسلام ثمانية أسهم: الشهادة سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، والصوم سهم، والحج سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، وقد خاب من لا سهم له[5]، وقال ﷺ: بني الإسلام على خمس[6] وقد تحصلت، وتحصل مما تقدم أيضاً أن أسوأ حال المخالفين حال من غضب الله عليه ولعنه، وأن ذلك ببغيهم وعدوانهم ونقضهم العهود، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، وكأن النقض يشمل كل

---

(١) في ن٢: ولا ر.

(٢) في الأصل: (لذلك ما)، ومثله في نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٩٢)، فيما نقله عن ابن الزبير، وقد أسقطها المعلق هناك ليستقيم الكلام.

(٣) في ن٢: الآيات.

(٤) تنكّب عن الشيء: عدل وحاد عنه، وولّاه منكبه وأقبل على غيره.

(٥) مسند الطيالسي حديث رقم ٤١٣. (٦) البخاري: إيمان: ١/ ٢.

مخالفة، قال تعالى لعباده المؤمنين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]، لأن اليهود والنصارى إنما أتي عليهم من عدم الوفاء ونقض العهود، فحذر المؤمنون، ولهذا الغرض ـ والله أعلم ـ ذكر هنا العهد المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ [البقرة: ٤٠]، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ ...﴾ [المائدة: ١٢]، إلى قوله: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

ثم بيَّن نقضهم، وبناء اللّعنة وكل محنة ابتلوا بها عليه، فقال: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَـٰقَهُمۡ﴾ [المائدة: ١٣]، وذكر تعالى عهد الآخرين، فقال جل وعز: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَـٰقَهُمۡ ...﴾ [المائدة: ١٤]، ثم ذكر تعالى للمؤمنين أفعال الفريقين ليتبين لهم فيما نقضوا، ثم بين تفاوتهم في البعد عن الاستجابة، فقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً ...﴾ الآية [المائدة: ٨٢]، ثم نصح عباده، وبين لهم أبواباً، منها: دخول الامتحان، وهي سبب في كل ابتلاء، فقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ [المائدة: ٨٧] فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم شارعين لأنفسكم وظالمين، وأعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ ...﴾ [المائدة: ٩٠] الآية، ثم قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ ...﴾ الآية [المائدة: ٩٧]، فنبه على سوء العاقبة في تتبع البحث عن التعليل، وطلب الوقوف على ما تعليله مما استأثر الله بعلمه، ومن هذا الباب أتي على بني إسرائيل في أمر البقرة وغير ذلك، وجعل هذا التنبيه إيماء، ثم أعقب بما يفسره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ ...﴾ [المائدة: ١٠١] ووعظهم بحال غيرهم، وأنهم سألوا (فجووبوا)[1]، ثم امتحنوا، وقد كان التسليم أولى لهم، فقال تعالى: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٌ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ١٠٢﴾ [المائدة: ١٠٢].

ثم عرّف عباده أنهم إذا استقاموا فلن يضرهم خذلان غيرهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فلما طالب تعالى المؤمنين بالوفاء

(١) في ن٢: فخبروا.

فيما نقض فيه غيرهم، وذكرهم ببعض ما وقع فيه النقض (وما أعقب)[1] ذلك فاعله، وأعلمهم بثمرة التزام التسليم والامتثال، أراهم جل وتعالى ثمرة الوفاء وعاقبته، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] إلى قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، إلى آخر السورة.

فحصل من جملتها الأمر بالوفاء فيما تقدمها، وحال من حاد ونقض، وعاقبة من وفى، وأنهم الصادقون، وقد أمرنا أن نكون معهم فقال تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

سورة الأنعام

لمّا بين سبحانه (لعباده)[2] (مآل)[3] المتقين وهو الصراط المستقيم، وأوضح تعالى ما يحذرون من جانبي الأخذ والترك، وبين حال من تنكب عنه ممن كان قد تلمحه وهم اليهود والنصارى، وكونهم لم يلزموا الوفاء وحادوا عما أنهج لهم، وأنقص أمر الفريقين ذمّاً لحالهم وبياناً لنقضهم وتحذيراً للمتقين أن يصيبهم ما أصابهم، وختم ذلك ببيان حال الموفنين في القيامة، ﴿يَوْمُ يَنفَعُ الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقد كان انجر مع ذلك ذكر مشركي العرب، وصممهم عن الداعي، وعماهم عن الآيات فكانوا أشبه بالبهائم منهم بالأناسي، أعقب تعالى ذلك بالإشارة إلى طائفة أومأت إلى الاعتبار والنظر فلم توفق لإصابة الحق، وقصرت عن الاستضاءة بأنوار الهدى، وليسوا ممن يرجع إلى شريعة قد حرِّفت وغيِّرت، بل هم في صورة من همّ أن يهتدي بهدي الفطرة ويستدل بما بسط تعالى في المخلوقات، فلم يمعن النظر ولم يوفق فضلّ، وهم المجوس وسائر (الثنوية)[4]، ثم كان قصارى أمره نسبة الفعل إلى النور والإظلام، ولم

---

(١) في ن٢: وما أعجب.
(٢) سقط من ن٢.
(٣) في ن٢: حال.
(٤) الثنوية: يجعلون الأفعال بين فاعلين، الخير من النّور والشر من الظّلمة ويعبدون من أجل ذلك النيرات (الملل والنحل: ٩٢).

يكن تقدم لهؤلاء ذكر ولا إخبار بحال، فقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، فبدأ تعالى بذكر خلق السماوات والأرض التي عنها وجد النور والظلمة، إذ الظلمة ظلال هذه الأجرام، والنور عن أجرام نيرة محمولة فيها، وهي الشمس والقمر والنجوم، فكأن الكلام (في قوة)[1] الحمد لله الذي أوضح الأمر لمن اعتبر واستبصر، فعلم أن وجود النور والظلمة متوقف بحكم السببية التي شاءها تعالى على وجود أجرام السماوات والأرض وما أودع فيها.

ومع بيان الأمر في ذلك حاد عنه من عمي عن الاستبصار: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [المائدة: ٢] مما يزيد هذا المعنى وضوحاً، فإنه تعالى ذكر أصلنا والمادة التي عنها أوجدنا، كما ذكر للنور والظلمة ما هو كالمادة، وهو وجود السماوات والأرض وأشعر لفظ: «جعل» بتوقف الوجود ـ بحسب المشيئة ـ على ما ذكر، فكأن قد قيل: أي فرق بين وجود النور والظلمة عن وجود السماوات والأرض، وبين وجودكم عن الطين، حتى يقع امتراء[2] فُتدّعى نسبة الإيجاد إلى النور والظلمة وهما لم يوجدا إلا بعد مادة (وسبب)[3]، كما طرأ في إيجادكم؟ فالأمر في ذلك أوضح شيء، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢].

ثم مرت السورة من أوّلها إلى آخرها منبهة على بسط الدّلالات[4] في الموجودات، مع التنبيه على أن ذلك لا يصل إلى استثمار فائدته إلا من هدي بحسب السابقة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] وهو ـ والله أعلم ـ من نمط: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، (أجمل هنا)[5] ثم فسر بعد في

---

(١) سقط من ن٢.

(٢) الامتراء في الشيء الشك فيه وكذلك التماري، لسان العرب: مادة مرأ.

(٣) في ن٢: أو سبب.

(٤) في ن١: الدلالة، بالإفراد.

(٥) في ن٢: اجملهما.

السورة بعينها، والمراد أن من الخلق من جعله الله سامعاً متيقظاً معتبراً بأول وهلة، وقد أرى سبحانه المثال من ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، فكأنه يقول لعباده المتقين: تعالوا فانهجوا طريق الاعتبار ملة أبيكم إبراهيم كيف نظر عليه السلام نظر السامع المتيقظ، فلم يُعَرِّج في أول نظره على مَا سَبَبُ وجوده بَيِّنٌ، فيحتاج فيه إلى فرض ما فرض في الكوكب والقمر والشمس، بل نظر فيما عنه صدور النّور لا في النور. ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] فتأمل كونه عليه السلام لم يُطوّل النظر بالتفات النور، ثم كان يرجع إلى اعتبار الجرم الذي عنه النور، بل لما رأى النور عن أجرام سماوية تأمل تلك الأجرام، وما قام بها من الصفات فرأى الأفول والطلوع والانتقال والتّقلّب فقال: هذا لا يليق بالربوبية لأنها صفات حدوث، ثم رقّى النظر إلى القمر والشمس فرأى ذلك الحكم جارياً فيهما، فحكم بأن وراءها مدبراً لها يتنزه عن الانتقال والغيبة والأفول فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وخص عليه السلام ذكر هذين لحملهما أجرام النور وسببيتهما في وجود الظلمة.

ثم تأمل هذا النظر منه عليه السلام، وكيف خص بالاعتبار أشرف الوجودين وأعلاهما، فكان في ذلك وجهان من الحكمة:

أحدهما: علو النظر ونفوذ البصيرة في الأشرف الذي إذا بان فيه الأمر فهو فيما سواه أبين، فجمع بين قرب التناول وعلو التهدي.

الوجه الثاني: التناسب بين حال الناظر والمنظور فيه، والتفاؤل والجري على الفطرة العلية، وهو من قبيل أخذ نبينا ﷺ اللبن حين عرض عليه اللبن والخمر، فاختار اللبن فقيل له اخترت الفطرة، فكأن قد قيل: هذا النظر والاعتبار (يا نيام)[1]، لا نظر من أخلد إلى الأرض فعبد الضياء والظلام.

وينبغي أن يعتمد في قصة إبراهيم عليه السلام في هذا الاعتبار أنه عليه السلام في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨] إنما قصد قطع حجة من عبد شيئاً من ذلك، إذ

---

(١) في ن٢: بالهام.

كان دين قومه، فبسط لهم الاعتبار والدلالة، وأخذ يعرض ما قد تنزه قدره عن الميل إليه، فهو كما يقول المناظر لمن يناظره: هب أن هذا على ما تقول، يريد بذلك إذعان خصمه (المنكر)[1]، واستدناءه للاعتبار حتى يكون غير منافر له، (فيسلِّم له)[2] ما لا يعتقده ليبني على ذلك مقصوده، ليقلع خصمه وهو على يقين من أمره، فهذا ما ينبغي أن يعتمد هنا لقول يوسف عليه السلام: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]، فالعصمة قد اكتنفتهم عما يتوهمه المبطلون ويتقوَّله المفترون، ويشهد لما قلناه قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

فهذه حال من علت درجته من الذين يسمعون، فمن الخلق من جعله الله سامعاً بأول وهلة، وهذا مثال شاف في ذلك، ومنهم الميت، والموتى على ضربين: منهم من يزاح عن جهله وعَمَهه، ومنهم من يبقى في ظلماته ميتاً لا حراك به، يبرز ذلك كله قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ . . .﴾ [الأنعام: ١٢٢] إلى قوله: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ[3] فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولما كانت السورة مضمنة جهات (من)[4] الاعتبار، ومحركة إلى النظر، ومعلنة من مجموع آيها أن المعتبر والمتأمل ـ وإن لم (يكن)[5] متيقظاً بأول وهلة، ولا سامعاً أول محرك، ولا مستجيباً لأول سامع ـ قد تنقل حاله عن جموده وغفلته إلى أن يسمع ويلحق بمن كان (تيقظه بأول)[6] وهلة، ناسب تحريك العباد وأمرهم بالنظر أن تقع الإشارة في صدر السورة إلى حالتين: حالة السامعين لأول وهلة، وحالة السامعين في ثاني حال، فقيل: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦]، ولم يقع هنا إشارة إلى القسم الثالث مع العلم به، وهو الباقي على همود وموته، ممن لم يحركه زاجر ولا واعظ ولا اعتبار، وكأنّ هذا الضرب لو ذكر هنا لكان فيه ما يكسل

---

(١) سقط من ن٢.
(٢) سقط من ن٢.
(٣) بهامش ن٢.
(٤) سقط من ن٢.
(٥) بهامش ن٢.
(٦) في ن٢: ينقظ في أول.

من ضعفت همته (وجفت)[1] حالة ابتدائه فقيل: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وأطلق القول ليعمل الكل على هذا البعث من الجهل والتيقظ من سنة الغفلة، كما دعي الكل إلى الله دعاء واحداً فقيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ثم اختلفوا في إجابة الداعي بحسب السوابق، فهكذا ورد (في)[2] هذا: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] إسماعاً للكل، وفي صورة التساوي مناسبة للدعاء لتقوم الحجة على العباد حتى إذا انبسطت الدلائل وانشرحت الصدور لتلقيها، وتشبثت النفوس وتعلقت بحسب ما قدر، وفاز بالخير أهله، قال تعالى بعد آي: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وكأن قد قيل لمن انتقل عن حالة الموت فرأى قدر نعمة الله عليه بإحيائه: هل تشبه الآن حالك النيرة بما منحت حين اعتبرت بحالك الجمادية، فاشكر ربك، واضرع إليه في طلب الزيادة، واتعظ بحال من لزم حالة موته، فلم تغن عنه الآيات، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧]، ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦].

وكان القسم المتقدم الذي سمع لأول وهلة لم يكن ليقع ذكره هنا من جهة قصد إراءة قدر هذه النعمة وإنقاذ المتصف بها من حيرة شكه موقعها فيما تقدم من قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، فذكر هنا ما هو واقع في إراءة قدر نعمة الإنقاذ والتخليص من عمى الجهل، وهو حال من انتقل بتوفيق ربه من حال من بقي على موته، أو الضربان قد شملهما قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، أما الثاني وهو الذي تبينت فيه صورة النقل فأمره صريح من الآية، وأما الضرب الأول وهو السامع لأول وهلة (المكفي)[3] المؤونة بواقي العصمة من طوارق الجهل والشكوك، فدخوله

---

(١) في ن٢: رجعت.

(٢) سقط من ن١.

(٣) في ن١: مكفى.

تحت مقتضى هذا اللفظ من حيث إن وقايته تلك وسماعه بأول وهلة ليس من جهته، ولا بما هو (إنسان)[1] أو (مكلف)[2]، بل بإسداء الرحمة وتقديم النعمة، ولو أبقاه لنفسه ووكله إليه لم يكن كذلك: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

فبهذا النظر تكون هذه الآية قد شملت الضروب الثلاثة، وهو أولى، أما سقوط الضرب الثالث من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] فلما قُدم، والله أعلم بما أراد.

ولما تضمنت هذه السورة الكريمة من بسط الاعتبار وإبداء جهات النظر، ما إذا تأمله المتأمِّل على أن حجة الله قائمة على العباد، وأن إرسال الرسل رحمة ونعمة وفضل إحسان، وإذا كانت الدلالات مبسوطة والموجودات شاهدة مفصحة، و(الآلة)[3] للنظر من سمع وأبصار وأفئدة موجودة، فكيف يتوقف عاقل (في عظيم)[4] رحمته تعالى بإرسال الرسل، فتأكدت الحجة وتعاضدت البراهين.

فلما عرّف الخلق بقيام الحجة عليهم بطريقي الإصغاء إلى الداعي والاعتبار بالصنعة، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، فما عذر المعتذر بعد هذا؟ أتريدون كشف الغطاء ورؤية الأمر عياناً؟ لو استبصرتم لحصل لكم (ما)[5] منحتم، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ...﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨].

ثم ختمت السورة من التفويض والتسليم بما يجري مع قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وحصل من السور الأربع بيان أهل الصراط المستقيم وطبقاتهم في (سلوكه)[6]، وما ينبغي لهم التزامه أو تركه،

---

(١) في ن٢: سبق.
(٢) في ن٢: تكلف.
(٣) في ن٢: دلالة.
(٤) بهامش ن٢.
(٥) في ن١: مما.
(٦) في ن١: سلوكهم وسلوكه أصح والضمير يعود على الصراط، ويؤكده ما بعده.

وبيان حال المتنكبين عن سلوكه من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان والمجوس.

سورة الأعراف

لما قال تعالى آمراً بالاعتبار: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠]، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا ...﴾ [الأنعام: ٣٤] الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ...﴾ [الأنعام: ٤٢] الآية، وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فوقعت الإحالة في هذه الآية على الاعتبار بالأمم السالفة، وما كان منهم حين كذبوا أنبياءهم، وهلاك تلك القرون بتكذيبهم وعتوهم، وتسلية رسول الله ﷺ وسلم بجريان ما جرى له لمن تقدمه من الرسل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، فاستدعت الإحالة والتسلية بسط أخبار الأمم السالفة وهلاك تلك القرون الماضية، والإعلام بصبر الرسل ﷺ وتلطفهم في دعائه.

ولم يقع في السور الأربع قبل سورة الأنعام مثل هذه الإحالة والتسلية، وقد تكررت في سورة الأنعام كما تبين بعد انقضاء ما قصد من بيان طريق المتّقين أخذاً وتركاً، وحال من حاد عن سننهم ممن رامه أو قصده فلم يوفق (له)[1] ولا تم له أمله من الفريقين المستندين للسمع والمعتمدين النظر، فحاد الأولون بطارئ التغيير والتبديل وتنكب الآخرون بسوء التناول وقصور الأفهام، وعلة حيد الفريقين السابقة الأزلية.

---

(١) في ن١: لهم.

فلما انقضى أمر هؤلاء وصرف الخطاب إلى تسليته ﷺ وتثبيت فؤاده بذكر (أحوال)[1] الأنبياء مع أممهم، وأمر الخلق بالاعتبار بالأمم السالفة: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، بسط تعالى حال من وقعت الإحالة عليه، واستوفى الكثير من قصصهم إلى آخر سورة هود إلى قوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، فتأمل بم افتتحت السور المقصود بها قصص الأمم. وبم اختتمت يَلُحْ لك ما أشرت إليه، والله أعلم بما أراد.

فتأمل افتتاح سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧]، وختم القصص فيها بقوله تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، بعد تعقيب قصص بني إسرائيل بقصة بلعم[2]: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ...﴾ الآية [الأعراف: ١٧٥]، ثم قال: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فتأمل هذا الإيماء بعد ذكر القصص، وكيف ألحق من كذّب رسول الله ﷺ من العرب وغيرهم بمن قص ذكره من المكذبين، وتأمل افتتاح ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعم وكلاهما ممن كفر على علم، وفي ذلك أعظم موعظة، قال تعالى إثر ذلك: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ...﴾ الآية [الأعراف: ١٧٨]، فبدأ سبحانه بذكر ما أنعم به عليه وعلى من استجاب له فقال تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، فأشار إلى نعمته بإنزال الكتاب الذي جعله هدى للمتقين، وأشار هنا إلى ما تحمله من التسلية وشرح الصدور بما حوى من العجائب والقصص، مع كونه هدى ونوراً فقال: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢]، أي: أنه قد تضمن مما أحلناك عليه ما يرفع الحرج ويسلي النفوس: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢] كما أنذر من قبلك ممن نقصّ خبره من الرسل، ولتستن في إنذارك ودعائك وصبرك بسنتهم، وليتذكر المؤمنون، ثم أمر عباده بالاتّباع

---

(١) سقط من ن٢.

(٢) انظر القصة في أسباب النزول للواحدي: ١٥٧ ط بيروت ١٩٨٣م.

لما أنزله فقال جل وعز: ﴿ٱتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٣]، فإنّ هلاك من نقصّ عليكم خبره من الأمم إنما كان لعدم الاتّباع والركون إلى أوليائهم من شياطين الجن والإنس.

ثم أتبع تعالى ذلك قصة آدم عليه السلام ليبيّن لعباده ما جرت به سنته فيهم من تسلط الشيطان وكيده، وأنه عدو لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ووقع في قصة آدم هنا ما لم يقع في قصة البقرة من بسط ما أجمل هناك، كتصريح اللّعين بالحسد، (وتوهم التفوق)[١] بخلقه من النار وطلبه الإنظار، والتسلط على ذرية آدم، والإذن له في ذلك ووعيده ووعيد متبعيه، ثم أخذه في الوسوسة إلى آدم عليه السلام وحلفه له: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، وكل هذا مما أجمل في سورة البقرة، ولم تتكرر قصة إلا وهذا شأنها، أعني أنها تفيد مهما تكررت ما لم يكن حصل منها أوّلاً.

ثم انجرَّت الآية إلى ابتداء قصة نوح، واستمرت القصص إلى قصص بني إسرائيل، فبسط هنا من حالهم وأخبارهم شبيه ما بسط في قصة آدم، وما جرى من محنة إبليس، وفصل هنا الكثير، وذكر ما لم يذكر في البقرة، حتى لم يتكرر بالحقيقة إلا للتعرض لقصص طائفة معينة فقط. ومن عجيب الحكمة أن الواقع في السورتين من كلا القصتين مستقل شاف، وإذا ضم بعض ذلك إلى بعض ارتفع إجماله ووضح كماله، فتبارك من هذا كلامه، ومن جعله حجة قاطعة وآية باهرة.

ولما أعقب تعالى قصصهم في البقرة بأمره نبيه والمؤمنين بالعفو والصفح فقال تعالى: ﴿فَٱعۡفُوا وَٱصۡفَحُوا﴾ [البقرة: ١٠٩]، أعقب أيضاً هنا بقوله لنبيه: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقد خرجنا عن المقصود فلنرجع إليه.

---

(١) في ن٢: تصور خيريته.

سورة الأنفال

لما قصَّ سبحانه على نبيه ﷺ في سورة الأعراف أخبار الأمم، وقطع المؤمنين من مجموع ذلك بأنه لا يكون الهدى إلا بسابقة السعادة لافتتاح السورة من ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعم، وكلاهما كَفَرَ على علم، ولم ينفعه ما قد كان حصل عليه، ونبه تعالى عباده على الباب الذي أتي منه على بلعم بقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فأشار سبحانه إلى أن اتباع الأهواء أصل كل ضلال، نبهوا على ما فيه من الحزم من ترك الأهواء جملة فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] فكأن قد قيل لهم: اتركوا ما ترون أنه حق واجب لكم، وفوضوا في أمره لله ورسوله، فذلك أسلم لكم وأحزم في ردع أغراضكم، وقمع شهواتكم، وترك أهوائكم، وقد أُلِفَ في هذه الشريعة السمحة البيضاء حسم الذرائع[1] كثيراً، وإقامة مظنة الشيء مقامه، كتحريم الجرعة من الخمر، والنظرة، والخطبة في العدة، واعتداد النوم الثقيل ناقضاً، فهذه مظان لم يقع الحكم فيها على ما هو لأنفسها، ولا بما هي كذا، بل بما هي مظان ودواع إلى ما منع لعينه، أو استوجب حكماً ما لعينه وعلته الخاصة به.

ولما أمر المسلمون بحل أيديهم عن الأنفال يوم بدر، إذ كان المقاتلة قد هموا بأخذها، وحدَّثوا أنفسهم بالانفراد بها، ورأوا أنها من حقهم وأن من لم يباشر قتالاً، من الشيوخ ومن انحاز فئة لهم، فلا حق لهم فيها. ورأى الآخرون أيضاً أن حقهم فيها ثابت، لأنهم كانوا فئة للمقاتلين وعدة وملجأ وراء ظهورهم، كان ما أمرهم الله به من تسليم الحكم في ذلك إلى الله ورسوله، من باب حسم الذرائع، لأن تمشية أغراضهم في ذلك ـ وإن تعلق

---

(١) يعني: سدّها وقطعها، والذريعة عند الأصوليين ما يتوصل به إلى شيء ممنوع مشتمل على مفسدة، وسدّها منعها حتى لا تفضي إلى المفسدة، انظر: إعلام الموقعين: ٣/ ٢٤٨.

كل من الفريقين بحجة - مظنة لرئاسة النفوس واستسهال اتباع الأهواء، فأمرهم الله بالتنزه عن ذلك والتفويض فيه لله ورسوله، فإن ذلك أسلم لهم وأوقى لدينهم، وأبقى في إصلاح ذات البين وأجدى في الاتباع: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ...﴾ الآية.

ثم ذُكّروا بما ينبغي لهم أن يلتزموا فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ...﴾ إلى قوله: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾. ثم نبهوا على أن أعراض (الدنيا)[1]، من نفل أو غيره، لا ينبغي للمؤمن أن يعتمد عليه اعتماداً يدخل عليه ضرباً من الشرك والتفاتاً إلى غير الله سبحانه، بقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، ثم ذُكّروا بما وصف به المتقون في الصلاة والإنفاق، ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤] تنبيهاً على أن من قصر على هذه الأحوال، أو لم يأت بها على كمالها، لم يخرج عن الإيمان، ولكن نزل عن درجة الكمال بحسب تقصيره، وكأنّ في (هذا)[2] إشعاراً بعُذرهم في كلامهم في الأنفال، وأنهم قد كانوا في مطلبهم على حالة من الصواب وشوب من التمسك والاتباع، لكنّ أعلى الدرجات ما بيّن لهم ومنحوه، وأنه الكمال والفوز.

ثم نبَّههم سبحانه بكيفية أمرهم في الخروج إلى بدر، وودَّهم أن غير ذات الشوكة تكون لهم، وهو - سبحانه - يريهم حسن العاقبة فيما اختاره لهم، فقد كانوا تمنوا لقاء العير، واختاروا ذلك على لقاء العدو ولم يعلموا ما وراء ذلك: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]، إلى ما قصَّه تعالى عليهم من اكتنافهم برحمته وشمول ألطافه وآلائه، وبسط نفوسهم، ونبههم على ما يثبّت يقينهم ويزيد في إيمانهم، ثم أعلمهم أن الخير كله في التقوى فقال جل وعز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ...﴾ الآية [الأنفال: ٢٩]، وهذا الفرقان هو الذي حُرمه إبليس وبلعم، فكان منهما ما تقدم من اتباع الأهواء القاطعة لهم عن الرحمة.

وقد تضمنت الآية حصول خير الدنيا والآخرة بنعمة الاتقاء، ثم أجمل

---

(١) بهامش ن٢.

(٢) في ن١: هذه.

الخبرَانِ معاً في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، بعد تفصيل ما إليه إسراع المؤمن من الفرقان والتكفير والغفران، ولم يقع التصريح بخير الدنيا الخاص بها مع اقتضاء الآية إياه تنزيهاً للمؤمن في مقام إعطاء الفرقان وتكفير السيئات والغفران عن ذكر متاع الدنيا التي هي لهو ولعب، فلم يكن ذكر متاعها الفاني ليذكر مفصلاً مع ما لا يجانسه ولا يشاكله، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] ثم التحمت الآي.

ووجه آخر وهو أنه سبحانه لما قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فبين لهم كيفية هذا الاستماع، وما الذي يتصف به المؤمن من ضروبه، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، فهؤلاء لم يسمعوا بآذانهم فقط، ولا كانت لهم آذان لا يسمعون بها ولا قلوب لا يفقهون بها، ولو كانوا كذلك لما وجلت (قلوبهم)[1] وعمَّهم الفزع والخشية، وزادتهم الآيات إيماناً، فإذاً إنما يكون سماع المؤمن هكذا، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

ولما كان هؤلاء إنما أتي عليهم من اتباع أهوائهم والوقوف مع أغراضهم وشهواتهم: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وهذه بعينها كانت آفة إبليس، فإنه رأى لنفسه المزية، واعتقد لها الحق، ثم اتبع هذا الهوى حين قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]، فلما كان اتباع الأهواء أصلاً في الضلال وتنكُّب الصراط المستقيم، أمر المؤمنون بحسم باب الأهواء، والتسليم بما لهم فيه تعلق وإن لم يكن هوى مجرداً لكنه مظنة تيسير لاتباع الأهواء، فافتتحت السورة بسؤالهم عن الأنفال، وأُخبروا أنها لله ورسوله يحكم فيها بما شاء، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ واحذروا الأهواء التي أهلكت من قصَّ عليكم ذكره، ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ برفع التنازع، وسلموا لله ورسوله

---

(١) سقط من ن٢.

وإلا لم تكونوا سامعين، وقد أمرتم أن تسمعوا السّماع الذي عنه ترجى الرحمة، وبيانه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ . . .﴾ الآيات.

ووجه آخر وهو أن قصص بني إسرائيل أعقب بوصاة المؤمنين وخصوصاً بالتقوى، وعلى حسب ما يكون الغالب فيما يذكر من أمر بني إسرائيل، (ففي)[1] البقرة أتبع قصصهم مفتتحاً بذكر تفضيلهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]، افتتح خطاب هذه الأمة بما يشعر بتفضيلهم، وتأمّل ما بين: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأمر أولئك بالإيمان: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ [البقرة: ٤١]، وأمر هؤلاء بتعبد احتياطي فقيل: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤]، ثم أعقبت سورة البقرة بآل عمران، وافتتحت ببيان المحكم والمتشابه الذي من جهته أُتي على بني إسرائيل في كثير من مرتكباتهم.

ولما ضمنت سورة آل عمران من ذكرهم ما ورد فيها أعقب بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، ثم أعقبت السورة بقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]، وعدل عن الخطاب باسم الإيمان للمناسبة، وذلك أن سورة آل عمران خصّت من مرتكبات بني إسرائيل بجرائم، كقولهم في الكفار: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١] فهذا بهت، ومنها قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، إلى ما تخلل هاتين من الآيات المنبئة عن تعمدهم الجرائم، فعدل عن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ليكون أوقع في الترهيب وأخوف، وأوضح مناسبة لما ذكر.

ولما ضمنت سورة النساء قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] إلى قوله: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦١]، أتبعت بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]،

---

(١) في ن٢: يعني.

ثم ذكر لهم ما أحل لهم وحرم عليهم ليحذروا مما وقع فيه أولئك. فعلى هذا لما ضمنت سورة الأعراف من قصصهم جملة، وبيّن فيها اعتداؤهم، (وبناؤه)[1] على اتباع الأهواء والهجوم على الأعراض، طلب هؤلاء باتقاء ذلك والبعد عما يشبهه جملة، فقيل في آخر السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ثم افتتحت السورة الأخرى بصرفهم عما لهم به تعلق وإليه سبب يقيم عذرهم شرعاً فيما كان منهم، فكأن قد قيل لهم: ترك هذا أسلم وأبعد عن اتباع الأهواء، فسلموا الحكم في ذلك لله ورسوله، واتقوا الله. ثم تناسج السياق، والتحمت الآي، وقد تبين وجه اتصال الأنفال بالأعراف من وجوه، والحمد لله.

سورة براءة

اتصالها بالأنفال أوضح من أن يتكلف توجيهه، حتى أن شدة المشابهة والالتئام ـ مع أن الشارع ﷺ لم يكن بيَّن انفصالهما[2] ـ أوجب أن لا يفصل بينهما ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وذلك أن الأنفال قد تضمنت الأمر بالقتال ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وبين حكم (الفرار)[3] من الزحف، وحكم النسبة المطلوب فيها بالثبوت، ولحوق التأثيم للفار، وأنها على الضعف، وحكم الأسرى، وحكم ولاية المؤمنين، ومن يدخل تحت هذه الدلالة ومن يخرج عنها.

ثم ذكر في السورة الأخرى حكم من عهد إليه من المشركين، والبراءة منهم إذا لم يوفوا، وحكم من استجار منهم، إلى ما يتعلق بهذا، وكله باب واحد وأحكام متواردة على قضية واحدة، وهي تحرير حكم المخالف، فالتحمت السورتان (أوضح)[4] التحام، ثم عاد الكلام إلى حكم المنافقين وهتك أسرارهم.

---

(١) في ن٢: وبناه.
(٢) يشير إلى حديث ابن عباس الذي رواه يزيد الفارسي (انظر صفحة ٥٠).
(٣) في ن٢: القرآن، وهو خطأ. (٤) في ن٢: اعظم.

سورة يونس عليه السلام

لما تضمنت سورة براءة قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخر السورة، إلى ما تخلل أثناء هذه السورة المكرَّمة مما شهد لرسول الله ﷺ بتخصيصه بمزايا السبق والقرب والاختصاص والملاطفة في الخطاب ووصفه بالرأفة والرحمة، هذا مع ما انطوت عليه هي والأنفال من قهره أعداءه، وتأييده ونصره عليهم وظهور دينه، وعلو دعوته، وإعلاء كلمته، إلى غير هذا من نعم الله سبحانه عليه، كان ذلك كله مظنة لتعجب المرتاب وتوقف الشاك، ومثيراً لتحرك ساكن الحسد من العدو لعظيم ما منحه عليه السلام.

قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا (أَنْ أَوْحَيْنَآ)[1] إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ . . .﴾ [يونس: ٢] إلى قوله: ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢]، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ . . .﴾ الآيات [يونس: ٣]، فبيَّن انفراده تعالى بالربوبية والخلق والاختراع والتدبير، فكيف تعترض أفعاله، أو يطلع البشر على وجه الحكمة في كل ما يفعله ويبديه إذا كان الكل ملكه وخلقه، فيفعل في ملكه ما يشاء، ويحكم في خلقه بما يريد؟، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [يونس: ٣] ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٥].

ثم توعَّد سبحانه الغافلين عن التفكر في عظيم آياته حتى أدتهم الغفلة إلى مرتكب سلفهم في العجب والإنكار حتى قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، وهذه مقالات الأمم المتقدمة: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧][2]، فقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ

---

(١) بهامش ن٢.

(٢) وقد سقطت من ن١.

﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [سبأ: ٤٣]، فقال تعالى متوعداً للغافلين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . .﴾ الآية [يونس: ٧]، ثم وعد المعتبرين فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم . . .﴾ الآيات [يونس: ٩]، وكل هذا بين الالتحام جليل الالتئام، ثم تناسجت آي السورة.

سورة هود عليه السلام

لما كانت سورة يونس عليه السلام قد تضمنت من آي التنبيه والتحريك للنظر، ومن العظات والتخويف والتهديد والترهيب والترغيب، وتقريع المشركين والجاحدين والقطع بهم، والإعلام بالجريان على حكم السوابق، ووجوب التفويض والتسليم، ما لم تشتمل على مثله سورة لتكرر هذه الأغراض فيها، وسبب تكرر ذلك فيها ـ والله أعلم ـ أنها أعقب بها السبع الطوال. وقد مر التنبيه على أن سورة الأنعام بها وقع استيفاء بيان حال المتنكبين عن الصراط المستقيم على اختلاف أحوالهم، ثم استوفت سورة (الأعراف)[1] (ما وقعت)[2] الإحالة عليه من أحوال الأمم السالفة كما تقدم، وبسطت ما أجمل من أمرهم، ثم أتبع ذلك بخطاب المستجيبين لرسول الله ﷺ، وحذروا وأنذروا، وكشف عن حال من تلبس بهم من عدوهم من المنافقين، وتم المقصود من هذا في سورتي (الأنفال)[3] وبراءة، ثم عاد الخطاب إلى طريقة الدعاء إلى الله والتحذير من عذابه بعد بسط ما تقدم، فكان مظنة لتأكيد التخويف والترهيب لإتيان ذلك بعد بسط حال (وإيضاح)[4] أدلة، فلهذا كانت سورة يونس مضمنة من هذا ما لم يضمن غيرها.

ألا ترى افتتاحها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ . . .﴾ الآيات [يونس: ٣]، ومناسبة هذا الافتتاح دعاء الخلق إلى الله في سورة البقرة بقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، (ثم نبهوا)[5] هنا كما نبهوا هناك، فقال تعالى:

---

(١) في ن٢: الأنعام.
(٢) بهامش ن٢.
(٣) في ن٢: الأنعام.
(٤) في ن١: اتضاح.
(٥) في ن٢: ثم قد نبهوا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، ثم تأكدت المواعظ والزواجر والإشارات إلى أحوال المكذبين.

(فمن التنبيه)[١]: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣]، ﴿الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾ [يونس: ٦]، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٣٤]، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥]، ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، إلى غير (ذلك)[٢]، وعلى هذا السنن تكررت العظات، والأغراض المسلم إليها في هذه السورة إلى قوله: ﴿(قُلْ)[٣] يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨].

(فتحصل)[٤] من سورة الأعراف والأنفال وبراءة ويونس تفصيل ما كان أجمل فيما تقدمها، كما حصل مما تقدم تفصيل أحوال السالكين والمتنكبين. فلما تقرر هذا كله أتبع المجموع بقوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وتأمل مناسبة الإتيان بهذين الاسمين الكريمين[٥] وهما: الحكيم والخبير، ثم تأمل (تلاء)[٦] صدر السورة لقوله تعالى: وقد كان تقدم قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨]، فأتبع قوله تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: [يونس: ١٠٨] بقوله في صدر سورة هود: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]، فكأنه في معرض بيان الحق والموعظة، وإذا كانت محكمة مفصلة فحق لها أن تكون شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، وحق توبيخهم في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩]، والعجب في عَمَهِهم مع إحكامه وتفصيله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦)﴾ [يونس: ٩٦].

---

(١) في ن٢: في الشبه.
(٢) في ن٢: هذا.
(٣) سقط من ن٢.
(٤) في ن٢: فحصل.
(٥) في ن١: المكرمين.
(٦) في ن٢: تلاؤم وما في ن١: أنسب وقد تكرر من المؤلف هذا الاستعمال.

وتأمل قوله سبحانه آخر هذه السورة: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]، (فكل)[1] الكتاب حق وموعظة وذكرى، وإنما الإشارة ـ والله أعلم بما أراد ـ إلى ما تقرر الإيماء إليه من كمال بيان الصراط المستقيم وملتزمات متبعيه أخذاً وتركاً، وذكر أحوال المتنكبين على شتى طرقهم واختلاف أهوائهم وغاياتهم، وشرهم إبليس، فإنه متبعهم والقائل لجميعهم في إخبار الله تعالى (عنه)[2]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وبسط في أمره وقصته في البقرة[3] والأعراف[4] ما يسَّر على المؤمنين الحذر منه، وعرَّفهم به، وذُكر اليهود والنصارى والمشركون والصابئون والمنافقون وغيرهم، وفصل مرتكب كل فريق منهم.

كما استوعب ذكر أهل الصراط المستقيم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وفصل من أحوالهم ابتداء وانتهاء، والتزاماً وتركاً، ما أوضح طريقهم وعيَّن حزبهم وفريقهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وذكر أحوال الأمم مع أنبيائهم، وأخذ كل من الأمم بذنبه (مفصلاً)[5]، وذكر ابتداء الخلق في قصة آدم عليه السلام وحال الملائكة في التسليم والإذعان، وذُكر فريقا الجن من مؤمن وكافر، وأمر الآخرة، وانتهاء حال الخلائق، واستقرارهم (الأخراوي)[6]، (وتكرر)[7] دعاء الخلق إلى الله تعالى لطفاً منه ورحمة، وإعلام الخلق بما هو عليه سبحانه، وما يجب له من الصفات العلى والأسماء الحسنى، ونُبه العباد على الاعتبار، وعُلموا طريق الاستدلال، ورغبوا ورهبوا، وبشروا، وأنذروا، وأعلموا بافتقار المخلوقات بجملتها إليه سبحانه كما هو المنفرد بخلقهم، إلى ما تخلل ذلك مما يعجز الخلائق عن حصره والإحاطة به: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

فلما تقدم هذا كله في السبع الطوال وما تلاها، أعقب ذلك بقوله

(١) في ن١: وكل.
(٢) سقط من ن٢.
(٣) بداية من الآية ٣٤.
(٤) بداية من الآية ١١.
(٥) في ن١: مجملاً ومفصلاً.
(٦) في ن٢: الأخروي.
(٧) في ن١: وتذكر.

تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ثم أتبع هذا بالإيماء إلى فصول ثلاثة عليها مدار آي الكتاب، وهي: فصل الإلهية، وفصل الرسالة، وفصل التكاليف.

أما الأول فأشار إليه قوله (الحق)[1]: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢]، وأما فصل الرسالة فأشار إليه قوله سبحانه: ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢]، وأما فصل التكاليف فأشار إليه قوله سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]، وهذه الفصول الثلاثة هي التي تدور عليها آي القرآن، وعليها مدار سوره الكريمة.

فلما حصل استيفاء ذلك كله فيما تقدم، ولم يبق وجه شبهة للمعاند ولا تعلق للجاحد، واتضح الحق وبان، قال ﷻ: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ١٢٠] إشارة إلى كمال المقصود وبيان المطلوب، واستيفاء التعريف بوضوح الطريق، وقد وضح من هذا تلاء هذه السورة الكريمة لما تقدمها.

ومما يشهد لهذا ـ والله أعلم ـ قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود: ١١٢]، فقد وضح طريقك وفاز بالفلاح (حزبك)[2] وفريقك، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [هود: ١١٣] فقد عرفتم سبيلهم ومصيرهم، فقد (بان)[3] طريق الحق فكيف تنكب من حرم سلوكه من الخلق، ونظير قوله سبحانه: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ عقب ما ذكر، قوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩]. فتأمل ذلك، والله المستعان.

سورة يوسف عليه السلام

هذه السورة من جملة ما قص عليه ﷺ من أنباء الرسل وأخبار من تقدمه مما فيه التثبيت الممنوح في قوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، ومما وقعت الإحالة عليه في سورة الأنعام كما تقدم.

---

(١) سقط من ن٢.

(٢) في ن١: مرادك.

(٣) في ن١: كان.

وإنما أفردت على حدتها ولم تنسق (على قصص)[1] الرّسل مع (أممهم)[2] في سورة واحدة لمفارقة مضمونها تلك القصص، ألا ترى أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم ﷺ، وكيفية تلقي قومهم لهم، وإهلاك مكذبيهم، أما هذه القصة فحاصلها فرج بعد شدة، وتعريف بحسن عاقبة الصبر، فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنيه وبصره وشتات بنيه، وامتحن يوسف عليه السلام بالجب، والبيع، وامرأة العزيز، وفقد الأب والإخوة، والسجن، ثم امتحن جميعهم بشمول الضر وقلة ذات اليد: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ [يوسف: ٨٨]، ثم تداركهم الله بإلفتهم، وجمع شملهم، ورد بصر أبيهم وائتلاف قلوبهم، ورفع ما نزغ (به)[3] الشيطان، وخلاص يوسف عليه السلام من كيد من كاده، واكتنافه بالعصمة، وبراءته عند الملك والنسوة، وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر، وجلالة اليقين في حسن تلقي الأقدار بالتفويض والتسليم على توالي الامتحان وطول المدة.

ثم انجر في أثناء هذه القصة الجليلة إنابة امرأة العزيز ورجوعها إلى الحق وشهادتها ليوسف عليه السلام بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين، ثم استخلاص العزيز إياه، إلى ما انجر في هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، فقد انفردت هذه القصة بنفسها، ولم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام وما جرى في أممهم، فلهذا فصلت عنهم.

وقد أشارت السورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضي وسلم لينبه المؤمنون على ما في طي ذلك، وقد صرح لهم بما أجملته هذه السورة من الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] إلى قوله: ﴿أَمْنًا﴾.

وكانت قصة يوسف بجملتها أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم في

---

(١) بهامش ن٢.
(٢) في ن٢: أنهم.
(٣) سقط من ن١.

أول الأمر، وهجرتهم، وتشتتهم مع قومهم، وقلة ذات أيديهم، إلى أن جمع الله شملهم: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وأورثهم الأرض وأيدهم ونصرهم، ذلك لجليل إيمانهم وعظيم صبرهم، فهذا ما أوجب تفرد هذه القصة عن تلك القصص، والله أعلم.

وأما تأخر ذكرها عنها فمناسب لحالها، ولأنها إخبار بعاقبة من آمن واتعظ، ووقف عندما حد له، فلم يضره ما كان، ولم تذكر إثر قصص الأعراف لما بقي من استيفاء تلك القصص، الحاصل ذلك في سورة هود، ثم إن ذكر أحوال المؤمنين مع من كان معهم من المنافقين وصبرهم عليهم مما يجب أن يتقدم ويعقب بهذه القصة (الجليلة)[1] من حيث عاقبة الصبر والحض عليه كما مر، فأخرت إلى عقب سورة هود لمجموع هذا، والله أعلم.

ثم ناسب سورة يوسف أيضاً أن تذكر إثر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ...﴾ الآية [هود: ١١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ (وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾)﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢][2] فتدبر ذلك.

أما نسبتها للآية الأولى، فإن ندم إخوة يوسف، واعترافهم بخطأ فعلهم، وفضل يوسف عليهم: ﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]، وعفوه عنهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]، وندم امرأة العزيز وقولها: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ...﴾ الآية [يوسف: ٥١]. كل هذا من باب إذهاب الحسنة السيئة، وكأن ذلك مثال لما عرف به المؤمنون من إذهاب الحسنة السيئة.

وأما نسبة السورة لقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٥]، فإن هذا أمر منه سبحانه لنبيه ﷺ بالصبر على

---

(١) سقط من ن٢.

(٢) ما بين القوسين بهامش ن٢.

قومه، فأتبع بحال يعقوب ويوسف عليهما السلام، وما كان من صبرهما مع طول المدة وتوالي امتحان يوسف بالجب ومفارقة الأب والسجن حتى خلَّصه الله أجمل خلاص بعد طول تلك المشقات.

ألا ترى قول نبينا عليه الصلاة والسلام وقد ذكر يوسف عليه السلام، فشهد له بجلالة الحال وعظيم الصبر، فقال: ولو لبثت في السجن ما لبث أخي يوسف لأجبت الداعي[1].

فتأمل عذره له عليهما السلام، وشهادته بعظيم قدر يوسف: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، لما قيل له عليه السلام: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥] أتبع بحال يعقوب ويوسف من المحسنين: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ . . .﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤] وقد شملت الآية ذكر يعقوب ويوسف، ونبينا عليه السلام قد أمر بالاقتداء في الصبر بهم، وقيل له: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ويوسف عليه السلام من أولي العزم صلى الله عليهم أجمعين.

ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما السلام في صبرهما، ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا، مع ما أعد الله لهما من عظيم الثواب، أنسب شيء لحال نبينا عليه السلام في مكابدة قريش ومفارقة وطنه، ثم تعقب ذلك بظفره بعدوه، وإعزاز دينه وإظهار كلمته، ورجوعه إلى بلده على حالة قرت بها عيون المؤمنين، وما فتح الله عليه وعلى أصحابه، فتأمل ذلك.

ويوضح ما ذكرناه ختم السورة بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا . . .﴾ الآية [يوسف: ١١٠]، فحاصل هذا كله الأمر بالصبر وحسن عاقبة أولياء الله فيه.

وأما النسبة لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: ١١٨]، فلا أنسب لهذا، ولا أعجب من حال إخوة فضلاء لأب واحد من أنبياء الله وصالحي عباده جرى بينهم من التشتت ما جعله الله عبرة لأولي الألباب.

---

(١) البخاري: أنبياء: ١١ ـ ١٩، مسلم: إيمان: ٢٣٨.

وأما النسبة لآية التهديد فبينة، وكأن الكلام في قوة: اعملوا على مكانتكم وانتظروا، فلن نصبر عليكم مدة صبر يعقوب ويوسف عليهما السلام. وقد وضح بفضل الله وجه ورود هذه السورة عقب سورة هود، والله أعلم.

سورة الرعد

هذه السورة تفصيل لمجمل قوله سبحانه في خاتمة سورة يوسف عليه السلام: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٥ ـ ١٠٨].

فبيان آي السماوات في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]، وبيان آي الأرض في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣]، (هذه آي السماوات والأرض وقد زيدت بياناً في مواضع، ثم في قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الرعد: ٣])[1] ما يكون من الآيات عنهن، لأن الظلمة عن جرم الأرض والضياء عن نور الشمس، وهي سماوية، ثم زاد تعالى آيات الأرض بياناً وتفصيلاً في قوله عز وجل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ . . .﴾ [الرعد: ٤] إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

ولما كان إخراج الثمر بالماء النازل من السماء من أعظم آيه ودليلاً واضحاً على صحة المعاد، ولهذا قال تعالى في الآية الآخرى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وكان (قد)[2] ورد هنا على أعظم جهة من الاعتبار من إخراجها مختلفات في الطعوم والألوان والروائح مع اتحاد المادة، ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، كذلك ما أعقب قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ [الرعد: ٤] بقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

---

(١) ما بين القوسين، ساقط من ن١.

(٢) سقط من ن١.

ثم بين سبحانه الصنف القائل بهذا، وأنهم الكافرون أهل الخلود في النار، ثم أعقب ذلك ببيان (عظيم)[1] حلمه وعفوه فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الآية... [الرعد: ٦]، ثم أتبع الآية بما يشعر بالجري على السوابق في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، ثم بين عظيم ملكه واطلاعه على دقائق ما أوجده من جليل صنعه واقتداره فقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ...﴾ الآيات [الرعد: ٨]، إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، ثم خوَّف عباده وأنذرهم ورغبهم فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ...﴾ [الرعد: ١٢] الآيات، وكل ذلك راجع إلى ما أودع سبحانه في السماوات والأرض وما بينهما من الآيات، وفي ذلك أكثر آي السورة.

ونبَّه تعالى على الآية الكبرى والمعجزة العظمى، فقال جل وعز: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]، والمراد لكان هذا القرآن، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

والتنبيه بعظيم هذه الآية مناسب لمقتضى السورة من التنبيه بما أودع تعالى من الآيات في السماوات والأرض، وكأنه جل وتعالى لما بيَّن لهم من عظيم ما أودع في السماوات والأرض وما بينهما في الآيات وبسط ذلك وأوضحه، أردف ذلك (بآية)[2] أخرى جامعة للآيات ومتسعة للاعتبارات فقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]، فهو من نحو: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، أي: لو فكرتم في آيات السماوات والأرض لأقلتكم وكفتكم في بيان الطريق إليه، ولو فكرتم في أنفسكم وما أودع تعالى فيكم من العجائب لاكتفيتم: من عرف نفسه عرف ربه، فمن قبيل هذين الضربين من الاعتبار هو الواقع في سورة الرعد من بسط آيات السماوات والأرض، ثم ذكر القرآن وما تحمل، فهذه إشارة إلى ما تضمنته هذه السورة الجليلة من بسط الآيات المودعة في الأرضين والسماوات.

---

(١) سقط من ن١.

(٢) بهامش ن٢.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] فقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، فالذين تطمئن قلوبهم بذكر الله هم أولو الألباب المتذكرون التامّو الإيمان، وهم القليل المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ [ص: ٢٤] والمقول فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ﴾ [الأنفال: ٤]، ودون هؤلاء طوائف من المؤمنين ليسوا في درجاتهم ولا بلغوا يقينهم، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] قال ﷺ: (الشرك أخفى في أمتي)[1] من دبيب النمل[2]، فهذا بيان ما أجمل في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ...﴾ الآية [يوسف: ١٠٦].

وأما قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٧]، (فقد أشعروا بما[3] عجل لهم من ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الرعد: ٣١] القاطع دابرهم والمستأصل لأمرهم.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ...﴾ الآية [يوسف: ١٠٨]، فقد أوضحت آي سورة الرعد سبيله ﷺ وبينته بما تحمله من عظيم التنبيه وبسط الدلائل بما في السماوات والأرض وما بينهما، وما في العالم بجملته، تحمله الكتاب المبين كما تقدم.

ثم قد تعرضت السورة لبيان حِلَى سالكي تلك السبيل الواضحة المنجية، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾...﴾ [الرعد: ٢٠]. إلى (آخر ما)[4] حلّاهم به أخذاً وتركاً. ثم عاد الكلام بعد إلى ما منه بدأ من التنبيه والبسط وتقريع الكفار وتوبيخهم، وتسليته ﷺ في أمرهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ

(١) في ن٢: الشرك في أمتي أخفى.
(٢) مسند أحمد: ٤/٤٠٣.
(٣) سقط من ن٢.
(٤) في ن١: آخرها، والصحيح: آخر ما.

﴿مُنذِرٌ﴾ [الرعد: ٧]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

فالسورة بجملتها غير حائدة عن تلك الأغراض المجملة في الآيات الأربع المذكورات من آخر سورة يوسف، ومعظم السورة غالب آيها في التنبيه وبسط الدلالات والتذكير بعظيم ما أودعت من الآيات، ولما كان هذا شأنها أعقبت بمفتتح سورة إبراهيم عليه السلام.

سورة إبراهيم عليه السلام

لما[1] كانت سورة الرعد على ما تمهَّد، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]، لما كانت تلك الآيات والبراهين لا يبقى معها شك لمن اعتبر بها لعظيم شأنها واتضاح أمرها قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] إذ هم تذكروا به واستبصروا ببراهينه وتدبروا آياته، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١] لكان هو.

ولما كان الهدى والضلال كل ذلك موقوف على (مشيئته سبحانه)[2] وسابق إرادته، وقد قال لنبيِّه عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، قال تعالى هنا: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الرعد: ٤٠]، (ولما)[3] قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠٥] ثم بسطها في سورة الرعد، أعلم هنا أن ذلك كله له وملكه، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٢] فالسماوات والأرض بجملتها ما فيها وما بينهما من عظيم ما أوضح لكم الاعتبار به، كل ذلك له ملكاً وخلقاً واختراعاً، ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) بهامش ن٢.

(٢) في ن٢: على مشيئة الله سبحانه.

(٣) في ن٢: كما.

﴿وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢] لعنادهم مع وضوح الأمر وبيانه، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٣] مع وضوح السبيل وانتهاج ذلك الدليل، ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، وكان هذا من تمام قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وذلك أن الكفار لما حملهم الحسد والعناد وبُعد الفهم بما (جعل)[1] على قلوبهم وطبع عليها على أن أنكروا كون الرسل من البشر حتى قالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥]، وحتى قالت قريش: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ . . .﴾ الآية [الفرقان: ٧]، ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ . . .﴾ الآية [الفرقان: ٧]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، فلما كثر هذا منهم، وتبع خلفهم في (ذلك)[2] سلفهم، ردد تعالى إرغامهم وإبطال توهمهم في آيات وردت على التدريج في هذا الغرض شيئاً فشيئاً، فأول الوارد من ذلك في معرض الرد عليهم وعلى ترتيب سور الكتاب قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا (أَنْ)[3] أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ . . .﴾ الآية [يونس: ٢]، ثم أتبع ذلك بانفراده بالخلق والاختراع والتدبير والربوبية، وفي طي ذلك أنه يفعل ما يشاء لأن الكل خلقه وملكه، وأنه العليم بوجه الحكمة في إرسال الرسل وكونهم من البشر، فأرغم تعالى بمضمون هذه الآي كلَّ جاحد ومعاند.

ثم ذكر تعالى في سورة هود قول قوم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا . . .﴾ الآية، وجوابه ﷺ: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، أي: وإني وإن كنت في البشرية مثلكم فقد خصني الله بفضله، آتاني رحمة من عنده وبرهاناً على ما جئتكم به عنه، وفي هذه القصة أوضح عظة.

---

(١) في ن٢: حبل.
(٢) في ن٢: هذا.
(٣) سقط من ن٢.

ثم جرى هذا لصالح وشعيب عليهما السلام، وديدن الأمم أبداً مع أنبيائهم ارتكاب هذه المقالات، وفيها من الحيد والعجز عن مقاومتهم ما لا يخفى، وما هو شاهد على تعنيتهم، ثم زاد تعالى نبيّه ﷺ تعريفاً بأحوال من تقدمه من الأنبياء، وليسمع ذلك من جرى له مثل ما جرى لهم فقال مثل مقالتهم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وأعلم سبحانه أن هذا لا يحط شيئاً من مناصبهم بل هو (أوقع)[1] في قيام الحجة على العباد، ثم تلي ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] أي: ليكون أبلغ من الحجة وأقطع للعذر، فربما كانوا يقولون عند اختلاف الألسنة لا نفهم عنهم، إذ قد قالوا ذلك مع اتفاق اللغات، فقد قام قوم شعيب عليه السلام: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]، هذا وهو عليه السلام يخاطبهم بلسانهم، فكيف لو كان على خلاف (ذلك)[2]، بل لو خالفت الرسل عليهم السلام الأمم في التبتل وعدم اتخاذ الزوجات والأولاد واستعمال الأغذية وغير ذلك من (مألوفات)[3] الشر لكان (ذلك)[4] منفراً، فقد بان وجه الحكمة في كونهم من البشر، ولو كانوا من الملائكة لوقع النفار والشرود لافتراق الجنسية، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٩]، أي: ليكون أقرب إليهم لئلا يقع تنافر. فكونهم من البشر أقرب وأقوم للحجة.

ولما كانت رسالة محمد ﷺ (عامة)[5] كان عليه السلام يخاطب كل طائفة من طوائف العرب بلسانها، ويعلمها بما تفهم. وتأمل كم بين كتابه عليه السلام لأنس في الصدقة[6] وكتابه إلى وائل بن حجر[7] مع اتحاد الغرض، وللكتابين

---

(١) في ن٢: واقع.
(٢) سقط من ن١.
(٣) في ن١: مالولافات.
(٤) سقط من ن٢.
(٥) في ن٢: تامة.
(٦) البخاري: ٢٤/٣٨، ٢٤/٣٩.
مسند أحمد: ١/ ١١ ـ ١٢.
سنن أبي داود: ٩/٣ ـ ٤.
المستدرك: ٢/ ١٤ ـ ١٥.
(٧) انظر في ذلك القلقشندي: ٦/ ٣٧١.

=

نظائر يوقف عليها في مظانها، وكل ذلك لتقوم الحجة على الجميع.

واستمر باقي سورة إبراهيم عليه السلام على التعريف بحال مكذبي الرسل ووعيد من خالفهم وبيان بعض أهوال الآخرة وعذابها.

سورة الحجر

لما تقدم من وعيد الكفار ما تضمنته الآي المختتم بها سورة إبراهيم عليه السلام من لدن قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] إلى خاتمتها، أعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الحجر: ٢] أي: عند مشاهدة تلك الأهوال الجلائل، ثم قال تعالى تأكيداً لذلك الوعيد: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ٣].

ثم أعقب هذا ببيان ما جعله سنة في عباده من ارتباط الثواب والعقاب معجله ومؤجله بأوقات وأحيان لا انفكاك لها عنها ولا تقدم ولا تأخر، إذ استعجال البطش في الغالب إنما يقع ممن يخاف الفوت، والعالم بجملتهم في ملكه تعالى وقبضته لا يفوته أحد منهم ولا يعجزه: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾ [الحجر: ٤]، وكأن (هذا)[1] يزيد إيضاحاً قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآية [إبراهيم: ٤٨]، وتأمل نزول قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الحجر: ٢] على هذا، وعظيم موقعه في اتصاله به، ووضوح ذلك كله.

أما افتتاح السورة بقوله ﷻ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]

= الشفا للقاضي عياض: ١/٦٣.

وائل بن حجر: (ت٥٠هـ)، هو وائل بن حجر الحضرمي القحطاني أبو هندة من أقيال حضرموت، استعمله الرسول ﷺ على أقيال حضرموت وأعطاه كتاباً لمهاجر بن أبي أمية وكتاباً للأقيال والعباهلة، شارك في الفتوح (أسد الغابة: ٥/٨١).

(١) سقط من ن١.

فإحالة على أمرين واضحين: أحدهما: ما نبه به سبحانه من الدلائل والآيات كما تفسر، والثاني: ما بيَّنه القرآن المجيد وأوضحه وانطوى عليه من الدلائل والغيوب والوعد والوعيد، وتصديق بعض ذلك بعضاً، فكيف لا يكون المتوعد به في قوة الواقع الشاهد لشدة البيان في حجة الوقوع، فالعجب من التوقف والتكذيب، ثم أعقب هذا بقوله سبحانه: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: ٢].

سورة النحل

هذه السورة في التحامها بسورة الحجر (مثل الحجر)[1] بسورة إبراهيم من غير فرق، لما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقال بعد ذلك في وعيد المستهزئين: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٦]، أعقب هذا ببيان تعجيل الأمر فقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وزاد هذا بياناً قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]، فنزه سبحانه نفسه عما فاهوا به في استهزائهم وشركهم وعظيم بهتهم، وأتبع ذلك ترهيباً وتعظيماً فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾ [النحل: ٣].

ثم أتبع ذلك بذكر ابتداء خلق الإنسان وضعف جبلَّته: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤]، ثم أبلغه تعالى حداً يكون منه الخصام والمحاجَّة، كل ذلك ابتلاء منه واختبار ليميز الخبيث من الطيب، وعقب هذا بذكر بعض ألطافه سبحانه في خلق الأنعام وما جعل فيها من المنافع المختلفة، وما هو سبحانه عليه من الرأفة والرحمة اللتين بهما أخر العقوبة عن مستوجبها، وهدى لمن يستحق الهداية بذاته، بل كل هداية فبرأفة الخالق ورحمته، ثم أعقب ما ذكره بعد من خلق الخيل والبغال والحمير وما في ذلك كله بقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

فتبين أن كل الواقع من هداية وضلال خلقُه وفعلُه، وأنه أوجد الكل من

---

(١) سقط من ن١.

واحد، وابتدأهم ابتداء واحداً، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤]. فلا بُعد في اختلاف غاياتهم بعد ذلك. فقد أرانا سبحانه مثال هذا الفعل ونظيره في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ [النحل: ١٠] إلى قوله: ﴿لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١]، والله أعلم.

سورة الإسراء

لما تقدم قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠] إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآية... [النحل: ١٢٣]، كان ظاهر ذلك تفضيل إبراهيم ﷺ على محمد ﷺ وعلى جميع النبيين، لا سيما مع الأمر بالاتباع، فأعقب ذلك بسورة الإسراء، وقد تضمنت من خصائص نبينا ﷺ وانطوت على ما حصل منه المنصوص في الصحيح المقطوع به والمجمع عليه أنه ﷺ سيّد ولد آدم[1] فاستفتحت السورة بقصة الإسراء، وقد تضمنت حسبما وقع في صحيح مسلم[2] وغيره[3] إمامته للأنبياء ﷺ، وفيهم إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء من غير استثناء، هذه رواية ثابتة عن أنس وهي أتقن رواية عند أهل صناعة الحديث وأجودها.

وفي حديث أبي هريرة أنه ﷺ أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ القرآن فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة، وجعل أمتي وسطاً، وجعل أمتي هم الأولون والآخرون، شرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحاً (وخاتماً)[4]، فقال إبراهيم: بهذا فضلكم الله.

وفي رواية أبي هريرة من طريق الربيع بن أنس وذكر سدرة المنتهى، وأنه

---

(١) سنن الدارمي: ١٣، ابن ماجه: زهد ٣٧.
(٢) مسلم: مساجد: ٥، مسلم بشرح النووي: ٢/٢١٠.
(٣) نسائي: صلاة ١، البيهقي في دلائل النبوّة: البخاري: ٤/٢٤٧.
(٤) سقط من ن١.

تبارك وتعالى قال له: سل، فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلَّمت موسى تكليماً، (وأعطيت داود ملكاً عظيماً، وألنت له الحديد، وسخرت له الجبال)[1]، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً وسخرت له الجن والإنس والشياطين والرياح، وأعطيته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلَّمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن له عليهما سبيل.

فقال له ربه تعالى: قد اتخذتك حبيباً، فهو مكتوب في التوراة: محمد حبيب الرحمٰن، وأرسلتك إلى الناس كافة، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً، وأعطيتك سبعاً من المثاني، ولم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك خواتم (سورة)[2] البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك، وجعلتك فاتحاً وخاتماً[3].

وفي حديث شريك: أنه رأى موسى في السابعة قال: بتفضيل كلام الله، قال: ثم علا به فوق ذلك ما لا يعلمه إلا الله، فقال موسى: لم أظن أن يرفع عليّ أحد[4].

وفي حديث علي بن أبي طالب خرَّجه البزار[5] في ذكر تعليمه ﷺ الأذان وخروج الملك: فقال رسول الله ﷺ: «يا جبريل من هذا؟ قال: والذي بعثك بالحق إني لأقرب مكاناً، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه. . .» الحديث، وفيه ثم أخذ الملك بيد محمد ﷺ فقدَّمه فأمَّ أهل السماء فيهم آدم ونوح. وفي هذا الحديث، قال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين راويه: أكمل الله تعالى لمحمد ﷺ (الشرف)[6] على أهل السماوات والأرض.

---

(١) سقط من ن١. (٢) سقط من ن٢.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان: ١٥/٦ وما بعدها. الطبعة الثانية مصر، ١٩٥٤م.

(٤) انظر في ذلك: جامع البيان للطبري، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير في تفسير سورة الإسراء.

(٥) هو: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق. البصري صاحب المسند الكبير، ذكره الذهبي في وفيات سنة ٢٩٢هـ.

(٦) في ن٤: الحسن.

قلت: وفي هذا الحديث إشكالات صعبة، فلهذا لم نورد منه هنا إلا أطرافاً بحسب الحاجات، إذ ليس ما فيه الإشكال من مطلوبنا هنا. وقد حصل منه تفضيله ﷺ بالإسراء، وخصوصه بذلك.

ثم قد انطوت السورة على ذكر المقام المحمود، وهو مقامه في الشفاعة الكبرى، وذلك مما خص به حسبما ثبت في الصحيح)[1]، وانعقد عليه إجماع أهل السنة، ولا أعلم في الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه التي فضل بها على كافة الأنبياء مثل ما تضمنت هذه، والحمد لله.

سورة الكهف

من الثابت المشهور أن قريشاً بعثت إلى يهود المدينة يسألونهم في أمر رسول الله ﷺ، فأجابتهم يهود بسؤاله عن ثلاثة أشياء، قالوا: فإن (جاءكم)[2] بجوابها فهو نبي، وإن عجز عن جوابكم فالرجل متقوّل، فَرَوْا فيه رأيكم، وهي: الروح، وفتية ذهبوا في الدهر الأول (وهم أهل الكهف)[3]، وعن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، فأنزل الله سبحانه عليه جواب ما سألوه[4] وبعضه في سورة الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى . . .﴾ الآية [الإسراء: ٨٥].

وافتتح تعالى سورة الكهف بحمده، وذكر نعمة الكتاب وما أنزل بقريش وكفار العرب من البأس يوم بدر وعام الفتح، وبشارة المؤمنين بذلك، وبما منحهم الله من النعيم الدائم، وإنذار القائلين بالولد من النصارى وعظيم مرتكبهم وشناعة قولهم: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] وتسلية النبي ﷺ في أمر جميعهم: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ . . .﴾ الآية [الكهف: ٦]، والتحمت الآي أعظم التحام وأحسن التئام، إلى ذكر ما سأل عنه الكفار من أمر الفتية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ . . .﴾ [الكهف: ٩]، ثم بسطت الآي قصتهم وأوضحت أمرهم، واستوفت خبرهم.

---

(١) البخاري تيمم: ١.

(٢) في ن٢: أجابكم.

(٣) بهامش ن٢.

(٤) انظر: أسباب النزول للواحدي: ٢٠٥.

ثم ذكر سبحانه أمر ذي القرنين وطوافه وانتهاء أمره، فقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ . . .﴾ [الكهف: ٨٣] الآيات، وقد فصلت بين القصتين مواعظ وآيات مستجرة على أتم ارتباط وأجلِّ اتساق، ومن جملتها قصة الرجلين وجنتي أحدهما وحسن الجنتين وما بينهما، وكفر صاحبهما واغتراره، وهما من بني إسرائيل.

وقد أفصحت هذه الآي منها باغترار أحدهما بما لديه وركونه إلى توهم البقاء، وتعويل صاحبه على ما عند ربه ورجوعه إليه، وانتهاء الأمر بعد المحاورة الواقعة في الآيات بينهما إلى إزالة ما تخيل (المغتر)[1] بقاءه، (ورفع)[2] ذلك كأن لم يكن. ولم يبق بيديه إلا الندم ولا صح له من جنتيه بعد عظيم تلك البهجة سوى التلاشي والعدم، وهذه حال من رَكَنَ إلى سوى المالك ومن كل شيء إلا وجهه ﷻ فانٍ وهالك، ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦] ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

ثم أعقب سبحانه ذلك بضرب مَثَلَ الحياة الدنيا لمن اعتبر واستبصر، وأعقب تلك الآيات بقصة موسى والخضر عليهما السلام إلى تمامها، وفي كل ذلك تأديب بني إسرائيل وتقريعهم وتوبيخ مرتكبهم في توقفهم عن الإيمان وتعنيفهم في توهمهم عند فتواهم لكفار قريش بسؤاله ﷺ عن القصص الثلاث أن قد حازوا العلم وانفردوا بالوقوف على ما لا يعلمه غيرهم، فجاء جواب قريش بما يرغم الجميع ويقطع دابرهم، وفي ذكر قصة موسى والخضر إشارة لهم لو عقلوا، وتحريك لمن سبقت له منهم السعادة، وتنبيه لكل موفق في تسليم الإحاطة لمن هو العليم الخبير.

وبعد تقريعهم وتوبيخهم بما أشير إليه عاد الكلام إلى بقية سؤالهم فقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ إلى آخر القصة، وليس بسط هذه القصص مقصودنا، وقد (حصل)[3] ما أردناه، ولم يبق إلا السؤال عن وجه انفصال

---

(١) في ن٢: المفتون.
(٢) في ن٢: رجع.
(٣) في ن١: اتصل.

جوابهم ووقوعه في السورتين مع أن السؤال واحد، وهذا ليس من شرطنا فلننسأه[1] بحول الله إلى موضعه إن قدر به.

سورة مريم

لما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: ٩]، ثم أورد خبرهم وخبر الرجلين وموسى والخضر، وقصة ذي القرنين، أتبع سبحانه ذلك بقصص تضمنت من العجائب ما هو أشد عجباً وأخفى سبباً، فافتتح سورة مريم (بقصة)[2] يحيى بن زكريا وبشارة زكريا به بعد الشيخوخة وقطع الرجاء وعقر الزوج، حتى سأل زكريا مستفهماً متعجباً: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، (فأجابه)[3] تعالى بأن ذلك عليه هيِّن، وأنه يجعل ذلك آية للناس.

وأمر هذا أعجب من القصص المتقدمة، فكأن قد قيل: أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً نحن نخبرك بخبرهم ونخبرك بما هو أعجب وأغرب وأوضح آية، وهو قصة زكريا في ابنه يحيى عليه السلام وقصة عيسى في كينونته بغير أب، ليعلم أن الأسباب في الحقيقة لا يتوقف عليها شيء من مسبباتها إلا بحسب سنة الله وإنما الفعل له سبحانه لا للسبب، وإلى هذا أشار قوله تعالى لزكريا عليه السلام: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]. ثم أتبع سبحانه بشارة زكريا بيحيى بإتيانه الحكم صبياً. ثم بذكر مريم وابنها عليه السلام وتعلقت الآي بعد إلى انقضاء السورة.

سورة طه

لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم وما منحه وأعطاه، وقصص الأنبياء بعده وما خصهم به، وأعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ

(١) نَسأ نَسأ وَمَنسأة الشيء أخّره. انظر لسان العرب: مادة نسأ.
(٢) سقط من ن٢. (٣) في ن١: اجابته.

مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ [مريم: ٥٨]، وكان ظاهر الكلام تخصيص هؤلاء بهذه المناصب العلية والدرجات المنيفة الجليلة، لا سيما وقد أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم: ٥٩]، كان هذا مظنة إشفاق وخوف، فأتبعه تعالى بملاطفة نبيه محمد ﷺ ملاطفة المحبوب المقرب المجتبى فقال: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ٢]، وأيضاً فقد ختمت سورة مريم بقوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ۝٩٨﴾ [مريم: ٩٨] بعد قوله: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ [مريم: ٩٧].

وقد رأى ﷺ من تأخر قريش عن الإسلام ولددها ما أوجب إشفاقه وخوفه عليهم، ولا شك أنه ﷺ: (يحزنه تأخر إيمانهم ولذلك قيل له: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ١٢٧]، فكأنه ﷺ)[١] ظن أنه (سيستصعب)[٢] المقصود من استجابتهم أو ينقطع الرجاء من إنابتهم فيطول العناء والمشقة، فبشَّره سبحانه بقوله: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ٢]، فلا عليك من لدد هؤلاء وتوقفهم فسيستجيبُ من انطوى على الخشية إذا ذكّر وحُرِّك إلى النظر في آيات الله، كما قيل له في موضع آخر: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ [يس: ٧٦]، ثم أتبع سبحانه ذلك تعريفاً وتأنيساً بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] إلى أول قصص موسى ﷺ.

فأعلم سبحانه أن الكل خلقه وملكه وتحت قهره وفي قبضته، ولا يشذ شيء عن ملكه، فإذا شاء هداية من وفقه لم يصعب أمره، ثم أتبع ذلك بقصة موسى ﷺ، وما كان منه في إلقائه صغيراً في اليمّ، وما جرى بعد ذلك من عجيب الصنع، وهلاك فرعون، وظهور بني إسرائيل، وكل هذا مما يؤكد القصد المتقدم، وهذا الوجه الثاني أولى من الأول، والله أعلم.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ن١.

(٢) في ن٢: سيستضعف.

سورة الانبياء

لما تقدم قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: ١٣١] إلى قوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥]، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١] أي: لا تمدن عينيك إلى ذلك فإني جعلته فتنة لمن ناله (بغير حق)[١]، وسيسأل عن قليل ذلك وكثيره: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] والأمر قريب: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١].

وأيضاً فإنه تعالى لما قال: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧] وهم الشديدو الخصومة في الباطل، المرتكبو اللجج، ثم قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم: ٩٨]، استدعت هذه الجملة بسط حال ابتدئت بتأنيسه ﷺ، وتسليته حتى لا يشق عليه لددهم، فتضمنت سورة طه من هذا الغرض بشارته بقوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ [طه: ٢]، وتأنيسه بقصة موسى عليه السلام وما كان من حال بني إسرائيل، وانتهاء أمر فرعون، ومكابدة موسى عليه السلام لدد فرعون ومرتكبه، إلى أن وقصه[٢] الله وأهلكه، وأورث عباده أرضهم وديارهم.

ثم أتبعت بقصة آدم عليه السلام ليري نبيه سنته في عباده، حتى أن آدم عليه السلام وإن لم يكن امتحانه بذريته ولا مكابدته من أبناء جنسه فقد كابد من إبليس ما قصَّه الله تعالى في كتابه، وكل هذا تأنيس للنبي ﷺ، فإنه إذا تقرر لديه أنه سنة الله تعالى في عباده هان عليه لدد قريش ومكابدتهم.

ثم ابتدئت سورة الأنبياء ببقية هذا التأنيس، فبين اقتراب الحساب، ووقوع يوم الفصل المحمود فيه ثمرة ما كوبد في ذات الله، والمتمنّى فيه أن لو كان ذلك أكثر والمشقة أصعب لجليل الثمرة (وجزيل)[٣] الجزاء.

---

(١) سقط من ن١.

(٢) وقصه الله: وقص يقص وقصاً عُنقَه: كسرها، الشيءَ: عابه ونقصه.

(٣) في ن٢: جليل.

ثم أتبع سبحانه ذلك بعظات ودلائل ومواعد وبسط آيات، وأعلم أنه سبحانه قد سبقت سنته بإهلاك من لم يكن منه الإيمان من متقدمي القرون وسالف الأمم: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ [الأنبياء: ٦]، وفي قوله: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦] تعزية لرسول الله ﷺ في أمر قريش ومن قبيل ما الكلام بسبيله.

وقد تضمنت هذه السورة إلى ابتداء قصة إبراهيم ؏، من المواعظ والتنبيه على الدلالات وتحريك العباد إلى الاعتبار بها ما يعقب لمن اعتبر به التسليم والتفويض إليه سبحانه والصبر على الابتلاء، وهو من مقصود السورة، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ [الأنبياء: ٩] إجمال لما فسره النصف الأخير من هذه السورة من تخليص الرسل وتأييدهم الذي تضمنه النصف الأخير من لدن قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١] إلى آخر السورة وكمال للغرض المتقدم من التأنيس وملاءمة ما تضمنته سورة طه وتفسير لمجمل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ۝٩٨﴾ [مريم: ٩٨].

سورة الحج

لما افتتحت سورة الأنبياء بقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، وكان وارداً في معرض التهديد، وتكرر في مواضع منها كقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨]، ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء: ٤٦]، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣]، ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، إلى ما تخلل هذه الآي من

التهديد وشديد الوعيد حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار بما في الساعة وما بعدها وبين يديها في نظائر هذه السورة، وقد ختمت من ذلك بمثل ما به ابتدئت، اتصل بذلك ما يناسبه من الإعلام بهول القيامة وعظيم أمرها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ١] إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

ثم أتبع هذا ببسط الدلالة على البعث الأخير وإقامة البرهان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ . . .﴾ الآية [الحج: ٥]، ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: اطرد هذا الحكم العجيب ووضح من تقلبكم من حالة إلى حالة في الأرحام وبعد خروجكم إلى الدنيا، وأنتم تعلمون ذلك من أنفسكم، وتشاهدون الأرض على صفة من الخمود والموت إلى حين نزول الماء فتحيا وتخرج أنواع النبات وضروب الثمرات، ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد: ٤]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الحج: ٦]، كما أحياكم أولاً وأخرجكم من العدم إلى الوجود، وأحيا الأرض بعد موتها وهمودها، كذلك يأتي بالساعة من غير ريب ولا شك، ويبعثكم لما وعدتم من حسابكم وجزائكم ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

سورة المؤمنون

فُصّل في افتتاحها ما أجمل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧]، وأعلم بما ينبغي للراكع الساجد التزامه من الخشوع، ولالتحام الكلامين ما ورد الأول أمراً والثاني مدحة وتعريفاً (بمزية)[1] كمال الحال، وكأنه لما أمر (المؤمن)[2] وأطمع بالفلاح جزاء لامتثاله كان مظنة لسؤاله عن تفصيل ما أمر به من العبادة وفعل الخير الذي به يكمل فلاحه فقيل له: المفلحُ من التزم كذا وكذا، وذكر له سبعة أضرب من العبادة هي أصول لما وراءها

(١) في ن٢: بماله.

(٢) في ن٢: المؤمنين، وهذا خطأ.

ومستتبعة سائر التكاليف، وقد بُسط حكم كل عبادة منها وما يتعلق بها في الكتاب والسنة.

ولما كانت المحافظة على الصلاة منافرة إتيان الإثم جملة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، لذلك ختمت بها هذه العبادات بعد التنبيه على محل الصلاة من هذه العبادات بذكر الخشوع فيها أولاً، وأتبعت هذه الضروب السبعة بذكر أطوار سبعة يتقلب فيها الإنسان قبل خروجه إلى الدنيا، فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ...﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وكأن قد قيل له: إنما كمل خلقك وخروجك إلى الدنيا بعد هذه التقلبات السبعة، وإنما تتخلص في دنياك بالتزام هذه العبادات السبع، وقد وقع عقب هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، ولعل ذلك مما يقرر هذا الاعتبار ووارد لمناسبته، والله أعلم.

وكما أن صدر هذه السورة مبين لما أجمل في الآية قبلها، فكذا الآيات بعد مفصلة لمجمل ما تقدم، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ[1] إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ...﴾ [الحج: ٥]، وهذا كاف في التحام السورتين، والله سبحانه المستعان.

سورة النور

لما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ ...﴾ الآية [المؤمنون: ٥]، ثم قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [المؤمنون: ٧]، استدعى الكلام بيان حكم العادي في ذلك، ولم يبين فيها، فأوضحه في سورة النور فقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى ...﴾ الآية، ثم أتبع ذلك بحكم اللعان والقذف، وانجر مع ذلك الإخبار بقصة الإفك تحذيراً للمؤمنين من زلل الألسنة رجماً بالغيب، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]،

---

(١) في ن١: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهو خطأ.

وأتبع ذلك بعد بوعيد محبي شيوع الفاحشة في المؤمنين بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ . . .﴾ الآيات [النور: ٢٣]، ثم بالتحذير من دخول البيوت إلا بعد الاستئذان المشروع، ثم بالأمر بغض (الأبصار)[1] للرجال والنساء، ونهي النساء عن إبداء الزينة إلا لمن سمى الله سبحانه في الآية، وتكررت هذه المقاصد في هذه السورة، إلى ذكر حكم العورات الثلاث، ودخول بيوت الأقارب وذوي الأرحام، وكل هذه مما تبرأ به ذمة المؤمن، بالتزام ما أمر الله فيه من ذلك، والوقوف عند ما حده تعالى، من أن يكون من العادين المذمومين في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٧] وما تخلّلَ الآي المذكورات ونُسق عليها ـ مما ليس من الحكم المذكور ـ فلاستجرار الآي إياه واستدعائه، ومظنة استيفاء ذلك، وبيان ارتباط التفسير ليس من شروطنا هنا، والله سبحانه يوفقنا لفهم كتابه.

سورة الفرقان

لما تضمنت سورة النور بيان كثير من الأحكام، كحكم الزنا، ورمي الزوجات به، والقذف والاستئذان، والحجاب، واستعفاف الفقير، والكتابة وغير ذلك، والكشف عن مغيبات من تغير حالات يُتبين بمعرفتها والاطلاع عليها الخبيث من الطيب، كإطلاعه سبحانه نبيه والمؤمنين على ما يقوله أهل الإفك، وبيان سوء حالهم واضمحلال محالهم، ثم قصة المنافقين في إظهارهم ضد ما يضمرون، ثم كريم وعده الخلفاء الراشدين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ . . .﴾ الآية [النور: ٥٥]، ثم ما فضح به تعالى منافقي الخندق: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا . . .﴾ [النور: ٦٣] إلى آخر الآية، كان مجموع هذا فرقاناً يعتضد به الإيمان، ولا ينكره مقر بالرحمن يشهد لرسول الله ﷺ بصحة رسالته، ويوضح مضمون قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ

---

(١) بهامش ن٢٥.

﴿كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضًاۚ﴾ [النور: ٦٣] من عظيم قَدْرِه ﷺ وَعليِّ جلالته، أتبعه سبحانه بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وهو القرآن الفارق بين الحق والباطل، والمطلع على ما أخفاه المنافقون وأبطنوه من المكر والكفر، ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، فيحذرهم من مرتكبات المنافقين والتشبه بهم، ثم تناسج الكلام، والتحم جليل المقصود من ذلك النظام.

وتضمنت هذه السورة من النعي على الكفار والتعريف ببهتهم وسوء مرتكبهم ما لم يتضمن كثير من نظائرها، كقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ...﴾ الآيات [الفرقان: ٧]. وقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: ٢١]، وقولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةًۚ﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقولهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، إلى ما عضد هذه وتخللها، ولهذا ختمت بقاطع الوعيد وأشد التهديد، وهو قوله سبحانه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾ [الفرقان: ٧٧].

سورة الشعراء

لما عرّفت سورة الفرقان بشنيع مرتكب الكفرة المعاندين، وختمت بما[(١)] ذكر من الوعيد، كان ذلك مظنة لإشفاقه ﷺ وتأسفه على فوت إيمانهم، لما جُبل عليه من الرحمة والإشفاق، فافتتحت السورة الأخرى بتسليته ﷺ، وأنه سبحانه لو شاء لأنزل عليهم آية تبهرهم وتُذِل جبابرتهم، فقال سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشعراء: ٣، ٤].

وقد تكرر هذا المعنى عند إرادة تسليته ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

---

(١) سقط من ن١.

ثم أعقب سبحانه بالتنبيه والتذكير: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: ٧]، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقلّ ما تجد في الكتاب العزيز ورود تسليته ﷺ إلا معقبة بقصص موسى ﷺ وما كابد من بني إسرائيل وفرعون، وفي كل قصة منها إحراز ما لم تحرزه الأخرى من الفوائد والمعاني والأخبار، حتى لا تجد قصة تتكرر وإن ظن ذلك من لم يمعن النظر، فما من قصة من القصص المتكررة في الظاهر إلا ولو سقطت أو قدر إزالتها لنقص من الفائدة ما لا يحصل في غيرها، وسنوضح هذا في التفسير بحول الله.

ثم أتبع جل وتعالى قصة موسى بقصص غيره من الأنبياء مع أممهم على الطريقة المذكورة وتأنيساً له ﷺ حتى لا يهلك نفسه أسفاً على فوت إيمان قومه، ثم أتبع سبحانه ذلك بذكر الكتاب وعظيم النعمة به، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]، فيا لها كرامة تقصر الألسنة عن شكرها، وتعجز العقول عن تقديرها، ثم أخبر تعالى أنه بلسان عربي مبين، ثم أخبر سبحانه بعليّ صيت الكتاب وشائع ذكره على ألسنة الرسل والأنبياء فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ۝﴾ [الشعراء: ١٩٦]، وأخبر أن علم بني إسرائيل به من أعظم آية وأوضح برهان وبينة، وأن تأمل ذلك كاف واعتباره شاف، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝﴾ [الشعراء: ١٩٧]، كعبد الله بن سلام وأشباهه، ثم وبخ تعالى متوقفي العرب فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۝ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩]، ثم أتبع ذلك بما يتعظ به المؤمن الخائف من أن الكتاب مع أنه نور وهدى قد يكون محنة في حق طائفة، كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، فقال تعالى في هذا المعنى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝ ...﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١] الآيات.

ثم عاد الكلام إلى تنزيه الكتاب وإجلاله عن أن تتسوَّر (الشياطين)[1] على شيء منه أو تصل إليه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١] أي: ليسوا أهلين له، ولا يقدرون على استراق سمعه، بل هم معزولون عن السمع ومرجومون بالشهب.

ثم وصّى تعالى نبيه ﷺ (والمراد)[2] المؤمنون، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٢١٣]، ثم أمره بالإنذار، ووصاه بالصبر فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٢١٤، ٢١٥]، ثم أعلم تعالى بموقع ما توهموه وأهلية ما تخيلوه فقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢] ثم وصفهم، وكل هذا تنزيه لنبيه ﷺ عما تقوّلوه، ثم هددهم وتوعدهم فقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

سورة النمل

لما وضح في سورة الشعراء عظيم رحمته بالكتاب، وبيان ما تضمنته مما فضح به الأعداء ورحم به الأولياء، وبراءته من أن تتسور الشياطين عليه، وباهر آياته الداعية من اهتدى بها إليه، فتميز بعظيم آياته كونه فرقاناً قاطعاً ونوراً ساطعاً، أتبع سبحانه ذلك مدحة وثناء، وذكر من شملته رحمته به تخصيصاً واعتناء، فقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [النمل: ١] أي: الحاصل عنها مجموع تلك الأنوار: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [النمل: ١، ٢].

ثم وصفهم ليحصل للتابع قسطه من بركة المتبع، وليقوي رجاءه والنجاة مما أشار إليه، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ [الشعراء: ٢٢٧] من عظيم ذلك المطلع، ثم أتبع ذلك بالتنبيه على صفة الأهلين لما تقدم من التقول والافتراء (تنزيهاً

---

(١) سقط من ن١.

(٢) سقط من ن١.

لعباده المتقين وأوليائه المخلصين من دنس الشكوك والامتراء)[1] فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤﴾ [النمل: ٤] أي: يتحيرون، فلا يفرقون بين النور والظلام لارتباك الخواطر والأفهام، ثم أتبع ذلك بتسليته ﷺ بالقصص الواقعة بعد، تنشيطاً له وتعريفاً بعليّ منصبه، وإطلاعاً له على عجيب صنعه تعالى فيمن تقدم.

ثم ختمت السورة بذكر (أهوال)[2] القيامة وبعض ما بين يديها، والإشارة إلى الجزاء، ونجاة المؤمنين، وتهديد من تنكب عن سبيله ﷺ.

سورة القصص

لما تضمن قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٩١] إلى آخر السورة من التخويف والترهيب والإنذار والتهديد ما انجر معه الإشعار بأنه ﷺ سيملك مكة، ويفتحها تعالى عليه، ويذل عتاة قريش ومتمرديهم، ويعز أتباع رسوله ﷺ ومن استضعفته قريش من المؤمنين، أتبع سبحانه ذلك بما قصّه على نبيه من نظير ما أشار إليه (من فتنة)[3] بني إسرائيل، وابتداء امتحانهم بفرعون، واستيلائه عليهم وفتكه بهم، إلى أن أعزهم الله وأظهرهم على عدوهم، وأورثهم أرضهم وديارهم، ولهذا أشار تعالى في كلا القصتين كقوله في الأولى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]، وكقوله في الثانية: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] ثم قص ابتداء أمر فرعون وحَذَره (واستعصامه)[4] بقتل ذكور الأولاد، ثم لم يغن ذلك عنه من قدَر الله شيئاً، ففي حاله عبرة لمن وفق للاعتبار، ودليل أنه سبحانه المنفرد بملكه، يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، (لا يزعه وازع)[5] ولا يمنعه عما يشاؤه مانع: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦].

---

(١) سقط من ن٢.
(٢) في ن٢: أهل.
(٣) في ن٢: في قصة، وما جاء بعد يؤيده.
(٤) في ن٢: استعصائه.
(٥) في ن٢: ينزعه نازع.

وقد أفصح قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآية [النور: ٥٥] بما أشار إليه مجمل ما أوضحنا اتصاله من خاتمة النمل وفاتحة القصص ونحن نزيده بياناً بذكر لمع من تفسير ما قصد التحامه فنقول:

إن قوله تعالى (مُعلِّما)[1] لنبيه وآمراً: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١] إلى قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [النمل: ٩٣] لا خفاء بما تضمن ذلك من التهديد وشديد الوعيد، ثم في قوله: ﴿رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ إشارة أنه ﷺ سيفتحها ويملكها لأنها بلد ربه وملكه، ففي هذا من الإشارة مثل ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩٢] أي: ليسمعوه فيتذكر من سبقت له السعادة، ويلحظ سنة الله في العباد والبلاد، ويسمع ما جرى لمن عاند وعتا وكذب واستكبر، وكيف وقصه الله وأخذه ولم يغن عنه حذره، وأورث مستضعف عباده أرضه ودياره، ومكن لهم في الأرض، وأعز رسله وأتباعهم: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾ [القصص: ٣]، أي يصدقون ويعتبرون ويستدلون فيستوضحون.

وقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [النمل: ٩٣] يشير إلى ما حل بهم يوم بدر وبعد ذلك إلى يوم فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجاً، وعزة أقوام وذلة آخرين بحكم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، إلى فتح الله على الصحابة وما وعدهم به نبيهم، فكان كما وعد.

فلما تضمنت هذه الآي ما أشير إليه بما هو في قوة أن لو قيل: ليس عتوكم بأعظم من عتو فرعون وآله، ولا حال مستضعفي المؤمنين بمكة ـ ممن قصدتم فتنته في دينه ـ بدون حال بني إسرائيل حين كان فرعون يمتحنهم بذبح أبنائهم، فهلّا تأملتم عاقبة الفريقين وسلكتم أنهج الطريقين: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٨٢] إلى قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٢﴾ [غافر: ٨٢]، فلو تأملتم ذلك لعلمتم أن العاقبة للمتقين فقال سبحانه بعد افتتاح السورة: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

(١) سقط من ن٢.

ثم ذكر من خبره ما فيه عبرة، وذكر سبحانه آيته الباهرة في أمر موسى وحفظه ورعايته وأخذ أم عدوه إياه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [القصص: ٩]، فلم (يزل)[1] يذبح الأبناء خيفة من مولود يهتك ملكه حتى إذا كان ذلك المولود، تولى بنفسه تربيته وحفظه ليعلم لمن التدبير والإمضاء، وكيف نفوذ سابق الحكم والقضاء، فهلّا سألت قريش وسمعت وفكرت واعتبرت؟ ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

ثم أتبع سبحانه ذلك بخروج موسى ﷺ من أرضه ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١] وما ناله ﷺ في ذلك الخروج من عظيم السعادة، وفي ذلك منبهة لرسول الله ﷺ على خروجه من مكة، وتعزيه له، وإعلام بأنه تعالى سيعيده إلى بلده ويفتحه عليه. وبهذا المستشعر من هنا صُرّح آخر السورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ [القصص: ٨٥]، وهذا كاف فيما قصد.

سورة العنكبوت

افتتحت سورة القصص بذكر امتحان بني إسرائيل بفرعون، وابتلائهم بذبح أبنائهم، وصبرهم على عظيم تلك المحنة، ثم ذكر تعالى حسن عاقبتهم وثمرة صبرهم، وانجر مع ذلك مما هو مِنْهُ، لكنه انفصل عن عمومه (بالنصّية)[2] امتحان أم موسى بفراقه حال الطفولة، وابتداء (الرضاع)[3] وصبرها على أليم ذلك المذاق حتى رده تعالى إليها أجمل رد وأحسنه، ثم ذكر ابتلاء موسى ﷺ بأمر القبطي وخروجه خائفاً يترقب، وحسن عاقبته وعظيم رحمته، وكل هذا ابتلاء أعقب خيراً وختم برحمة.

ثم (أعقب)[4] بضرب آخر من الابتلاء أعقب محنة وأورث شراً وسوء فتنة، وهو ابتلاء قارون بماله وافتتانه به، ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص: ٨١]، فحصل من هذا أن الابتلاء في غالب الأمر سنّة جرت منه

---

(١) سقط من ن٢.
(٢) في ن٢: بالقضية.
(٣) في ن١: الصدع.
(٤) سقط من ن٢.

سبحانه في عباده ليميز الخبيث من الطيب، وهو المنزه عن الافتقار إلى تعرف أحوال العباد بما يبتليهم به، إذ قد علم ذلك منهم قبل كونه، إذ هو موجده وخالقه، كان خيراً أو شراً، فكيف يغيب عنه، أو يفتقر تعالى إلى ما به يتعرف أحواله أو يتوقف علمه على سبب، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، ولكن هي سنة في عباده ليظهر لبعضهم من بعض عند الفتنة والابتلاء ما لم يكن ليظهر قبل ذلك، حتى يشهدوا على أنفسهم، وتقوم الحجة عليهم باعترافهم، ولا افتقار (به تعالى إلى شيء من ذلك)[1].

فلما تضمنت سورة القصص هذا الابتلاء في الخير والشر وبه وقع افتتاحها واختتامها، هذا وقد انجر بحكم الإشارة أولاً خروج نبينا ﷺ من بلده ومنشئه ليأخذ ﷺ بأوفر حظ مما ابتلي به الرسل والأنبياء من مفارقة الوطن وما يحرز لهم الأجر المناسب لعلي درجاتهم ﷺ، ثم بشارته ﷺ آخراً بالعودة والظفر ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، فأعقب سبحانه هذا بقوله معلماً للعباد ومنبهاً أنها سنة فيهم فقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ٢] أي أحسبوا أن يقع الاكتفاء بمجرد استجابتهم وظاهر إنابتهم، ولمَّا يقع امتحانهم بالشدائد والمشقات وضروب الاختبارات: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، فإذا وقع الابتلاء، فمن فريق يتلقون ذلك تلقي العليم أن ذلك من عند الله ابتلاء واختبار، فيكون تسخيراً لهم وتخليصاً، ومن فريق يقابلون ذلك بمرضاة الشيطان والمسارعة إلى الكفر والخذلان: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت: ٦].

ثم أتبع سبحانه هذا بذكر حال بعض الناس ممن يدعي الإيمان، فإذا أصابه أدنى أذى من الكفار صرفه ذلك عن الإيمان، وكان عنده مقاوماً لعذاب الله الصارف لمن عرفه عن الكفر والمخالفة، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]،

---

(١) سقط من ن١.

فكيف حال هؤلاء في تلقي ما هو (أغرق في المحنة وأشد في الفتنة)[1].

ثم أتبع سبحانه ذلك بما به يتأسى الموفق، من صبر الأنبياء عليهم السلام، وطول مكابدتهم من قومهم، فذكر نوحاً وإبراهيم ولوطاً، وشعيباً (وخص هؤلاء عليهم السلام بالذكر لأنهم من أعظم الرسل مكابدة وأشدهم ابتلاء، أما نوح عليه السلام فلبث في قومه ـ كما أخبر الله سبحانه ـ ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما آمن معه إلا قليل، وأما إبراهيم فرمي بالمنجنيق في النار، فكانت عليه برداً وسلاماً، وقد نطق الكتاب العزيز بخصوص المذكورَيْن صلى الله عليهما وعلى الرسل والأنبياء أجمعين بضروب من الابتلاءات حصلوا على ثوابها وفازوا من عظيم الرتبة النبوية العليا بأسنى نصابها)[2]، ثم ذكر تعالى أخذ المكذبين من أممهم فقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، ثم وصى نبيه عليه السلام وأوضح حجته، وتتابع اتساق الكلام إلى آخر السورة.

سورة الروم

لما (عنَّف)[3] سبحانه أهل مكة، ونعى عليهم قبح صنيعهم في التغافل عن الاعتبار بحالهم، وكونهم مع قلة عددهم قد منع الله بلدهم عن قاصد نهبه وكف أيدي العتاة والمتمردين عنهم مع (تعاور)[4] أيدي المنتهبين على من حولهم، وتكرر ذلك واطراده، صوناً منه تعالى لحرمه وبيته فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، أي: أو لم يكفهم هذا في الاعتبار ليتبينوا أن ذلك ليس عن قوة منهم ولا حسن دفاع، وإنما هو بصون الله إياهم بمجاورة بيته وملازمة أمنه مع أنهم أقل العرب، أفلا يرون (قدر)[5] هذه النعمة ويقابلونها بالشكر والاستجابة قبل أن يُحلّ بهم نقمه ويسلبهم نعمه.

---

(١) في ن٢: أعظم من الفتنة وأشد في المحنة.
(٢) ما بين القوسين ساقط من ن١. (٣) في ن٢: اعقب.
(٤) في لسان العرب: تعاوروا الشيء: تداولوه فيما بينهم.
(٥) سقط من ن٢.

فلما قدم تذكارهم بهذا أعقب بذكر طائفة هم أكثر منهم وأشد قوة وأوسع بلاداً، وقد أيد عليهم غيرهم ولم يغن عنهم انتشارهم وكثرتهم، فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآيات [الروم: ١ ـ ٣]، فذكر تعالى غلب غيرهم لهم وأنهم ستكون لهم كرة ثم يغلبون، وما ذاك إلا بنصر الله من يشاء من عبيده، ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم: ٥]، فلو كُشف عن أبصار من كان بمكة من الكفار لرأوا أن اعتصام بلادهم وسلامة ذرياتهم وأولادهم مما يتكرر على من حولهم من الانتهاب والقتل وسبي (الذراري)[1] والحرم إنما هو بمنع الله تعالى وكريم صونه لمن جاور حرمه وبيته، وإلا فالروم أكثر عدداً وأطول مدداً ومع ذلك تتكرر عليهم الفتكات والغارات وتتوالى عليهم الغلبات، أفلا يشكر أهل مكة من أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟.

وأيضاً فإنه سبحانه لما قال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أتبع ذلك سبحانه بذكر تقلب حالها وتبين اضمحلالها ومحالها، وأنها لا تصفو ولا تتم، وإنما حالها أبداً التقلب وعدم الثبات، فأخبر بأمر هذه الطائفة التي هي من أكثر أهل الأرض وأمكنهم وهم الروم، وأنهم لا يزالون مرة عليهم وأخرى لهم، فأشبهت حالهم هذه حال اللهو واللعب، فوجب اعتبار العاقل بذلك، وطلبه الحصول على تنعم دار لا ينقلب حالها ولا يتوقع انقلابها وزوالها: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ومما يقوي هذا قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧] أي: لو علموا باطنها لتحققوا أنها لهو ولعب، ولعرفوا أمر الآخرة، (فبتبين حال الدنيا تلوح حال)[2] الأخرى: من عرف نفسه عرف ربه.

ومما يشهد لكل من القصدين ويعضد كلا الأمرين قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى . . .﴾ الآيات [الروم: ٩] أي: لو فعلوا هذا وتأملوه لشاهدوا من تقلب أحوال الأمم وتغير الأزمنة والقرون ما بني لهم عدم بقائها على أحد،

---

(١) في ن١: الذاري.
(٢) سقط من ن٢.

فتحققوا لهوها ولعبها، وعلموا أن حالهم ستؤول إلى حال من ارتكب مرتكبهم في العناد والتكذيب وهو (التباب)[1] والهلاك.

سورة لقمان

لما تكرر (في سورة الروم)[2] الأمر بالاعتبار والحض عليه، والتنبيه بعجائب المخلوقات كقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم: ٨]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٩]، وقوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ١١] وقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩] إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، وهي عشر آيات تحملت من جليل الاعتبار والتنبيه ما لا يبقى معه شبهة ولا توقف لمن وفق إلى ما بعد هذا من آيات التنبيه وبسط الدلائل، وذكر ما فطر عليه العباد، وضرب الأمثال الموضحة سواء السبيل لمن عقل معانيها وتدبر حكمها، إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]، وهي إشارة إلى ما أودع سبحانه كتابه المبين من مختلف الأمثال وشتى العظات، وما تحملت هذه السورة من ذلك، أتبع سبحانه ذلك بقوله الحق: ﴿الم ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝﴾ [لقمان: ١، ٢] أي دلائله وبراهينه المنصوبة لمن وفق وسبقت له الحسنى وهم المحسنون الذين ذكرهم بعد، ووصف الكتاب بالحكيم يشهد لما مهدناه.

ثم أشار سبحانه إلى من حُرم منفعته والاعتبار به فاستبدل الضلالة بالهدى، وتنكب عن سنن فطرة الله التي فطر الناس عليها، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ...﴾ [لقمان: ٦] الآيات، ثم أتبع ذلك بما يبكت كل معاند ويقطع بكل جاحد، فذكر خلق السماوات بغير عمد مرئية مشاهدة، لا يمكن في أمرها امتراء، ثم ذكر[3] خلق الأرض وما أودع فيها، ثم قال

---

(١) في ن٢: التبار.
(٢) سقط من ن٢.
(٣) سقط من ن١.

سبحانه: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١]. ثم أتبع ذلك بذكر من هداه سبيل الفطرة فلم تزغ به الشبه ولا تنكب سوء السبيل، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ . . .﴾ الآيات [لقمان: ١٢]، ليبين لنا سنن)[1] من اتبع فطرة الله التي تقدم ذكرها في سورة الروم، ثم تناسق الكلام (وانتسج)[2].

سورة السجدة

لمَّا انطوت سورة الروم على ما قد أشير إليه من التنبيه بعجائب ما أودعه سبحانه في عالم السماوات والأرض، وعلى ذكر الفطرة، ثم أتبعت بسورة لقمان تعريفاً بأن مجموع تلك الشواهد من آيات الكتاب وشواهده ودلائله، وأنه قد هدى من شاء إلى سبيل الفطرة، وإن لم يمتحنه بما امتحن به كثيراً ممن ذكر فلم يغن عنه، ودعي فلم يجب، وتكررت عليه الإنذارات فلم يصغ لها، ليعلم أن كل ذلك ـ من الهدى والضلال ـ واقع بمشيئته وسابق إرادته، وأتبع سبحانه هذا بما ينبه المعتبر على صحته فقال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]، فأعلم سبحانه أن الخلاص والسعادة في الاستسلام له ولما يقع من أحكامه، وعزّى نبيّه وصبّره بقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ [لقمان: ٢٣].

ثم ذكر تعالى لجأ الكل (إليه)[3] قهراً ورجوعاً بحاكم اضطرارهم لوضوح الأمر فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ثم وعظ الكل بقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، أي: إن ذلك لا يشق عليه تعالى ولا يصعب، والقليل والكثير سواء، ثم نبه بما يبين ذلك من إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل، وجريان الفلك بنعمته: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [لقمان: ٣٠].

ثم أكد ما تقدم من رجوعهم في الشدائد إليه فقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ

---

(١) في ن٢: وليس لتأسيس، وهذا خطأ. (٢) في ن٢: وتناسج.

(٣) سقط من ن٢.

﴿كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، فإذا خلصهم سبحانه ونجاهم عادوا إلى شتى أحوالهم، هذا وقد عاينوا رفقه بهم وأخذه عند الشدائد بأيديهم، وقد اعترفوا بأنه خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر، وذلك شاهد عن حالهم بجريانهم على ما قدر لهم، ووقوفهم عند حدود السوابق: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]، ثم عطف سبحانه على الجميع فدعاهم لتقواه، وحذرهم من هول (يوم ميعادهم وشدته)[1]، وحذرهم من الاغترار، وأعلمهم بأنه المنفرد بعلم الساعة، وبإنزال الغيث، وعلم ما في الأرحام وما يقع من المكتسبات، وحيث (يموت)[2] كل واحد من المخلوقات.

فلما كانت سورة لقمان بما بين من مضمنها محتوية على التنبيه والتحريك على ما ذكر، ومعلمة بانفراده سبحانه بخلق الكل وملكهم، أتبعها سبحانه بما يحكم بتسجيل صحّة الكتاب، وأنه من عنده، وأن ما انطوى عليه من الدلائل والبراهين يرفع كل ريب ويزيل كل شك، فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [السجدة: ١ ـ ٣]، أي: أيقع منهم هذا بعد وضوحه وجلاء شواهده؟ ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ٣].

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]، وهو تمام لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٢]، ولقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ولقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ﴾ [لقمان: ٣٢]، ولقوله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤] بما ذكّرتم؟ ألا ترون أمر لقمان وهدايته بمجرد دليل فطرته؟ فما لكم بعد النذير، وتقريع الزواجر، وترادف الدلائل، وتعاقب الآيات، تتوقفون عن الإيمان؟ وقد أقررتم بأنه سبحانه خالقكم، ولجأتم إليه عند احتياجكم.

ثم أعلم نبيه برجوع من عاند وإجابته حين لا ينفعه رجوع ولا تغني عنه

---

(١) بهامش ن٢.

(٢) في ن٢: يفوت.

إجابة، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، ثم أعلم سبحانه أن الواقع منهم إنما هو بإرادته، وسابق من حكمه ليأخذ الموقف الموقن نفسه بالتعليم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣] كما فعلنا بلقمان ومن أردنا توفيقه.

ثم ذكر انقسامهم بحسب السوابق، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٨]، ثم ذكر مصير الفريقين ومآل الحزبين، ثم أتبع ذلك بسوء حال من ذُكِّر فأعرض فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ﴾ [السجدة: ٢٢]، وتعانق الكلام إلى آخر السورة.

سورة الأحزاب

افتتحها سبحانه بأمر نبيه باتقائه، ونهيه عن الصغو إلى الكافرين والمنافقين، واتباعه ما يوحى إليه، تنزيهاً لقدره عن محنة من سبق له الامتحان ممن قدم ذكره في سورة السّجدة، وأمراً له بالتسليم لخالقه والتوكّل عليه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٣]، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

ولما تحصل من السورتين قبل ما يعقب العالم من الخوف أشده لغيبة العلم بالخواتم، وما جرى في السورتين من الإشارة إلى السوابق، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، كان ذلك مظنة لتيئيس نبي الله ﷺ وصالحي عباده، فلهذا أعقب سورة السجدة بهذه السورة المضمنة من التأنيس والبشارة ما يجري على المعهود من لطفه تعالى وسعة رحمته، فافتتح سبحانه السورة بخطاب نبيه بالتقوى، وإعلامه بما قد أعطاه من سلوك سبيل النجاة وإن ورد على طريق الأمر ليشعره باستقامة سبيله واستيضاح دليله، وخاطبه بلفظ النبوة لأنه أمر ورد عقب تخويف وإنذار، وإن كان عليه السلام قد نزه الله قدْره عن أن يكون منه خلاف التقوى، وعصمه عن كل ما ينافر نزاهة حاله وعليّ منصبه، ولكن طريقة خطابه تعالى للعباد أنه مهما جرد ذكرهم للمدح من غير أمر ولا نهي فهو موضع ذكرهم بالأخص للمدح من محمود صفاتهم، ومنه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ . . .﴾ الآيات [الفتح: ٢٩]، فذكره ﷺ باسم

الرسالة، ومهما كان الأمر أو النهي عدل في الغالب إلى الأعم ومنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وقد بسط في التفسير، وبين أن ما ورد على خلاف هذا القانون فلسبب خاص استدعى العدول عن المطرد كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فوجه هذا أن قوله سبحانه: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] موقعه شديد، فعودل بذكره ﷺ باسم الرسالة لضرب من التلطف، فهو من باب: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وفيه بعض (غموض)[1]، وأيضاً فإنه لما قيل له: ﴿بَلِّغْ﴾ طابق هذا ذكره بالرسالة، فإن المبلغ رسول، والرسول مبلغ، ولا يلزم النبي أن يبلغ إلا أن يرسل.

وأما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] فأمره وإن كان نهياً أوضح من الأول، لأنه تسلية له ﷺ وتأنيس، وأمر بالصبر والرفق بنفسه، فبابه راجع إلى ما يرد مدحاً مجرداً عن الطلب، وعلى ما أشير إليه يخرج ما ورد من هذا.

ولما افتتحت هذه السورة بما حاصله ما قدمناه من إعلامه ﷺ من هذا الأمر بعليّ حاله وتنزيه قدره، ناسب ذلك ما احتوت عليه السورة من باب التنزيه في مواضع، منها: إعلامه تعالى بأن أزواج نبيه أمهات المؤمنين، فنزَّههن عن أن يكون حكمهن حكم غيرهن من النساء، مزية لهن وتخصيصاً، وإجلالاً لنبيه ﷺ، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ ...﴾ الآية [الأحزاب: ٢٢] فنزههم عن طُرُوِّ شكّ أو دخول ارتياب على صون معتقداتهم وجليل إيمانهم: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، والآية بعد ذلك هي قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ ...﴾ الآية [الأحزاب: ٢٣]، ومنها: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ

---

(١) في ن١: تعرض، لعلها تعريض.

﴿ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فنزههن تعالى وبيَّن شرفهن على من عداهن، ومنها تنزيه أهل البيت وتكريمهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٣]، ومنها الأمر بالحجاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحـزاب: ٥٩]، فنزه المؤمنات عن حالة الجاهلية والتبرج وعدم الحجاب، وصانهن عن التبذل والامتهان، ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ [الأحزاب: ٦٩] فوقاهم جل وتعالى ونزههم بما نهاهم عنه أن يتشبهوا بمن استحق اللعن والغضب في سوء أدبهم وعظيم مرتكبهم، إلى ما تضمنت السورة من هذا القبيل.

ثم أتبع سبحانه ما تقدم بالبشارة العامة واللطف الشامل كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، ثم قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣]، إلى قوله: ﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ . . .﴾ الآية [الأحزاب: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ . . .﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى قوله: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]، وقوله: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ [الأحزاب: ٧٣]، وقوله سبحانه مُثنياً على المؤمنين بوفائهم وصدقهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾ [الأحزاب: ٢٢] إلى قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقوله سبحانه تعظيماً لحرمة نبيه والمؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧] إلى قوله: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

(وفي)[1] هذه الآيات من تأنيس المؤمنين وبشارتهم وتعظيم حرمتهم ما

---

(١) في ن٢: وهي.

يكسر سَوْرة الخوف الحاصل في سورتي لقمان والسجدة، ويسكن روعهم تأنيساً لا رفعاً.

ومن هذا القبيل ما تضمنت السورة أيضاً من تعداد نعمه عليهم وتحسين خلاصهم كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [الأحزاب: ٩] إلى قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ١١]، وقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وخَتْم السورة بذكر التوبة والمغفرة والرحمة أوضح شاهد لما تمهد من جليل قصدها وبنائها على ما وضح، والحمد لله.

ولما كان حاصلها رحمة ولطفاً ونعمة، لا يقدر عظيم قدرها، وينقطع العالم دون الوفاء بشكرها، أعقبت بما ينبغي من الحمد.

سورة سبأ

افتتحت بالحمد لله تعالى، لما أعقب بها ما انطوت عليه سورة الأحزاب من عظيم تلك الآلاء وجليل النعماء حسبما بيِّن آنفاً، فكان مظنة الحمد على ما منح عباده المؤمنين وأعطاهم فقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ١] ملكاً واختراعاً، وقد أشار هذا إلى إرغام من توقف منقطعاً عن فهم تصرفه سبحانه في عباده بما تقدم، وتفريقهم بحسب ما شاء، فكأن قد قيل: إذا كانوا له ملكاً وعبيداً فلا يتوقف في فعله بهم ما فعل من التيسير للحسنى أو لغير ذلك مما شاءه بهم على فهم عِلّيّة (أو استطلاع)[1] سبب، بل يفعل فيهم ما شاء وأراد من غير حجر ولا منع، وهو الحكيم الخبير بوجوه الحكمة في ذلك التي خفيت عنهم.

وأشار قوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [سبأ: ١] إلى أنه سيُطلع عباده

---

(١) في ن٢: استطاع.

المؤمنين من موجبات حمده بما يمنحهم ويضاعف لهم من الجزاء وعظيم الثواب في الآخرة على ما لم تبلغه عقولهم في الدنيا ولا وفت به أفكارهم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

ثم أتبع سبحانه ما تقدم من حمده على ما هو أهله ببسط شواهد حكمته وعلمه، فقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [سبأ: ٢] إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢]، فبرحمته وغفرانه أنال عباده المؤمنين ما خصهم به وأعطاهم، فله الحمد الذي هو أهله.

ثم أتبع هذا بذكر إمهاله من كذّب وكفر مع عظيم اجترامهم لتبين سعة رحمته ومغفرته، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩] أي: إن في إمهاله سبحانه لهؤلاء بعد عتوهم واستهزائهم في قولهم: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣]، وقولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]، وإغضائهم عن الاعتبار بما بين أيديهم من السماء والأرض، وأمنهم أخذهم من أي الجهات شاء، ففي إمهالهم وإدرار أرزاقهم مع عظيم مرتكبهم آيات لمن أناب واعتبر.

ثم بسط لعباده المؤمنين من ذكر آلائه ونعمه وتصريفه في مخلوقاته ما يوضح استيلاء قهره وملكه، ويشير إلى عظيم ملكه، كما أعلم في قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١]، فقال سبحانه: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: ١٠]، ثم قال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ [سبأ: ١٢] إلى قوله: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، ثم أتبع ذلك بذكر حال من لم يشكر، فذكر قصة سبإ إلى آخرها، ثم وبخ تعالى من عبد غيره معه بعد وضوح الأمر وبيانه، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٢٢] إلى وصفه حالهم الأخروي ومراجعة متكبريهم ضعفاءهم، وضعفائهم متكبريهم. ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣٣]، ثم التحمت الآي جارية على ما تقدم من لدن افتتاح السورة إلى ختمها.

سورة فاطر

لما أوضحت سورة سبأ أنه سبحانه مالك السماوات والأرض، ومستحق الحمد في الدنيا والآخرة، أوضحت هذه السورة أن ذلك خلقه كما هو ملكه، وأنه الأهل للحمد والمستحق، إذ الكل ملكه وخلقه، وكأن السورة الأولى تجردت لتعريف العباد بأن الكل ملكه، ولذلك دارت آيها على تعريف عظيم ملكه.

فقد أعطى داود وسليمان عليهما السلام ما هو النقطة من (البحار)، فلَانَ الحديد، وانقادت الرياح والوحوش والطير والجن والإنس مذللة خاضعة، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢]، تعالى ربنا عن الظهير والشريك والنّدّ، وتقدس ملكه عن أن تحصره العقول أو تحيط به الأفهام، فتجردت سورة سبإ لتعريف العباد بعظيم ملكه سبحانه، وتجردت هذه الأخرى للتعريف بالاختراع والخلق.

ويشهد لهذا استمرار آي سورة فاطر على هذا الغرض من التعريف، وتنبيهها على الابتداءات كقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ ...﴾ الآية [فاطر: ١]، وقوله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر: ٣]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ...﴾ [فاطر: ٨] الآية، وقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ...﴾ [فاطر: ٩] الآية، وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، فهذه عدة آيات معرفة بابتداء الخلق والاختراع، أو مشيرة، ولم يقع من ذلك في سورة سبأ آية واحدة. (ثم)[1] إن سورة سبأ جرت آيها على نهج تعريف الملك والتصرف فيه والاستبداد بذلك والانفراد به.

---

(١) في ن١: كما.

وتأمّل افتتاحها وقصة داود وسليمان وقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ...﴾ الآية [سبأ: ٢٢] يتضح لك ما أوردناه، وما انجر في السورتين مما ظاهره الخروج عن هذين الغرضين فملتحم ومُستدعى بحكم الانجرار وبحسب استدعاء مقاصد الآي، رزقنا الله الفهمَ عنه بمنّه (وكرمه)[1].

سورة يس

لما أوضحت سورة سبأ وسورة فاطر من عظيم ملكه تعالى وانفراده بالملك والخلق والاختراع ما تنقطع العقول دون (تصور)[2] أدناه، ولا تحيط من ذلك إلا بما شاءه، وأشارت من البراهين والآيات إلى ما يرفع الشكوك ويوضح السلوك، مما كانت الأفكار قد خمدت عن إدراكها واستولت عليها الغفلة، فكأن قد جمدت عن معهود حراكها، ذكّر سبحانه بنعمة التحريك إلى اعتبارها بثنائه على من اختاره لبيان تلك الآيات واصطفاه لإيضاح تلك البينات فقال تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤﴾ [يسٓ: ١ ـ ٤]، ثم قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يسٓ: ٦]، فأشار سبحانه إلى ما تثمره نعمة الاعتبار ويعقبه التيقظ بالتذكار، ثم ذكر علّة من عمي بعد تحريكه، أو ذلك مسبب عن الطبع وشر السابقة: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ ...﴾ الآيات [يسٓ: ٧].

ثم أشار بعد إلى أن بعض من عمي عن عظيم تلك البراهين لأول وهلة قد يهتز عند تحريكه لسابق سعادته، فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [يسٓ: ١٢]، فكذا نفعل بهؤلاء إذا شئنا هدايتهم، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ثم ذكر دأب المعاندين وسبيل المكذبين مع بيان الأمر فقال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ ...﴾ الآيات [يسٓ: ١٣]، وأتبع ذلك سبحانه بما أودع في الوجود من الدلائل الواضحة والبراهين، فقال تبارك وتعالى:

---

(١) سقط من ن٢.

(٢) في ن٢: تطور.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ . . .﴾ الآية [يس: ٣١]، ثم قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣] إلى قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥]، ثم قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يسٓ: ٣٧] إلى قوله: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، [يسٓ: ٤٠]، ثم قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ . . .﴾ [يسٓ: ٤١] إلى قوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يسٓ: ٤٤].

ثم ذكر إعراضهم مع عظيم هذه البراهين، وتكذيبهم، وسوء حالهم عند بعثهم، وندمهم، وتوبيخهم، وشهادة أعضائهم بأعمالهم، ثم تناسجت الآي جارية على ما يلائم ما تقدم إلى آخر السورة.

سورة الصافات

لما تضمنت سورة يسٓ من جليل التنبيه وعظيم الإرشاد ما يهتدي به الموفق باعتبار بعضه، ويشتغل المعتبر به في تحصيل مطلوبه وغرضه، ويشهد بأن الملك إنما هو لواحد رغم أنف المعاند والجاحد، أتبعها تعالى بالقسم على وحدانيته فقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ [الصافات: ١ ـ ٥]، ثم عاد الكلام إلى التنبيه، بعجيب مصنوعاته فقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات: ٦] إلى قوله: ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]، ثم أتبع بذكر عناد من جحد مع بيان الأمر ووضوحه وضعف ما خلقوا منه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، ثم ذكر استبعادهم العودة الأخراوية وعظيم حيرتهم وندمهم إذا شاهدوا ما به كذبوا، والتحمت الآي إلى ذكر الرسل مع أممهم، وجريهم في العناد والتوقف والتكذيب على سَنَن متقارب، وأخذ كل بذنبه، وتخليص رسل الله وحزبه، وإبقاء جميل ذكرهم باصطفائه وقربه. ثم عاد الكلام إلى تعنيف المشركين وبيان إفك (المعاندين)[1] إلى ختم السورة.

---

(١) في ن٢: المعتدين.

سورة ص

لما ذكر تعالى حال الأمم السالفة مع أنبيائهم في العتوّ والتكذيب، وأن ذلك أعقبهم الأخذ الوبيل (الويل)[1] الطويل، كان هذا مظنة لذكر حال مشركي العرب وبيان سوء مرتكبهم، وأنهم قد سبقوا إلى ذلك الارتكاب، فحل بالمعاند سوء العذاب، فبسط حال هؤلاء وسوء مقالتهم ليعلمَ أنه لا فرق بينهم وبين مكذبي الأمم السالفة في استحقاق العذاب وسوء الانقلاب، وقد وقع التصريح بذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ [صٓ: ١٢] إلى قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: ١٤].

ولما أعقب سبحانه هذا بذكر استعجالهم العذاب في قولهم: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] أتبع ذلك بأمر نبيه ﷺ بالصبر فقال: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [صٓ: ١٧]، ثم تأنيسه بذكر الأنبياء وحال المقربين الأصفياء: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

سورة الزمر

لما بُنيت سورة صٓ على ذكر (حال)[2] المشركين وعنادهم، وسوء ارتكابهم واتخاذهم الأنداد والشركاء، ناسب ذلك ما افتتحت به سورة الزمر من الأمر بالإخلاص الذي هو نقيض حال من تقدم، وذكر ما عنه يكون، وهو الكتاب، فقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ١ ـ ٢]، وجاء قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ . . .﴾ الآية [الزمر: ٣] في معرض أن لو قيل: عليك بالإخلاص ودع من أشرك ولم يخلص فسترى حاله، وهل ينفعهم اعتذارهم بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وهؤلاء هم الذين بنيت سورة صٓ على ذكرهم، ثم وبخهم تعالى وقرَّعهم

---

(١) سقط من ن٢.

(٢) سقط من ن٢.

فقال: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . . .﴾ الآية [الزمر: ٤] فنزه نفسه عن عظيم مرتكبهم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، ثم ذكَّرهم بما فيه أعظم شاهد من خلق السماوات والأرض، وتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، وذكر آيتي النهار والليل، ثم خلق الكل من البشر من نفس واحدة وهي نفس آدم ﷺ.

ولما حرك تعالى إلى الاعتبار بعظيم هذه الآيات، وكانت أوضح شيء وأدل شاهد، وأعقب ذلك بما يشير إلى معنى التعجب من توقفهم بعد هذا البيان، وذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦] أي: العجب من أمركم بعد وضوح الدلائل، ثم بين أنه غنيّ عن الكل بقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧] ثم قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، فبين أن من اصطفاه وقرَّبه واجتباه من العباد لا يرضى له الكفر، وحصل من ذلك بمفهوم الكلام أن الواقع من الكفر إنما وقع بإرادته ورضاه لمن ابتلاه به.

ثم آنس من آمن ولم يتبع سبيل أبيه وقبيلته من المشار إليه في السورة قبل، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧]، ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ثم تناسجت الآية والتحمت الجمل إلى خاتمة السورة.

سورة المؤمن[(١)]

لما افتتح سورة الزمر (بالأمر)[(٢)] بالإخلاص وذكر سببه، والحامل بإذن الله عليه وهو الكتاب، وأعقب ذلك بالتعريض بذكر من بنيت على قصصهم سورة صٓ، وتتابعت الآي في ذلك الغرض إلى توبيخهم بما ضربه سبحانه من المثل الموضح فيه قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، ووصف الشركاء بالمشاكسة إذ بذلك الغرض

---

(١) في ن١: المؤمنين، وهو خطأ.
(٢) بهامش ن٢.

يتضح عدم استمرار (مراد)[1] لأحدهم، وذكر قبح اعتذارهم بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ثم أعقب تعالى بالإعلام بقهره وعزته حتى لا يتخيل مخذول شذوذ أمر عن يده وقهره، فقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧].

ثم أتبع ذلك بحال أندادهم في أنها لا تضر ولا تنفع، فقال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨]، ثم أتبع هذا بما يناسبه من شواهد عزته فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٦]، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر: ٥٢]، ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، ثم عنفهم وقرعهم بجهلهم فقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٦٤]، ثم قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، ثم أتبع تعالى بذكر آثار العزة والقهر، فذكر النفخ في الصور للصعق، ثم نفخة القيام والعرض والجزاء، ومصير الفريقين، فتبارك المنفرد بالعزة والقهر.

فلما انطوت هذه الآي من آثار عزته وقهره على ما أشير إلى بعضه أعقب سبحانه بقوله: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر: ١، ٢]، فذكر من أسمائه سبحانه هذين الاسمين العظيمين تنبيهاً على انفراده بموجبهما، وأنه العزيز الحق القاهر لعلمه تعالى بأوجه الحكمة التي خفيت عن الخلق، فأخَّر الجزاء الحتم للدار الآخرة، وجعل الدنيا دار ابتلاء واختبار، مع قهر للكل في الدارين معاً، وكونهم غير خارجين عن ملكه وقهره.

ثم قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] تأنيساً لمن استجاب بحمده وأناب بلطفه، وجرياً على حكم سابقية الرحمة وتقليبها، ثم قال:

---

(١) في ن٢: مداد.

﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣] ليأخذ المؤمن بلازم عبوديته من الخوف والرجاء، واكتنف قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣] ليأخذ بقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]، وقوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، وأشار سبحانه بقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤] إلى قوله قبل: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٤]، وكأنه في معرض إذا كانت العاقبة لك ولأتباعك فلا عليك من تقلبهم في البلاد، ثم بيَّن تعالى أن حالهم في هذا كحال الأمم قبلهم، وجدالهم في الآيات كجدالهم، وأن ذلك لما حق عليهم من كلمة العذاب وسبق لهم في أم الكتاب، والله أعلم.

سورة حم السجدة[1]

لمَّا تضمنت سورة غافر بيان حال المعاندين وجاحدي الآيات، وأن ذلك ثمرة تكذيبهم وجدالهم، وكان بناء السورة على هذا الغرض بدليل افتتاحها وختمها (بذلك)[2]، ألا ترى قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [غافر: ٤]، وتأنيس نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، فقد تقدم ذلك من غيرهم فأعقبهم سوء العاقبة والأخذ الوبيل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ﴾ [غافر: ٥] فعصمتهم واقية ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ثم قال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]، أي: فكيف رأيت ما حل بهم وقد بلغك خبرهم؟ فهلّا اعتبر هؤلاء بهم؟ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١]، وإنما أخذهم بتكذيبهم بالآيات: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ [غافر: ٢٢].

ثم ذكر الله تعالى من حزب المكذبين فرعون وهامان وقارون، وبسط

---

(١) يريد سورة فصلت.

(٢) سقط من ن٢.

القصة تنبيهاً على سوء عاقبة من حاد، وجادل بالباطل، وكذب الآيات، ثم قال تعالى بعد آيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر: ٥٦] إذ الحول والقوة ليست لهم، فاستعذ بالله من شرهم، فخلق غيرهم لو استبصروا أعظم من خلقهم: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وهم غير آمنين من الأخذ من كلا الخلقين: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [سبأ: ٩]، ثم قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٦٩﴾ [غافر: ٦٩]، أي: إن أمرهم لعجب في صرفهم عن استيضاح الآيات بعد بيانها.

ثم ذكر تعالى سوء حالهم في العذاب الأخراوي وواهي أعذارهم بقولهم: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [غافر: ٧٤]، ثم صبّر تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ﴾ [غافر: ٧٧]، ثم أعاد تنبيههم فقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [غافر: ٨٢] إلى ختم السورة، ولم يقع من هذا التنبيه ـ الذي دارت عليه آي هذه السورة ـ في سورة الزمر شيء ولا من تكرار التحذير من تكذيب الآيات، فلما بنيت على هذا الغرض أعقبت بذكر الآية العظيمة التي تُحديت بها العرب، وقامت بها حجة الله سبحانه على الخلق، وكأن قد قيل لهم: احذروا ما قدم لكم، فقد جاءكم محمد ﷺ بأوضح آية وأعظم برهان: ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [فصلت: ٢، ٤].

وتضمنت هذه السورة العظيمة من بيان عظيم الكتاب وجلالة قدره وكبير الرحمة به ما لا يوجد في غيرها من أقرانها، كما أنها في الفصاحة تبهر العقول بأول وهلة، ولا يمكن للعربي الفصيح في شاهد برهانها أدنى توقف، ولا يجول في وهمه إلى معارضة بعض آيها (أدنى)[1] تشوف: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ

(١) في ن٢: إذ ما.

وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]، فوبخهم تعالى، وأدحض حجتهم، وأرغم باطلهم، وبكّت دعاويهم، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقرعهم تعالى في ركيك جوابهم عن واضح حجته بقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، وهذه شهادة منهم على أنفسهم بالانقطاع عن معارضته، وتسجيلهم بقوة عارضته، ثم فضحهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ . . .﴾ الآية [فصلت: ٥٢].

وتضمنت السورة مع هذا بيان هلاك من عاند وكذب ممن كان قبلهم وأشد قوة منهم، وهم الذين قدم ذكرهم مجملاً في سورة غافر في آيتي: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ [غافر: ٢١]، و﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ [غافر: ٨٢]، فقال تعالى مفصلاً لبعض ذلك الإجمال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: ١٣]، ثم قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ثم قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا . . .﴾ الآية [فصلت: ١٦]، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ [فصلت: ١٧]، فبين تعالى حالهم وأخذهم. فاعتضد التحام السورتين واتصال المقصدين، والله أعلم.

سورة الشورى

لما ضمنت سورة غافر ما تقدم من بيان حال المعاندين والجاحدين، وأعقب بسورة السجدة بياناً أن حال كفار العرب في ذلك كحال من تقدمهم، وإيضاحاً لآية الكتاب العزيز وعظيم برهانه، ومع ذلك فلم يجد على من قضى عليه تعالى بالكفر، أتبعت السورتان بما اشتملت عليه سورة الشورى من أن ذلك كله إنما جرى على ما سبق في علمه تعالى بحكم المشيئة الأزلية: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الشورى: ٨]، ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾

[الشورى: ١٤]، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٣١]، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦]، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فتأمَّلْ هذه الآي وما التحم بها مما لم يجر في السور المتقدمة منه إلا النادر، (وبحكم ما استجره وبناء هذه السورة على ذلك ومدار آيها، يَلُحْ لك وجه اتصالها بما قبلها والتحامها بما جاورها.

ولما ختمت سورة السجدة بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ [فصلت: ٥٤] أعقبها سبحانه بتنزيهه وتعاليه عن ريبهم وشكهم، فقال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى: ٥]، كما أعقب بمثله في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم: ٨٨، ٨٩] فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠]، ولما تكرر في سورة حمٓ السجدة ذكر تكبر المشركين وبعد انقيادهم في قوله: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ [فصلت: ٤]، ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]، إلى ما ذكر تعالى من حالهم المنبئة عن بعد استجابتهم، قال تعالى في سورة الشورى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

سورة الزخرف

لمَّا أخبر سبحانه بامتحان خلفِ بني إسرائيل في شكهم في كتابهم بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤]، ووصى نبيه ﷺ وسلم بالتبري من سيئ حالهم، والتنزه عن سوء محالهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ...﴾ الآية [الشورى: ١٥]، وتكرر الثناء على الكتاب العزيز كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى: ٧]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] إلى آخر السورة، أعقب ذلك بالقسم به، وعضد الثناء عليه فقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾

وَالْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ١ ـ ٤].

ولما أوضح عظيم حال الكتاب وجليل نعمته به، أردف ذلك بذكر سعة عفوه، وجميل إحسانه إلى عباده، ورحمتهم بكتابه، مع إسرافهم وقبح مرتكبهم، قال: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ [الزخرف: ٥].

ولما قدم تعالى في الشورى قوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠]، فأعلم أن ذلك إنما يكون بقدرته وإرادته، والجاري على هذا أن يسلم الواقع من ذلك ويرضى بما قسم واختار، عنف تعالى في هذه السورة الأخرى من اعتدى وزاغ فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾ [الزخرف: ١٧]، فكمل الواقع هناك بما تعلق به، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقوله في الزخرف: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ . . .﴾ الآية [الزخرف: ٣٣].

سورة الدخان

لما تضمنت سورة حمٓ السجدة وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما قد أشير إليه، مما لم تنطو سورة غافر على شيء منه، وحصل من مجموع ذلك الإعلام بتنزيله من عند الله وتفصيله، وكونه قرآناً عربياً، إلى ما ذكر تعالى من خصائصه إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤]، وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة، استفتح تعالى سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض، وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ﴾ [الدخان: ٣]، ثم ذكر فضلها فقال: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٤]، فحصل وصف الكتاب

بخصائصه، والتعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا، وتقدم الأهم من ذلك في السورتين قبل، وتأخر التعريف بوقت نزوله، إذ ليس في التأكيد كالمتقدم.

ثم وقع إثر هذا تفصيل وعيد قد أجمل في قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف: ٨٩]، وما تقدمه من قوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الزخرف: ٧٩]، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم . . .﴾ الآية [الزخرف: ٨٠]، وتنزيهه تعالى نفسه عن عظيم افترائهم في جعلهم الولد، إلى آخر السورة، ففصل بعض ما أجملته هذه الآي في قوله في صدر سورة الدّخان: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [الدخان: ١٠]، وقوله ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [الدخان: ١٦]، والإشارة إلى يوم بدر، ثم ذكر شأن غيرهم في هذا وهلاكهم بسوء ما ارتكبوه ليشعروا أن لا فارق إن هم عقلوا واعتبروا، ثم عرَّض بفرعونهم[1] في مقالته: ما بين لابتيها[2] أعز مني ولا أكرم، فذكر تعالى شجرة الزقوم إلى قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، والتحم هذا كله التحاماً يبهر العقول.

ثم أتبع بذكر حال المتقين جرياً على المطرد من شفع آي الترهيب بالترغيب، ليبين حال الفريقين وينتهج علم الواضح من الطريقين، ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان: ٥٨]، وقد أخبره مع بيان الأمر ووضوحه أنه يتذكر من يخشى، ثم قال: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الدخان: ٥٩].

سورة الشريعة[3]

لما تضمنت السور الثلاث المتقدمة إيضاح أمر الكتاب، وعظيم بيانه، وأنه شاف كاف، وهدى ونور، وكان أمر من كفر به من العرب أعجب[4]

---

(١) هو أبو جهل عدوّ الله. انظر: أسباب النزول للواحدي: ٢٦٨.

(٢) اللّابة: الحرّة من الأرض، جمع لابات. وفي أسباب النزول للواحدي: «بين جبليها»: ٢٦٨.

(٣) يريد سورة الجاثية.

(٤) في ن٢: أعظم.

شيء لانقطاعهم وعجزهم وقيام الحجة به عليهم، حتى رضوا بالقتل والخزي في العاجل، وما فاهوا بادعاء معارضة، ولا تشرفوا إلى الاستناد إلى عظيم تلك المعارضة، أتبع ذلك تعالى بتنبيه نبيِّه والمؤمنين إلى ما قد نصبه من الدلائل سواء، مما سد المعرض عن الاعتبار بها أو ببعضها مجرد هواه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، فقال تعالى بعد القسم بالكتاب المبين: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الجاثية: ٣]، أي لو لم تجئهم يا محمد بعظيم آية الكتاب فقد كان لهم فيما نصبنا من الأدلة أعظم برهان وأوضح تبيان: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨]، فلما نبه بخلق السماوات والأرض أتبع بذكر ما بث في الأرض فقال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]، ثم قال: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الجاثية: ٥] أي في دخول أحدهما على الآخر بألطف اتصال وأربط انفصال ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠].

ثم نبه على الاعتبار بإنزال الماء من السماء، وسماه رزقاً لحظاً لغايته، فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥]، ثم قال: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]، والاستدلال بهذه الآي يستدعي بسطاً يطول، ثم قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٦] أي: علاماته ودلائله، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، (وفي كل شيء له آية ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٦])[1]، ثم قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، بعد ما شاهدوه من شاهد الكتاب وما تضمنه خلق السماوات والأرض وما فيهما، وما لا ينتهي من عجائب الدلائل الواضحة لأولي الألباب، فإذا لم يعتبروا بشيء من ذلك فبماذا يعتبرون؟

ثم أردف تعالى بتقريعهم وتوبيخهم في تصميمهم مع وضوح الأمر فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ ...﴾ [الجاثية: ٧] الآيات الثلاث [الجاثية: ٧ ـ ٩]، ثم قال: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ [الجاثية: ١١]، وأشار إلى الكتاب، وجعله نفس الهدى

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ن٢.

لتحمله كل أسباب الهدى وجميع جهاته، وتوعد من كفر به. ثم أردف ذلك بذكر نعمه وآلائه ليكون ذلك زائداً في توبيخهم، والتحمت الآي عاضدة هذا الغرض تقريعاً وتوبيخاً ووعيداً وتهديداً إلى آخر السورة.

سورة الأحقاف

لما قدم ذكر الكتاب وعظيم الرحمة (به)[1] وجليل بيانه، وأردف ذلك بما تضمنته سورة الشريعة من توبيخ من كذب به وقطع تعلقهم، وأنه سبحانه قد نصب من دلائل السماوات والأرض، إلى ما ذكر في صدر السورة ما كل قسم منها كاف في الدلالة وقائم بالحجة، ومع ذلك فلم يُجْدِ عليهم إلا التمادي في ضلالهم، والانهماك في سوء حالهم وسيئ محالهم، أردف بسورة الأحقاف تسجيلاً لسوء مرتكبهم، وإعلاماً بأليم منقلبهم، فقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣]، ولو اعتبروا بعظيم ارتباط ذلك الخلق وإحكامه وإتقانه لعلموا أنه لم يوجد عبثاً، ولكنهم عموا عن الآيات وتنكبوا عن انتهاج الدلالات: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

ثم أخذ سبحانه في تعنيفهم وتقريعهم في عبادة ما لا ينفع ولا يضر، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٤] إلى قوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، ثم ذكر عنادهم عند سماع الآيات فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ . . .﴾ الآية [الأحقاف: ٧]، ثم التحم الكلام وتناسج إلى آخر السورة.

سورة القتال

لما انبنت سورة (الأحقاف)[2] على ما ذكر من مآل من كذب وكفر، وافتتحت السورة بإعراضهم، ختمت بما قد تكرر من تقريعهم وتوبيخهم، فقال

---

(١) سقط من ن٢.

(٢) بهامش ن٢.

تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣] أي: لو اعتبروا بالبدأة لتيسر عليهم أمر العودة، ثم ذكر عرضهم على النار إلى قوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. فلما ختم بذكر هلاكهم افتتح السورة الأخرى بعاجل ذلك اللاحق لهم في الدنيا، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ...﴾ [محمد: ٤] بعد ابتداء السورة بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ①﴾ [محمد: ١]، فنبه على أن أصل محنتهم إنما هو بما أراده تعالى بهم في سابق علمه ليعلم المؤمنون أن الهدى والضلال بيده، فنبه على الطرفين بقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١]، وبقوله في الطرف الآخر: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]، ثم بين تعالى أنه لو شاء لانتصر منهم[1]، ولكن أمر المؤمنين بقتالهم ابتلاء واختباراً، ثم حض المؤمنين على ما أمرهم به من ذلك فقال: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] ثم التحمت الآي.

سورة الفتح

ارتباط هذه السورة بالتي قبلها واضح من جهات، وقد يغمض بعضها، منها: أن سورة القتال لما أمروا فيها بقتال عدوهم في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، وأشعروا بالمعونة عند وقوع الصدق في قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، استدعى ذلك تشوق النفوس إلى حال العاقبة فعرفوا بذلك في هذه السورة فقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① ...﴾ الآيات [الفتح: ١]، فعرَّف تعالى نبيّه بعظيم صنعه له، وأتبع ذلك ببشارة المؤمنين العامة فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ...﴾ الآيات [الفتح: ٤]، والتحمت إلى التعريف بحال من نكث من مبايعته ﷺ، وحكم المخلفين، والحض على الجهاد، وبيان حال ذوي

---

(١) انتصر من عدوّه: انتقم منه.

الأعذار، وعظيم نعمته سبحانه على أهل بيعة الرضوان: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ١٨] وإثابتهم بالفتح وأخذ المغانم، وبشارتهم بفتح مكة: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧] إلى ما ذكره سبحانه من عظيم نعمه عليهم، وذكرهم في التوراة والإنجيل، إلى ما تضمنت هذه السورة الكريمة.

ووجه آخر وهو أنه لما قال تعالى في آخر سورة القتال: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد: ٣٥]، كان هذا إجمالاً في عظيم ما منحهم وجليل ما أعطاهم، فتضمنت سورة الفتح تفسير هذا الإجمال وبسطه، وهذا يستدعي من بسط الكلام ما لم نعتمده في هذا التعليق، وهو بعد مفهوم مما سبق من الإشارات في الوجه الأول.

ووجه آخر مما قد يغمض وهو أن قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] إشارة إلى من يدخل في دين الله وملة الإسلام من الفرس وغيرهم (ممن عدا العرب)[1] عند تولي العرب.

وقد أشار أيضاً إلى هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ...﴾ الآيات [المائدة: ٥٤]، وأشار إليه ﷺ بقوله: ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذا، وعقد السبابة بالإبهام[2]، أشار ﷺ إلى تولي العرب واستيلاء غيرهم الواقع في الآيتين، وإنما أشار ﷺ بقوله: «اليوم» إلى (التقديم)[3] وتأخر وقوع هذا الأمر إلى أيام أبي جعفر المنصور، فغلبت الفرس والأكراد وأهل جهات الصين، وصين الصين وهو ما يلي ياجوج وماجوج، وكان فتحاً وعزّاً وظهوراً لكلمة الإسلام، وغلب هؤلاء في الخطط والتدبير الإماري، وسادوا غيرهم، ولهذا جعل ﷺ مجيئهم فتحاً فقال: ـ فتح اليوم ـ ولو أراد غير هذا لم يعبر بفتح، ألا ترى قول عمر لحذيفة في حديث الفتن حين قال له حذيفة: إن بينك وبينها باباً مغلقاً، فقال عمر: أيفتح ذلك

---

(١) سقط من ن٢.

(٢) البخاري فتن: ٤.

(٣) في ن١: التقدير.

الباب أم يكسر؟ فقال: بل يكسر، ففرق بين الفتح والكسر، وإنما أشار إلى قتل عمر، فكذا قال ﷺ هنا، فتح. وقال: من ردم ياجوج وماجوج، وأراد من نحوهم وجهتهم وأقاليمهم، فإن الفرس ومن أتى معهم هم من أجلّ تلك الجهات التي تلي الردم، فعلى تمهيد هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، إشارة إلى غلبة من ذكرنا وانتشارهم في الولايات والخطط الدينية والمناصب العلمية.

ولما كان هذا قبل أن يوضح أمره يوضح نقصاً وحطاً، بيَّن تعالى أنه تجديد فتح وإعزاز منه تعالى لكلمة الإسلام، فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ ...﴾ الآيات [الفتح: ١]، ذكر القاضي أبو بكر بن العربي[١] في تخليص التلخيص[٢] علماء المالكية مشيراً إلى تفاوت درجاتهم، ثم قال: وأمضاهم في النظر عزيمة، وأقواهم فيه شكيمة أهل خراسان العجم أنساباً وبلداناً، العرب عقائد وإيماناً، الذين تنجز فيهم وعد الصادق المصدوق، وملكهم الله مقاليد التحقيق، حين أعرضت العرب عن العلوم وتولت عنها، وأقبلت على الدنيا واستوثقت منها. قال أصحاب رسول الله ﷺ: من هؤلاء الذين قال فيهم: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]؟ فأشار ﷺ إلى سلمان[٣] وقال: لو كان الإيمان في الثريا لناله رجال من هؤلاء[٤][٥].

سورة الحجرات

لما وصف سبحانه عباده المصطفين (لصحبة)[٦] نبيِّه والمخصوصين بفضيلة مشاهدته وكريم عشرته فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فأثنى سبحانه عليهم (وزكَّاهم)[٧]، وذكر

---

(١) القاضي أبو بكر بن العربي: تقدمت ترجمته: ص٦٦.

(٢) تخليص التلخيص: يذكر البغدادي في الإيضاح ٣١٨/١ أن لابن العربي كتاب التلخيص ولعل هذا تخليص له.

(٣) سلمان: المراد بذلك سلمان الفارسي الصحابي ﷺ.

(٤) بخاري: تفسير سورة ٦٢.

(٥) ما بين القوسين ساقط من ن١.

(٦) في ن٢: الصحابة.

(٧) سقط من ن٢.

وصفه تعالى لهم بذلك في التوراة والإنجيل، هذه خصيصة انفردوا بمزية تكريمها، وجرت على واضح مقتضى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وشهدت لهم بعظيم المنزلة لديه، ناسب هذا طلبهم (بتوفية)[1] الشعب الإيمانية، والجري قولاً وعملاً ظاهراً وباطناً على أوضح عمل وأخلص نية، وتنزيههم عما وقع ممن قبلهم في مخاطبات أنبيائهم، كقول بني إسرائيل: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، إلى ما شهد من هذا الضرب بسوء حالهم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . .﴾ الآية [الحجرات: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الحجرات: ٢] إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٥]، فطولبوا (بآداب)[2] تناسب عليّ إيمانهم، وإن اغتفر بعضه لغيرهم ممن ليس من درجتهم، وقد قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وكأن قد قيل لهم: لا تغفلوا (ما منحكم من ذكركم)[3] في التوراة والإنجيل فإنها درجة لم ينلها غيركم من الأمم، فقابلوها بتنزيه أعمالكم عن أن يتوهم في ظواهرها أنها صدرت عن عدم اكتراث في الخطاب أو سوء قصد في الجواب، وطابقوا بين بواطنكم وظواهركم، وليكن علنكم منبئاً بسليم سرائركم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣]، ثم عرّفوا سوء حال من عدل به عن هذه الصفة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ٤]، ثم أمروا بالتثبت عند نزغة شيطان أو لقول ذي بهتان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ . . .﴾ الآية [الحجرات: ٦]، ثم أمرهم تعالى بصلاح ذات بينهم والتعاون في ذلك بقتال الباغين إلى الفتنة، وتحسين العشرة، والتزام ما يثمر الحب والتودد الإيمانيّ والتواضع، وإنّ الخير كله في التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وكل ذلك مجذر لعليّ صفاتهم التي وصفوا بها في خاتمة سورة الفتح[4].

---

(١) في ن١: بتوقيفه.

(٢) في ن١: آيات.

(٣) في ن٢: ما منع بكم.

(٤) ما بين القوسين ساقط من ن١.

سورة ق

لما كانت سورة الحجرات قد انطوت على جملة من الألطاف التي خص تعالى بها عباده المؤمنين، كذكره تعالى أخوتهم، وأمرهم بالتثبت عند غائلة معتد فاسق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ الآية [الحجرات: ٦]، وأمرهم بغض الأصواتِ عند نبيهم، وأن لا يقدِّموا بين يديه، وأن لا يعاملوه في الجهر بالقول كمعاملة بعضهم بعضاً، وأمرهم باجتناب كثير من الظن، ونهيهم عن التجسس والغيبة، وأمرهم بالتواضع في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]، وأخبرهم تعالى أن استجابتهم (في الإيمان)[1] وامتثال هذه الأوامر ليست بحولهم ولكن بفضله وإنعامه، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾. . . الآيتين [الحجرات: ٧]، ثم أعقب تعالى بقوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ . . .﴾ الآية [الحجرات: ١٧]، ليبين أن ذلك كله بيده ومن عنده، أراهم سبحانه حال من قضى عليه بالكفر ولم يحبب إليه الإيمان ولا زينه في قلبه بل جعله في طرف من حال من أمر ونهي في سورة الحجرات مع المساواة في الخلق وتماثل الأدوات، فقال تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ الآيات [ق: ١ ـ ٢]، ثم ذكر سبحانه وضوح الأدلة: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ . . .﴾ الآيات [ق: ٦]، ثم ذكر حال غيرهم ممن كان على رأيهم: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ [ق: ١٢]، ليتذكر بمجموع هذا من قُدّم ذكر حاله وأمره ونهيه في سورة الحجرات، وليتأدب المؤمن بآداب الله، ويعلم أن ما أصابه من الخير فإنما هو من فضل ربه وإحسانه، ثم التحمت الآي إلى قوله في خاتمة السورة: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق: ٤٥].

---

(١) سقط من ن٢.

سورة الذاريات

لما ذكر سبحانه المواعد الأخراوية في سورة قٓ وعظيم تلك الأحوال من لدن قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ...﴾ [قٓ: ١٩] إلى آخر السورة أتبع سبحانه ذلك بالقسم على صحة وقوعه وصدقه فقال: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ [الذاريات: ١] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝﴾ [الذاريات: ٥، ٦]، والدين الجزاء، أي إنهم سيجازون على ما كان منهم ويوفون قسط أعمالهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ولما أقسم تعالى على صدق وعيده ووقوع الجزاء، أعقب ذلك بتكذيبهم بالجزاء وازدرائهم فقال: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢]، ثم ذكر حال الفريقين وانتهاء الطريقين إلى قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، فوبخ تعالى من لم يعمل فكره ولا بسط نظره فيما أودع سبحانه في العالم من العجائب، وأعقب بذكر إشارات إلى أحوال الأمم وما أعقبهم تكذيبهم، وكل هذا تنبيه لبسط النظر إلى قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

ثم آنس نبيّه ﷺ بقوله: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] أي: إن هذا دأبهم وعادتهم، حتى كأنهم تعاهدوا عليه وألقاه بعضهم إلى بعض، قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ [الذاريات: ٥٣]، أي عجباً لهم في جريهم في التكذيب والعناد في مضمار واحد، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣] أي إن علة تكذيبهم هي التي اتحدت، فاتحد معلُوها، والعلة طغيانهم وإظلام قلوبهم بما سبق (لهم)[1]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].

ثم زاد نبيه ﷺ تأنيساً بما وُرد على طريقة تحذيره ﷺ في أمرهم من قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۝﴾ [الذاريات: ٥٤]، ثم أشار تعالى بقوله:

(١) سقط من ن٢.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]، إلى أن إحراز أمره ﷺ إنما هو في التذكار والدعاء إلى الله، ثم ينفع الله بذلك من سبقت له السعادة: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، ثم أخبر نبيه ﷺ بأن مكذبيه سينالهم قسط ونصيب مما نال غيرهم ممن ارتكب مرتكبهم وسلك مسلكهم، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ [الذاريات: ٥٩] إلى آخر السورة.

سورة الطور

لما توعد تعالى كفار قريش ومن كان على طريقهم من سائر من كذب رسول الله ﷺ (أنهم)[1] سيصيبهم ما أصاب غيرهم من مكذبي الأمم المنبإ على ذكرهم في السورة قبل، ثم أشار سبحانه إلى عظيم ما ينالهم من الخزي وأليم العذاب بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الذاريات: ٦٠]، أقسم سبحانه على صحة ذلك ووقوعه ـ والعياذ بالله سبحانه من سخطه وأليم عذابه ـ، فقال تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور: ١] إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور: ٧، ٨].

ثم أومأ سبحانه إلى مستحقيه ومستوجبيه فقال: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]، ثم ذكر ما يعنفون به ويوبخون على ما سلف منهم في نسبته ﷺ إلى السحر وتكذيبه، فقال تعالى: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور: ١٤، ١٥]، ثم أعقب بذكر حال المؤمنين المستجيبين، ثم ذكر إثر إعلامه بحال الفريقين نعمته على نبيه ﷺ وعصمته ووقايته مما يقوله المفترون، فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الطور: ٢٩].

ثم جرت الآي على توبيخهم في مقالاتهم ووهن انتقالاتهم، فمرة يقولون كاهن، ومرة يقولون مجنون، ومرة يقولون شاعر نتربص به ريب المنون، فوبخهم على ذلك كله، وبين كذبهم وزعمهم، وأسقط ما بأيديهم بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ

---

(١) سقط من ن١.

﴿مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٤]، وهذا هو المسقط لما تقوّلوه أولاً وآخراً، وهو الذي لم يجدوا عنه جواباً، ورضوا بالسيف والجلاء، ولم يتعرضوا لتعاطي معارضته، وهذا هو الوارد في قوله تعالى في صدر سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا . . .﴾ [البقرة: ٢٣] الآيات، فما نطقوا في جوابه ببنت شفة.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]، فتبارك من جعله آية باهرة وحجة قاهرة.

سورة النجم

لما قطع سبحانه تعلقهم بقولهم: ساحر وشاعر ومجنون، إلى ما هذوا به مما علموا أنه لا يقوم على ساق، ولكن شأن المنقطع المبهوت أن يستريح إلى كل ما أمكنه وإن لم يغن عنه، أعقب تعالى ذلك بقسمه على تنزيهه نبيه وصفيه من خلقه عما تقوّله ضعفاؤهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم: ١، ٢]، ثم أتبع سبحانه هذا القسم ببسط الحال في تقريبه ﷺ وادعائه، وتلقيه لما يتلقاه من ربه، وعظيم منزلته لديه، وفي أثناء ذلك يحركهم جل وتعالى ويذكرهم ويوبخهم على سوء مرتكباتهم بتلطف واستدعاء كريمٍ مُنْعِمٍ، فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]، والتحمت الآي على هذه الأغراض إلى الإعلام بانفراده سبحانه بالإيجاد والقهر والإعزاز والانتقام، لا يشاركه في شيء من ذلك غيره، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم: ٤٢، ٤٣].

ولما بين كل ذلك قال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥]، أي: في أيِّ نعمة تشكّون؟ أم بأي آية تكذبون؟ ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ [النجم: ٥٦]، وإذا كان ﷺ (نذيراً)[١] فشأن مكذبيه شأن مكذبي غيره.

---

(١) في ن١: كذلك.

سورة القمر

لما أعلمهم سبحانه بأنه إليه المنتهى، وأن عليه النشأة الأخرى، وإذ ذاك يقع إجزاء كل نفس بما أسلفت أعلمهم سبحانه بقرب ذلك وحسابه ليزدجر من وفقه للازدجار، فقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ①﴾، ثم إن سورة صٓ تضمنت من ذكر عناد المشركين وسوء حالهم وتوبيخهم في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع ما لا يكاد يوجد في غيرها مما تقدمها، وبعد التنبيه بالسور قبلها والتحريك بآيات لا يتوقف عنها إلا من أضله الله على علم وخذله.

وانبنت السور بعد على تمهيد ما تضمنته سورة صٓ، فلم تخل سورة منها من تقريعهم وتوبيخهم، كقوله في الزمر: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقولهم: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤]، وقولهم: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ⑭ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٤ ـ ١٥]، وقوله ممثلاً لحالهم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ...﴾ الآية [الزمر: ٢٩]، إلى ما بعد من التقريع والتوبيخ، وقوله في غافر: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ④﴾ [غافر: ٤]، وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ [غافر: ١٢]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ الآية [غافر: ٢١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ⑲ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ...﴾ الآيات [غافر: ٦٩ ـ ٧٠] إلى قوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧] وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢] إلى ما تخلل هذه الآي، وقوله في السجدة: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ [فصلت: ٤]، ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟﴾ [فصلت: ٢٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت: ٤٠] إلى قوله: ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾

[فصلت: ٤٤]، وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] إلى خاتمة السورة، وقوله في الشورى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]، ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ...﴾ [الشورى: ١٦]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ...﴾ الآية [الشورى: ٢١]، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله في الزخرف: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ ...﴾ الآية [الزخرف: ٥]، ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]، إلى ما تردد في هذه السورة مما قرعوا به أشد التقريع، وتكرر في آيات كثيرة فتأملها.

وقوله في الدّخان: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]، إلى قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، وقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]، إلى قوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٥٠].

وقوله في الشريعة[1]: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ...﴾ [الجاثية: ٦]، إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، إلى آخر السورة[2].

وقوله في الأحقاف: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، ومعظم آي هذه السورة لم يخرج عن هذا إلى خاتمتها، وكذا سورة القتال ولو لم تتضمن إلا الأمر بقتالهم وأسرهم وتعجيل خزيهم، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].

وأما سورة الفتح فما تضمنته من البشارة والفتح أشد على الكفار من كل ما قُرِّعوا به، فلم تخرج عن الغرض المتقدم.

وكذا سورة الحجرات لتضمنها من الأمر بتعزيز النبي ﷺ وإجلاله ما يقر عين المؤمن، ويقتل العدو والحاسد، وما فيها أيضاً من ائتلاف أمر المؤمنين

---

(١) يريد سورة الجاثية.

(٢) ما بين القوسين ساقط من ن١.

وجمع كلمتهم وتآخيهم، وموقع هذا من العدو بحيث لا يخفى على أحد.

وأما سورة قٓ والذاريات والنجم فما تضمنته مما ذكرناه قبل أوضح شيء، وبذلك افتتحت كل سورة منها، فتأمل مطالعها ففيها كفاية في الغرض.

فلما انتهى ما قصه من تقريع مكذبي رسول الله ﷺ، وبلغت الآي في هذه السور من ذلك أقصى غاية، وتمحض باطلهم، وانقطع دابرهم، ولم يجدوا جواباً، عرض سبحانه عليهم في سورة القمر أحوال الأمم مع أنبيائهم، وكأن القصد من ذلك ـ والله أعلم ـ مجرد التعريف بأنهم ذكروا فكذبوا فأخذوا، ليبين لهؤلاء أن لا فرق بينهم وبين غيرهم، وأن لا يغرهم عظيم حلمه سبحانه عنهم، فهذه السورة إعذار عند تبكيتهم وانقطاع حجتهم بما تقدم.

وبعد أن انتهى الأمر في وعظهم وتنبيههم بكل آية إلى غاية يعجز عنها البشر، ولهذا افتتح سبحانه هذه السورة بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر: ٤، ٥]، وختمها بقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]، وهذا يبين ما قدمناه، وكأن قد قيل لهم: أي فرق بينكم وبين من تقدم حتى ترتكبوا مرتكبكم وتظنوا أنكم ستفوزون بعظيم (جزائكم)[1]؟ فذكر سبحانه لهم قصة كل أمة وهلاكها عند تكذيبها بأعظم إيجاز، وأجزل إيراد، وأفعم عبارة، وألطف إشارة، فبدأ بقصة قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [القمر: ٩] إلى قوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦﴾ [القمر: ١٥، ١٦]، ثم استمر ذكر الأمم مع أنبيائهم حسبما ذكروا في السور الوارد فيها أخبارهم من ذكر أمة بعد أمة، إلا أن الواقع هنا من قصصهم أوقع في الزجر، وأبلغ بالوعظ، وأغرق في الإفصاح بسوء منقلبهم وعاقبة تكذيبهم.

ثم ختمت كل قصة بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر ١٦ و١٨ و٢١ و٣٠]، وتخلل هذه القصص قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠]، وهي إشارة إلى ارتفاع عذر من تعلق

---

(١) في ن٢: جُرائكم، وما أثبتناه أشبه.

باستصعاب الوقوف على زواجره وتنبيهاته ومواعظه، أو يدعي بُعد ذلك أو استغلاقه، فقيل له: إنه ميسر قريب المرام، وهذا فيما يحصل عنه التنبيه والتذكر لما عنه تكون الاستجابة بإذن الله، ووراء ذلك من المشكل والمتشابه ما لا يتوقف عليه ما ذكر، وحَسْبُ عموم المؤمنين الإيمان بجميعه والعمل بمحكمه، ثم يفتح الله فهم ذلك على من شرفه به وأعلى درجته، فيبين له بحسب ما يشرح الله صدره، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ومن تيسر المقصود المتقدم تكرار قصص الأنبياء مع أممهم في عدة سور، أيّ حُفظ منها أطلع على ما هو كاف في الاعتبار بهم، ثم إذا ضم ذلك بعضه إلى بعض اجتمع منه ما لم يكن ليحصل من بعض تلك السور، فسبحان من جعله حجة باهرة وبرهاناً قاطعاً على صدق الآتي به، وصراطاً مستقيماً ونوراً مبيناً.

ولما ذكر سبحانه عواقب الأمم في تكذيبهم قال لمشركي العرب: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]، ومن هذا النمط قول شعيب عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ ...﴾ الآية [هود: ٨٩]، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٤، ٤٥]، أي: إنكم إن تعلقتم بتآلفكم وجماعتكم فسأفرق ذلك بهزيمتكم يوم بدر وقتل صناديدكم، فما حجتكم بعد هذه؟

وقد أنبأ مساق القصص في هذه السورة واعتماد التعريف بحال من ذكر ممن كذبوا وعاندوا فأعقب تكذيبهم أخذهم وهلاكهم، ثم تعقيب هذا كله بصرف الكلام إلى مشركي العرب في قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]، ليس في شيء من السور المذكور فيها قصص الأمم على هذا الاستيفاء كالأعراف وهود ونظائرهما، ليس في شيء من ذلك تعقيب بذكر مشركي العرب على الصفة الواردة هنا، فأنبأ ذلك بكمال المقصود من الوعظ والتحريك بذكره ثُم انقضى هذا الغرض، وذلك أنهم ذكّروا أولاً بعرض أحوال الأمم والتعريف بما آل إليه أمرهم، وكان ذلك في صورة غرض من يريد تأديب طائفة ممن إليه نظرهم، قبل أن يظهر منهم تمرد أو عناد، فهو

يتلطف في دعائهم ولا يكلمهم تكليم الواجد، بل يفهم من كلامه الإشفاق والاستعطاف وإرادة الخير بهم، ثم يذكّرهم بذلك ويكرره عليهم المرة بعد المرة، وإن تخلل ذلك ما يتبين منه فظاعة التهديد وشدة الوعيد فلا يصحبه تعيين المخاطب وصرف الكلام بالكلية إليه، بل يكون ذلك على طريق التعريض (والتلويح)[1]، ثم لو كان لاغتفر بما قبله وما بعده من التلطف، حتى إذا تكررت الموعظة فلم تغن، فهنا محل الغضب وشدة الوعيد، وعلى هذا وردت السور المذكور فيها حال الأمم كسورة الأعراف وهود والمؤمنين والظلة[2]، والصافات، وما من سورة منها إلا والتي بعدها أشد في التعريف وأميل إلى الزجر والتعنيف، فتأمل تعقيب القصص في سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: ١٧٤]، وقوله بعد موعظة بالغة بذكر من حرمه بعد إشرافه على الفوز، وهو الذي أخلد إلى الأرض واتبع هواه فقال بعد ذلك: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وتذكيره إياهم بمحنة الغفلة، إلى ما ختمت به السورة، وذلك غير خاف في التلطف بالموعظة.

وقال بعد قصص سورة هود: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ ...﴾ الآية [هود: ١٠٢]، وقال بعد: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود: ١٠٩]، إلى قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]، وتكررت آي إلى آخر السورة تجاري ما ذكر، وكم بين هذه وآي الأعراف في تلطف الاستدعاء!

وقال في آخر قصص سورة المؤمنين: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، إلى قوله: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦]، ثم قال بعد: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [المؤمنون: ٦٣، ٦٤]، واستمرت الآي على شدة الوعيد يتلو بعضها بعضاً إلى قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقوله بعد: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وكم بين هذه والآي والواقعة عقب قصص سورة هود!.

---

(١) في ن٢: التوبيخ.

(٢) يريد سورة الشعراء.

وقال في آخر قصص الظلة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، إلى قوله في خاتمة السورة: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، فوبخهم وعنفهم ونزه نبيه ﷺ عن سوء توهمهم وعظيم إفكهم وافترائهم، وكل هذا تعنيف وزجر لم يتقدم لهم مثله في السورة المذكورة، ثم هو صريح في مشركي العرب معين لهم من غير تعريض ولا تلويح، ثم إنه وقع عقب كل قصة في هذه السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ [الشعراء: ٨ و٦٧ و١٠٣ و١٢١ و١٣٩ و١٥٨ و١٧٤ و١٩٠]، وفيه تهديد ووعيد بيّن.

وقال في آخر قصص والصافات: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٩ ـ ١٥٢]، وهذا أعظم تقريع وأشد توبيخ، ثم نزه سبحانه نفسه عن بهتان مقالتهم، وسوء ارتكابهم، وقبح فعالهم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠].

فلما أخذوا بكل مأخذ فما أغنى ذلك عنهم، قال تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٤ ـ ٥]، ثم قال لنبيه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [القمر: ٦]، ثم ذكر قصص الأمم بأشد وعيد وأعظم تهديد، معقباً كل قصة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٥]، وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر: ١٦ و١٨ و٢١ و٣٠]، ثم صرف الكلام إليهم بما تقدم من قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]، فبلغ ذلك أبلغ مبلغ في البيان والإعذار، ثم قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، فعرف سبحانه بسابق حكمته فيهم: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وانقضى ذكر القصص فلم يتعرض لها مستوفاة على هذا المساق فيما بعد إلى آخر الكتاب.

فسبحان من رحم به عباده المتقين، وجعله آية باهرة إلى يوم الدين، وقطع به عناد الجاحدين وغائلة المعتدين، وجعله تماماً كافياً، ونوراً هادياً، وواعظاً شافياً، جعلنا الله ممن اهتدى به، واعتلق بسببه، إنه أهل الجد والاستجابة والمغفرة.

سورة الرحمن

من المعلوم أن الكتاب العزيز وإن كانت آيه كلها معجزة باهرة، وسوره في جليل النظم وبديع التأليف قاطعة بالخصوم قاهرة، فبعضها أوضح من بعض في تبيّن إعجازها ومظاهر بلاغتها وإيجازها، ألا ترى تسارع الأفهام إلى الحصول على بلاغة آيات وسور من أول وهلة دون كبير تأمل كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى...﴾ [هود: ٤٤]، وقوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤]، إلى آيات لا يتوقف في باهر إعجازها إلا من طبع الله على قلبه، وأوصد دونه باب الفهم جملة، فأنى له بولوجه أو قرعه؟

وسورة القمر من هذا النمط، ألا ترى اختصار القصص فيها مع حصول أطرافها وتوفية أغراضها، وما انجر مع كل قصة من الزجر والوعظ والتنبيه والإعذار، ولولا أني لم أقصد في هذا التعليق إلا ما بنيته عليه من ترتيب السور، لأوضحت مما أشرت إليه ما لم أسبق إليه، ولعل الله ييسر ذلك فيما في اليد من التفسير، نفع الله به ويسر فيه.

فلما انطوت هذه السورة على ما ذكرنا، وبان فيها عظيم الرحمة من تكرر القصص وشفع العظات، وظهرت حجة الله على الخلق، وكان ذلك من أعظم ألطافه تعالى، لمن يسره لتدبر الكتاب، ووفقه لفهمه واعتباره، أردف ذلك سبحانه بالتنبيه على هذه النعمة فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، وخص من أسمائه الحسنى هذا الاسم إشعاراً برحمته بالكتاب وعظيم إحسانه به: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ثم قد تمهد أن سورة القمر إعذار، ومن أين للعباد بجميل هذا اللطف وعظيم هذا الحلم حتى يزادوا إلى بسط الدلالات وإيضاح البينات أن يعذر إليهم زيادة في البلاغ؟

فأنبأ تعالى أن هذا رحمة، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾ [الرحمن: ١ ـ ٣]، مما إذا تأملت سورة القمر وجدت خطابها وإعذارها خاصاً ببني آدم بل بمشركي العرب منهم فقط، فأتبعت بسورة

الرحمن تنبيهاً للثقلين، وإعذاراً إليهم، وتقريراً للجنسين على ما أودع تعالى في العالم من العجائب والبراهين الساطعة، فتكرر فيها التقرير والتنبيه بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾[1]، خطاباً للجنسين وإعذاراً للثقلين، فبان اتصالها بسورة القمر أشد البيان.

سورة الواقعة

لما تقدم الإعذار في السورتين المتقدمتين، والتقرير على عظيم البراهين، وأعلم في آخر سورة القمر أن كل واقع في العالم فبقضائه وقدره: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، أعلمهم سبحانه في الواقعة بانقسامهم الأخراوي، فافتتح بذكر قيام الساعة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]، إلى قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧]، فتجردت هذه السورة للتعريف بأحوالهم الأخراوية، وصدرت بذلك، كما جرّد في السورتين قبل التعريف بحالهم في هذه الدار وما انجر في السور الثلاث جارياً على غير هذا الأسلوب، فبحكم استدعاء الترغيب والترهيب لطفاً بالعباد ورحمة ومطالعها مبنية على ما ذكرته تصريحاً لا تلويحاً، وعلى الاستيفاء لا بالإشارة والإيماء، ولهذا قال تعالى في آخر قصص افتراقهم الأخراوي في هذه السورة: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦]، فأخبر أن هذا حالهم يوم الجزاء، وقد قدم حالهم الدنياوي في السورتين قبل، وتأكد التعريف بالتقسيم المتقدم فيما بعد وذلك قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الواقعة: ٨٨]، إلى خاتمتها.

سورة الحديد

لما تقدم قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]، وفيه من التقريع والتوبيخ لمن قُرّع به ما لا خفاء به، ثم أتبع بقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨﴾... الآيات [الواقعة: ٥٨]، إلى قوله: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:

---

(١) تكرر إحدى وثلاثين مرة.

٧٣]، فقرروا ووبخوا على سوء جهلهم وقبح ضلالهم، ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١]، واستمر توبيخهم إلى قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٧].

فلما أشارت هذه الآيات إلى قبائح من مرتكباتهم، أعقب ذلك بتنزيهه جل وعز عن سوء ما انتحلوه وضلالهم فيما جهلوه، فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦]، أي: نزهه عن عظيم ضلالهم وسوء اجترائهم، ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، أي سبح باسم ربك فهي سنة العالم بأسرهم: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التغابن: ١]، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١]، فبين تعالى انفراده بصفات الجلال ونعوت الكمال، وأنه المنفرد بالملك والحمد، وأنه الأول والآخر، والظاهر والباطن إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الحديد: ٦]، تضمنت هذه الآي إرغام من أشير إلى حالة الآي المتقدمة من سورة الواقعة وقطع ضلالهم والتعريف بما جهلوه من صفاته العُلى وأسمائه الحسنى جل وتعالى، والتحمت آي السورتين واتصلت معانيها، ثم صرف الخطاب إلى عباده المؤمنين فقال: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾... [الحديد: ٧]، واستمرت الآي على خطابهم إلى آخر السورة.

سورة المجادلة

لما نزه سبحانه نفسه عن تقوّل الملحدين، وأعلم أن العالم بأسره ينزهه عن ذلك بألسنة أحوالهم لشهادة العوالم على أنفسها بافتقارها لحكيم أوجدها، لا يمكن أن يشبه شيئاً منها، بل يتنزه عن أوصافها ويتقدس عن سماتها، فقال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿[الحديد: ١]، ومضت آي تعرف بعظيم سلطانه وعليّ ملكه، ثم انصرف الخطاب إلى عباده المؤمنين في قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٧]، إلى ما بعد ذلك من الآي، وكأن ذلك ضرب من الالتفات، والواقع هنا منه أشبه شيء بقوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، فإنه أتى بعد تفصيل حال المتقين، وحال من

جعل في طرق منهم، وحال من تشبه بظاهره بالمتقين وهو معدود في شرار الكافرين، فلما تم هذا النمط عدل بعده إلى دعاء الخلق إلى عبادة الله وتوحيده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ثم عدل بالكلام جملة وصرف الخطاب إلى تعريف نبيه ﷺ ببدء الخلق: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: ٣٠]، فجاء ضرباً من الالتفات، فكذا الواقع هنا، لما بين سبحانه سوء حال مشركي العرب، وقبح عنادهم، وقرّعهم ووبّخهم في عدة سور غالب آيها جار على ذلك ومجرد له، أولها سورة صٓ كما نبهنا عليه في سورة القمر[1]، إلى الغاية التي ذكرت فيها، إلى أن وردت سورة القمر منبئة بقطع دابرهم، وانجر فيها الإعذار المنبه عليه، وكذا في سورة الرحمن بعدها[2].

ثم أعقب ذلك بالتعريف بحال المنزل الأخراوي في سورة الواقعة مع زيادة تقريع وتوبيخ على مرتكبات استدعت تسبيحه تعالى وتقديسه عن شنيع افترائهم، فأتبعت بسورة الحديد، ثم صرف فيها الخطاب إلى المؤمنين واستمر ذلك إلى آخر السورة، جرت سورة المجادلة على هذا القصد مصروفاً خطابها إلى نازلة يتشوق المؤمنون إلى تعرف حكمها وهو الظهار المبين أمره فيها، فلم يعدل بالكلام بعدما كان قد صرف إليه في قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٧]، بأكثر من التعرض لبيان حكم ما يقع منهم.

ثم إن السورة الواردة بعد إلى آخر الكتاب استمر معظمها على هذا الغرض لانقضاء ما قصد من التعريف بأخبار القرون السالفة والأمم الماضية وتقريع من عاند وتوبيخه، وذكر مآل الخلق واستقرارهم الأخراوي، وذكر تفاصيل التكاليف والجزاء عليها من الثواب والعقاب، وما به استقامة من استجاب وآمن، وما يجب أن يلتزمه على درجات التكاليف وتأكيد هذا، فلما كمل هذا صرف الكلام إلى ما يخص المؤمنين في أحكامهم وتعريفهم بما فيه خلاصهم. فمعظم آي السّور بعدها هذا شأنها، وإن انجر غيره فلاستدعاء وموجب، وهو الأقل كما بينا.

---

(١) صفحة: ١٧٤.   (٢) صفحة: ١٨٠.

سورة الحشر

لا خفاء باتصال آيها بما تأخر من آي سورة المجادلة، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [المجادلة: ١٤]، إنما يراد به يهود، فذكر سبحانه سوء سريرتهم وعظيم جراءتهم، ثم قال في آخر السورة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فحصل من هذا كله تنفير المؤمنين عنهم، وإعلامهم بأن بغضهم من الإيمان وودهم من النفاق لقبيح ما انطووا عليه وشنيع ما ارتكبوه.

فلما أشارت هذه الآي إلى ما ذكر أتبعت بالإعلام في أول سورة الحشر بما عجل لهم من إجلائهم وإخراجهم عن ديارهم وأموالهم، وتمكين المسلمين منهم جزاء على ما كانوا عليه من سوء مرتكبهم. والتحمت الآي باتحاد المعنى وتناسبه وانتسج الكلام.

وافتتحت السورة بالتنزيه لبنائها على ما أشار إلهي غضبه تعالى عليهم، إذ لا يكون إلا على أعظم جريمة وأسوإ مرتكب، وهو اعتداؤهم وعصيانهم المفصل في مواضع من الكتاب، وقد قال تعالى فيهم بعد ذكر غضبه عليهم: ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨]، فبين تعالى أن لعنه إياهم إنما ترتب على عصيانهم واعتدائهم، وقد فصل اعتداءهم أيضاً في مواضع، فلما كان الغضب مشيراً إلى ما ذكر من عظيم المرتكب أتبعه سبحانه بتنزيه نفسه جل وتعالى فقال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحشر: ١]، وإنما يرد مثله في التنزيه في الكتاب بعد ذكر جريمة تقع من العباد وعظيمة يرتكبونها، فتأمل ذلك حيث وقع، ثم عاد الكلام إلى الإخبار بما فعل تعالى بأهل الكتاب مما يتصل بما تقدم، ثم تناسبت الآي.

سورة الممتحنة

افتتحت بوصية المؤمنين عن موالاة أعدائهم ونهيهم عن ذلك، وأمرهم بالتبري منهم، وهو المعنى الوارد في قوله في خاتمة سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾. . . [المجادلة: ٢٢]، إلى آخر السورة. وقد حصل منها أن هذه أسنى أحوال أهل الإيمان وأعلى مناصبهم الدينية: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فوصى عباده في افتتاح الممتحنة بالتبري من موالاة الأعداء، ووعظهم بقصة إبراهيم والذين معه في تبريهم من قومهم ومعاداتهم في الدين، فالاتصال في هذا بيِّن، وكأن سورة الحشر وردت مورد جعل الاعتراضات المقصود بها تسديد الكلام وتبيينه للسامع مع ما به تمام الفائدة.

لما ذكر أن شأن المؤمنين أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أقرب الناس إليهم، اعترض بتنزيهه عن مرتكباتهم، ثم أتبع بذكر ما عجله لهم من النقمة والنكال، ثم عاد الأمر إلى النهي عن موالاة الأعداء جملة.

ثم لما كان أول سورة الممتحنة إنما نزل في حاطب بن أبي بلتعة[1] وكتابه لكفار قريش بمكة ـ والقصة مشهورة ـ وكفار مكة ليسوا من يهود، وطلب المعاداة للجميع واحد، فلهذا فصل بما هو من تمام الإخبار بحال يهود، وحينئذ عاد الكلام إلى الوصية عن نظائرهم من الكفار المعاندين. والتحمت السور الثلاث.

وكثر في سورة الممتحنة ترداد الوصايا والعهود وطلب الوفاء بذلك كله، ولهذه المناسبة ذكر فيها الحكم في بيعة النساء وما يشترط عليهن في ذلك،

---

(١) حاطب بن أبي بلتعة: (٩٥ق هـ ـ ٣٠هـ): صحابي شهد مع رسول الله ﷺ الوقائع كلها، كان من الرماة واسع التجارة، هو حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس بالإسكندرية، وكانت وفاته بالمدينة (الإصابة: ١/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠).

فمبنى السورة على طلب الوفاء افتتاحاً واختتاماً حسب ما بين في التفسير، ليتنزه المؤمن عن حال من قدم ذكره في سورة الحشر وفي خاتمة سورة المجادلة.

سورة الصف

افتتحت بالتسبيح لما ختمت به سورة الممتحنة من قوله تعالى: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وهم يهود، وقد تقدم الإيماء إلى ما استوجبوا به هذا فأتبع بالتنزيه لما تقدم بيانه، فإنه مما يعقب به ذكر جرائم المرتكبات، ولا يرد في غير ذلك.

ثم أتبع ذلك بأمر العباد بالوفاء، وهو الذي قدم لهم في الممتحنة لينزهوا عن حال مستوجبي الغضب بنقيض الوفاء والمخالفة بالقلوب والألسنة: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]، ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]، ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [النور: ٤٧]، وبمجموع هذا استحقوا اللعنة والغضب فقيل للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ٢]، احذروا أن تشبه أحوالكم حال من استحق المقت واللعنة والغضب.

ثم أتبع بذكر حسن الجزاء لمن وفى قولاً وعقداً، لساناً وضميراً، وثبت على ما أمر به، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾... الآية [الصف: ٤]، ثم تناسج ما بعده.

ولما كان الوارد من هذا الغرض في سورة الممتحنة قد جاء على طريق الوصية وسبيل النصح والإشفاق أتبع في سورة الصف بصريح العتب في ذلك والإنكار، ليكون بعد ما تعهد في السورة قبل أوقع في الزجر. وتأمل كم بين قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾... الآيات [الممتحنة: ١] وما تضمنته من التلطف، وبين قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢، ٣].

سورة الجمعة

لما اختتمت سورة الصف بالثناء على الحواريين في حسن استجابتهم وجميل إيمانهم، وقد أمر المؤمنين بالتشبه بهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ . . .﴾ الآية [الصف: ١٤]، كان ذلك مما يوهم فضل أتباع عيسى عليه السلام على أتباع محمد ﷺ، فأتبع ذلك بذكر هذه الأمة والثناء عليها، فافتتحت السورة بالتنزيه عما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤] فإنهم ارتكبوا العظيمة وقالوا بالبنوة، فنزه سبحانه نفسه عن ذلك، ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، إلى قوله: ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

ثم أعلم تعالى بحال طائفة لاح لها نور الهدى، ووضح لها سبيل الحق، فعميت عن ذلك، وارتكست في ظلمات جهلها، ولم تزدد بما حمّلت إلا حيرة وضلالة، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ . . . الآيات [الجمعة: ٥]، وهي في معرض التنبيه لمن تقدم الثناء عليه، ورحمة من الله إياه، لئلا يكونوا فيما يتلو عليهم نبيهم من الآيات ويعلمهم من الكتاب والحكمة مثل أولئك الممتحنين، فإنهم مقتوا ولعنوا بعد حملهم كتابهم وزعمهم أنهم التزموا حمله والوفاء به، فوعظ هؤلاء بحالهم لطفاً من الله بهذه الأمة، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

سورة المنافقين

لما أعقب ذكر حال المؤمنين فيما خصهم الله به مما انطوت عليه الآيات الثلاث من صدر سورة الجمعة إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤]، بذكر حال من لم ينتفع بما حمّل ـ حسبما تقدم ـ وكان في ذلك من الوعظ والتنبيه ما ينتفع به من سبقت له الشهادة، أتبع بما هو أوقع في الغرض وأبلغ في المقصود، وهو ذكر طائفة ممن أظهر الإيمان ـ ممن قدم الثناء عليهم ومن أقرانهم وأترابهم أقاربهم ـ تلبست في الظاهر بالإيمان،

وأظهرت الانقياد والإذعان، وتعرضت فأعرضت، وتنصلت فما وصلت، بل عاقتها الأقدار فعميت البصائر والأبصار.

ومن المطرد المعلوم أن اتعاظ الإنسان بأقرب الناس إليه وبأهل زمانه أغلب من اتعاظه بمن بَعُدَ عنه زماناً أو نسباً، فأُتبعت سورة الجمعة بسورة المنافقين وعظاً للمؤمنين بحال أهل النفاق، وبسط من قصصهم ما يلائم ما ذكرناه، وكأن قد قيل لهم: (ليس حال من أظهر الانقياد والاستجابة من بني إسرائيل ثم كان فيما حمّل كمثل الحمار يحمل أسفاراً بأعجب من حال إخوانكم زماناً وقرابة، وأنتم أعرف الناس بهم، وأنهم قد كانوا في الجاهلية موصوفين بجودة الرأي وحسن النظر: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

سورة التغابن

لمَّا بسط في السورتين قبل من حال من حُمِّل التوراة من بني إسرائيل ثم لم يحملها، وحال المنافقين المتظاهرين بالإسلام وقلوبهم كفر وعناد متكاثفة الإظلام وما بيّن من خروج الفريقين عن سنن السبيل المستقيم، وتنكبهم عن هدى الدين القويم، وأوهم ذكر اتصافهم بمتحد أوصافهم خصوصهم في الكفر بوسم الانفراد، وسم ينبئ عن عظيم ذلك الإبعاد سوى ما تناول غيرهم من أضراب الكفار، فأنبأ تعالى أن الخلق بجملتهم - وإن تشعبت الفرق، وافترقت الطرق - راجعون بحكم السوابق إلى طريقين، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقد أوضحت الدلائل أن المؤمنين على درجات وأهل الكفر ذوو طبقات، وأهل النفاق أدونهم حالاً وأسوأهم كفراً وضلالاً: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، افتتحت السورة بالتنزيه لعظيم مرتكب المنافقين في جهلهم.

ولو لم تنطو سورة المنافقين من عظيم مرتكبهم إلا على ما حكى تعالى من قولهم: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، وقد أشار قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ

عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ [التغابن: ٤]، إلى ما قبله وبعده من الآيات، إلى سوء جهل المنافقين، وعظيم جرماتهم في قولهم بألسنتهم ما لم تنطو عليه قلوبهم: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، واتخاذهم أيمانهم جنة، إلى ما وصفهم به سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ [التوبة: ٧٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [التغابن: ٤]، فقرع ووبخ في عدة آيات، ثم أشار إلى ما منعهم عن تأمل الآيات وصدهم عن اعتبار المعجزات وأنه الكبر المهلك غيرهم، فقال تعالى مخبراً عن سلفهم في هذا المرتكب، ممن أعقبه ذلك أليم العذاب وسوء المنقلب: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، ثم تناسج الكلام معرفاً بمآلهم الأخراوي ومآل غيرهم إلى قوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ١٠]، ومناسبة ما بعد يبيّن في التفسير بحول الله.

سورة الطلاق

لما تقدم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقوله في التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، والمؤمن قد يعرض له ما يضطره إلى فراق من نبه على فتنته وعظيم محنته ـ وردت هذه السورة منبهة على كيفية الحكم في هذا الافتراق، وموضحة أحكام الطلاق وأن هذه العداوة وإن استحكمت، ونار هذه الفتنة وإن اضطرمت لا توجب التبري بالجملة وقطع المعروف، ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

وقضى سبحانه بالإحسان المجمل في قوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وبين تفصيل ذلك وما يتعلق به، فبدأه من الرفق المطلوب بإيقاع الطلاق في أول ما تستعده المطلقة في عدتها وتحسبه من مدتها، تحذيراً من إيقاع الطلاق في الحيض الموجب طول العدة وتكثير المدة، وأكد سبحانه هذا

بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: ١]، ثم نبه سبحانه على حقهن أيام العدة من الإبقاء في مستقرهن حين إيقاع الطلاق إلى انقضاء العدة، فقال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، إلى ما استمرت عليه السورة من بيان الأحكام المتعلقة بالطلاق وتفصيل ذلك كله. ولما كان الأولاد إذا ظهر منهم ما يوجب فراقهم وإبعادهم غير مفترقين إلى ما سوى الرفض والترك ـ بخلاف المرأة ـ لم يحتج إلى ما احتيج إليه من حقهن. فقد وضح وجه ورود سورة الطلاق في هذا الموضع، والله أعلم.

سورة التحريم

لا خفاء بشدة اتصال هذه السورة بسورة الطلاق لاتحاد مرماهما وتقارب معناهما، وقد ظن أنه ﷺ طلق نساءه حين اعتزل في الشرفة، حتى سأله عمر رضي الله عنه، والقصة معروفة[1]، وتخييره ﷺ إياهن إثر ذلك، وبعد اعتزاله ﷺ إياهن شهراً كاملاً، وعتب الله سبحانه عليهن في قوله: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم: ٤]، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ . . . الآية [التحريم: ٥]، فهذه السورة وسورة الطلاق أقرب شيء، وأشبه بسورة الأنفال وبراءة لتقارب المعنى والتحامهما.

سورة الملك

ورود ما افتتحت به هذه السورة من التنزيه وصفات التعالي إنما يكون عقب تفصيل وإيراد عجائب من صنعه سبحانه، كورود قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، عقب تفصيل التقلب الإنساني، من لدن خلقه من سلالة من طين إلى إنشائه خلقاً آخر، وكذا كان ما ورد من هذا ما لم يرد أثناء آي قد جردت للتنزيه والإعلام بصفات التعالي والجلال.

ولما كان قد وقع في آخر سورة التحريم ما فيه أعظم عبرة لمن تذكر،

---

(١) البخاري: نكاح ٨٣، ٥٥، مسند أحمد: ١/ ٣٣.

وأعلى آية لمن استبصر من ذكر امرأتين كانتا تحت عبدين صالحين قد بعثهما الله رحمة لعباده، واجتهدا في دعاء الخلق إلى الله، فحرم الاستنارة بنورهما والعياذ بهداهما من لم يكن أحد من جنسهما أقرب إليهما منه، ولا أكثر مشاهدة لما مُدّا به من الآيات وعظيم المعجزات، ومع ذلك فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً.

ثم أعقبت هذه القصة بما جعل في طرف منها ونقيض من حالها، وهو ذكر امرأة فرعون التي لم يضرها مرتكب صاحبها وعظيم جراءته، مع شدة الوصلة واستمرار الألفة لما سبق لها في العلم القديم من السعادة وعظيم الرحمة فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، وحصل في هاتين القصتين تقديم سبب رحمة حرم التمسك به أولى الناس في ظاهر الأمر، وتقديم سبب امتحان سلم منه أقرب الناس إلى التورط فيه.

ثم أعقب ذلك بقصة عرِّيت عن مثل هذين السببين، وانفصلت في مقدماتها عن تينك القصتين، وهو ذكر مريم ابنة عمران، ليعلم العاقل حيث يضع الأسباب، وأن القلوب بيد العزيز الوهاب، أعقب تعالى ذلك بقوله الحق: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وإذا كان الملك بيده سبحانه فهو الذي يؤتي الملك والفضل من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، كما صرحت به الآية الأخرى في آل عمران[1]، فقد اتضح اتصال سورة الملك بما قبلها، ثم بنيت سورة الملك على التنبيه والاعتبار ببسط الدلائل ونصب البراهين حسبما يبسط في التفسير.

سورة نۤ والقلم

لما تضمنت سورة الملك من عظيم البراهين ما تعجز العقول عن استيفاء الاعتبار ببعضه كالاعتبار بخلق السماوات في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، أي يطابق بعضها بعضاً، من طابق النعل إذا نصفها طبقاً

(١) وهي قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾... الآية.

على طبق، ويشعر هذا بتساويها في مسافة أقطارها ومقادير أجرامها، والله أعلم.

ووقع الوصف بالمصدر ليشعر باستحكام مطابقة بعضها لبعض إنباء منه سبحانه أنها مع عظيم أجرامها وتباعد أطرافها يطابق بعضها بعضاً من غير زيادة ولا نقص، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، أي: من اختلاف واضطراب في الخلق أو تناقض، إنما هي مستوية مستقيمة.

وجيء بالظاهر في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، ولم يقل فيه: ما ترى من تفاوت، ليشعر أن جميع المخلوقات جار على هذا، كل شكل يناسب شكله، لا تفاوت في شيء من ذلك ولا اضطراب، فأعطى الظاهر من التعليم ما لم يكن ليعطيه الإضمار، كما أشعر خصوص اسم الرحمن بما في هذه الأدلة المبسوطة من الرحمة للخلائق لمن رزق الاعتبار.

ثم نبه تعالى على ما يرفع الريب ويزيل الإشكال في ذلك فقال: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ [الملك: ٣]، أي عاود الاعتبار، وتأمل ما تشاهده من المخلوقات حتى يتضح عندك ما أخبرت به بالمعاينة، ولا يبقى معك في ذلك شبهة، ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، أي: من صدوع وشقوق.

ثم أمر تعالى بتكرير البصر فيهن متصفحاً ومتتبعاً، هل تجد عيباً أو خللاً، ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ [الملك: ٤]، أي: إنك إذا فعلت هذا رجع بصرك بعيداً عن إصابة الملتمس، كأنه يطرد عن ذلك طرداً بالصَّغار وبالانخساء والكلال لطول الإجالة والترديد.

وأمر برجع البصر ليكون في ذلك استجمامه واستعداده، حتى لا يقنع بالرجعة الأولى التي يمكن فيها الغفلة والذهول، إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة، إذ معنى التثنية في قوله: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]، التكرير، كقولهم: لبيك وسعديك، فيحسر البصر من طول التكرار، ولا يعثر على شيء من فطور.

فلو لم تنطو السورة على غير ما وقع من أولها إلى هنا لكان في ذلك

أعظم معبر وأوضح دليل لمن استبصر، إذ هذا الاعتبار ـ بما ذكر من عمومه ـ جار في كل المخلوقات، ولا يستقل بفهم مجاريه الآحاد من العقلاء بعد التحريك والتنبيه، فشهادته بنبوة الآتي به قائمة واضحة.

ثم قد تكررت في السورة دلالات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥]، وقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، الآيات إلى آخر السورة، وأدناها كاف في الاعتبار. فأنى يصدر بعض ذلك من متصف ببعض ما نعتوا به في قولهم: ساحر ومجنون وشاعر؟ ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ . . . [المطففين: ١٤].

فلعظيم ما انطوت عليه سورة الملك من البراهين أتبعت بتنزيه الآتي بها ﷺ عما تقوّله المبطلون، مقسماً على ذلك زيادة في التعظيم وتأكيداً في التميّز والتكريم، فقال تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝﴾ [القلم: ١، ٢]، وأنّى يصح من مجنون أن يتصور تلك البراهين، وقد انقطعت دونها أنظار العقلاء؟ فكيف ببسطها وإيضاحها في نسق موجز، ونظم معجز، وتلاؤم حير العقول، وعبارة تفوق كل قول، تعرف ولا تدرك، ويستوضح سبيلها فلا يسلك؟ ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فقوله سبحانه: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝﴾ [القلم: ٢]، جواب لقوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١]، وتقدم الجواب بنفي قولهم والتنزيه عنه على حكاية قولهم، ليكون أبلغ في إجلاله ﷺ، وأخف وقعاً عليه، وأنشط لحاله في تلقي ذلك منهم، ولهذا قدم له ﷺ مدحه بما خصه به من الخلق العظيم، فكان هذا أوقع في الإجلال من تقدم قولهم ثم رده، إذ كسر سَوْرة تلك المقالة الشنعاء بتقديم التنزيه عنها أتم في الغرض وأكمل، ولا موضع أليق بذكر تنزيهه ﷺ ووصفه من الخلق والمنح الكريمة بما وصف مما أعقب به ذلك، إذ بعض ما تضمنته سورة الملك مما قدم الإيماء إليه شاهد قاطع لكل عاقل منصف بصحة نبوته ﷺ وجليل صدقه، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فقد تبين موقع هذه السورة هنا، وتلاؤم ما بعد من آيها يذكر في التفسير.

ثم إن سورة الملك لما انطوت على ضرب من التنبيه والتخويف وقع ذلك فيها على تدريج عظيم للطفه سبحانه بعبيده، فقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] أعظم تنبيه لأن الموجودات شاهدة بالعبودية لمالكها الحق ومفصحة بأن الملك له، لكن لا يستغل هذا الاعتبار إلا من نوّر الله بصيرته، ثم نبه بالموت والحياة وفيهما معتبر ودلالة، ويحتاج في ذلك أيضاً إلى النظر، ثم بخلق السماوات والاعتبار بذلك أقرب مما تقدم على ما أشارت إليه الآية.

سورة الحاقة

لمَّا بُنيت سورة (نٓ والقلم) على تقريع مشركي قريش وسائر العرب وتوبيخهم، وتنزيه نبي الله ﷺ عن شنيع تقوُّلهم وقبيح بهتهم، وبيّن حسدهم وعداوتهم: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١]، أتبعت بسورة الحاقة وعيداً لهم، وبياناً أن حالهم في سوء ذلك المرتكب قد سبق إليه غيرهم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ [الحاقة: ٤]، ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: ٨]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ۝٩٨﴾ [مريم: ٩٨].

فسورة الحاقة جارية مجرى هذه الآي المعقب بها ذكر عناد مشركي العرب، ليتعظ بها من رزق التوفيق: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾ [الحاقة: ١٢]، ولما ذكر حال من هلك من الأمم السالفة بسوء تكذيبهم وقبح عنادهم أتبع ذلك بذكر الوعيد الأخراوي: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة: ١٨]، ثم عاد الكلام إلى ما عليه بنيت سورة نٓ والقلم من تنزيهه ﷺ وتكريمه مقسماً على ذلك: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الحاقة: ٤٢]، وانتهى نفي ما تقوّلوه منصوصاً على نزاهته من كل خلة منها في السورتين: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: ٢]، وما الذي جئت به بقول شاعر ولا بقول كاهن بل هو: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٣]: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١]، فنزه ربك وقدسه عن عظيم ما ارتكبوا.

سورة المعارج

لما انطوت سورة الحاقة على أشد وعيد وأعظمه أتبعت بجواب من استبطأ ذلك واستبعده، إذ هو مما يلجأ إليه المعاند الممتحن، فقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [المعارج: ٦، ٧]، ثم ذكر حالهم إذ ذاك: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ . . . [المعارج: ١١]، ثم أتبع بأن ذلك لا يغني عنه ولا يفيده: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ [المعارج: ١٥]، ثم ختمت السورة بأكيد الوعيد وأشد التهديد، ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ [المعارج: ٤٢]، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤]، ذلك يوم الحاقة ويوم القارعة.

سورة نوح عليه السلام

لما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، وجليل الإغضاء في قوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ [المعارج: ٤٢]، أتبع ذلك بذكر قصة نوح عليه السلام، وتكرار دعائه قومه إلى الإيمان، وخص من خبره حاله في طول مدة التذكار والدعاء، لأنه المقصود في الموضع تسلية لنبينا ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، فقد دام دعاء نوح قومه أدوم من مدتك، ومع ذلك لم يزدهم إلا فراراً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: ٥ ـ ٧].

ثم مضت آي السورة على هذا المنهج من تجريد الإخبار بطول مكابدته عليه السلام، وتكرار دعائه، فلم يزدهم ذلك إلا بعداً وتصميماً على كفرهم، حتى أخذهم الله وأجاب فيهم دعاء نبيهم عليه السلام، ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وذلك ليأسه من فلاحهم، وانجر في هذا حض نبينا ﷺ على الصبر على قومه والتحمل منهم كما صرح به في قوله تعالى:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وكما قيل له قبل: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

سورة الجن

لما تقدم ذكر حال كفار قريش في تعاميهم عن النظر، وجريهم إلى اللدد والعناد حسبما انطوت عليه سورة نٓ والقلم، ثم أتبعت بوعيدهم في الحاقة، ثم بتجميعه وقرب وقوعه في المعارج، ثم بتسليته ﷺ وتأنيسه بقصة قوم نوح، أعقب ذلك بما يتعظ به الموفق، ويعلم أن القلوب بيد الله.

فقد كانت استجابة معاندي قريش والعرب أقرب في ظاهر الأمر لنبي من أنفسهم ومن جنسهم، فقد تقدمت لهم معرفة صدقه وأمانته، ثم جاءهم بكتاب بلسانهم الذي به يتحاورون، ولغتهم التي بها يتكلمون، وقد بهرت العقول آياته، ووضحت لكل ذي قلب سليم براهينه ومعجزاته، وقد علموا أنهم لا يقدرون على معارضته، إلى (ما)[1]، شاهدوه من عظيم البراهين، ومع ذلك عموا وصموا، وسبق إلى الإيمان من ليس من جنسهم، ولا سبقت له مزية تكريمهم، وهُمُ الجن ممن سبقت له من الله الحسنى، فآمنوا وصدقوا، وأمر رسول الله ﷺ بالإخبار بذلك فأنزل عليه: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾... الآيات [الجن: ١]، إلى قوله ـ إخباراً عن تعريف الجن سائر إخوانهم بما شاهدوه من عناد كفار العرب ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩]، واستمرت الآي ملتحمة المعاني معتضدة المباني إلى آخر السورة.

---

(١) سقط من ن١.

سورة المزمل

لما كان ذكر إسلام الجن قد أحرز غاية انتهى مرماها، وتم مقصدها ومبناها، وهي الإعلام باستجابة هؤلاء، وحرمان من كان أولى بالاستجابة، وأقرب في ظاهر الأمر إلى الإنابة، بعد تقدم وعيدهم وشديد تهديدهم صرف الكلام إلى أمره ﷺ بما يلزمه من وظائف عبادته، وما يلتزمه في أذكاره من ليله ونهاره، مفتتحاً ذلك بأجمل مكالمة وألطف مخاطبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، تسلية له ﷺ كما ورد: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وليحصل منه أن لا اكتراث بعناد من قدم عناده وقدم لجحه، وأتبع ذلك بما يشهد لهذا الغرض ويعضده وهو قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ [المزمل: ١٠، ١١]، وهذا عين الوارد في قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وفي قوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ﴾ [ق: ٤٥]، ثم قال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ [المزمل: ١٢]، فذكر ما أعد لهم.

وإذا تأملت هذه الآي وجدتها قاطعة بما قدمناه، وبان لك التحام ما ذكر، ثم رجع الكلام إلى التلطف به ﷺ وبأصحابه، وإجزال جزائهم مع وقوع التقصير ممن يصح منه لعظم المعبود الحق جل جلاله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ [المزمل: ٢٠]، إلى قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠]، وإلى ختم السورة بالاستغفار من كل ما تقدم من عناد الجاحدين المتقدم ذكرهم فيما قبل من السورة، وإلى ما لم يف العباد المستجيبون به مما أشار إليه قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

سورة المدثر

ملاءمتها لسورة المزمل واضحة، فاستفتاح السورتين من نمط واحد، وما ابتدئت به كل واحدة منهما من جليل خطابه ﷺ وعظيم تكريمه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، والأمر فيهما بما يخصه:

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ﴾... الآي [المزمل: ٢، ٣]، وفي الأخرى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ [المدثر: ٢، ٣]، وأتبع في الأولى بقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠]، وفي الثانية بقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر: ٧]، وكل ذلك قصد واحد، وأتبع أمره بالصبر في المزمل بتهديد الكفار ووعيدهم: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾... الآيات [المزمل: ١١]، وكذلك في الأخرى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١﴾... الآيات [المدثر: ١١]، فالسورتان واردتان في معرض واحد وقصد متحد.

سورة القيامة

لما تقدم قوله مخبراً عن أهل الكفر: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٦]، ثم قد تقدم في صدر السورة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]، إلى قوله: ﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ [المدثر: ١٠]، والمراد به يوم القيامة، والوعيد به لمن ذكر بعد في قوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ [المدثر: ١١]، ومن كان على حاله في تكذيبه، ووقوع ذلك منه. ثم تكرر ذكره عند جواب من سئل بقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، بسط القول في هذه السورة ما تكرر في الأخرى في بيان ذكر ذلك اليوم وأهواله، وأشير إلى حال من كذب به في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦]، وفي قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، ثم أتبع ذلك بذكر أحوال الخلائق في ذلك اليوم: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

سورة هل أتى على الإنسان

قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، تعريف للإنسان بحاله وابتداء أمره، ليعلم ألا طريق له للكبر، واعتقاده السيادة لنفسه، وألا يغالطه ما اكتنفه من الألطاف الربانية، والاعتناء الإلهي والمكرمة، فيعتقد أنه يستوجب ذلك ويستحقه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ولما تقدم في القيامة إخباره تعالى عن حال منكري البعث عناداً واستكباراً وتعامياً عن النظر والاعتبار: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ [القيامة: ٣]، وقوله بعد: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣﴾ [القيامة: ٣١ ـ ٣٣]، أي: يتبختر عَدْواً واستكباراً ومرحاً وتجبراً، بعد (إخباره)[1] بحاله التي لو فكر فيها لما كان منه ما وصف، وذلك قوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨]، أتبع ذلك بما هو أغرق في التوبيخ وأوغل في التعنيف، وهو أنه قد كان لا شيء فلا نطفة ولا علقة، ثم أنعم عليه بنعمة الإيجاد، ونقله تعالى من طور إلى طور، فجعله نطفة من ماء مهين في قرار مكين، ثم كان علقة، ثم مضغة، إلى إخراجه وتسويته خلقاً آخر: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، فمن اعتبر باتصافه بالعدم ثم تقلبه في هذه الأطوار المكتنف حلها والواضح فناؤها واضمحلالها وأيده الله بتوفيقه، عرف حال ومآل من وصف في قوله: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٣].

فسبحان الله ما أعظم حلمه وأكرم رفقه!

ثم بين تعالى أن ما جعله للإنسان من السمع والبصر ابتلاء له، ومن أدركه أدركه الغلط وارتكب الشطط.

سورة المرسلات

أقسم تعالى بالملائكة المتتابعين في الإرسال، والرياح المسخرة والآتية بالمطر، والملائكة الفارقة بما تنزل به بين الحق والباطل، الملقية الذكر بالوحي إلى الأنبياء إعذاراً من الله وإنذاراً، أقسم تعالى بما ذكر من مخلوقاته على صدق الموعود في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ الآيات [الأنسان: ٤]، وقوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، وقوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾... الآيات [الإنسان: ١٢]، إلى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، وقوله: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾

---

(١) زيد ليتم المعنى.

[الإنسان: ٢٧]، وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ [الإنسان: ٣١]، ولو لم يتقدم إلا هذا الوعيد المختتم به السورة لطابقه افتتاح الأخرى قسماً عليه أشد المطابقة، فكيف وسورة هل أتى على الإنسان برأسها مواعد أخراوية وإخبارات جزائية؟ فأقسم ﷻ على صحة الوقوع، وهو المتعالي الحق، وكلامه الصدق.

سورة النبأ

أما مطلعها فترتب على تساؤل واستفهام وقع منهم، وكأنه وارد هنا في معرض العدول والالتفات، وأما قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [النبأ: ٤، ٥]، فمناسب للوعيد المتكرر في قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾[1]، وكأن قد قيل: سيعلمون عاقبة تكذيبهم، ثم أورد تعالى من جميل صنعه ما إذا اعتبره المعتبر علم أنه لا بد من وقت ينكشف فيه الغطاء ويجازى الخلائق على نسبة من أحوالهم في الاعتبار والتدبر والخضوع لمن نصب مجموع تلك الدلائل، ويستشعر من تكرر الفصول، وتجدد الحالات، وإحياء الأرض بعد موتها جري ذلك في البعث واطراد الحكم، وإليه الإشارة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٧]، فقال تعالى منبهاً على ما ذكرناه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦]، إلى قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١٦].

فهذه المصنوعات المقصود بها الاعتبار كما قدم، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النبأ: ١٧]، أي: موعداً لجزائكم، ولو اعتبرتم بما ذكر لكم لتيقنتم منه وقوع (البعث)[2]، وكونه ليقع جزاؤكم على ما سلف منكم، فويل يومئذ للمكذبين.

ويشهد لهذا القصد مما بعد من الآيات قوله تعالى لما ذكر ما أعد للطاغين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۝٢٩﴾ [النبأ: ٢٧ ـ ٢٩]، ثم قال بعد: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١﴾

---

(١) وردت في المرسلات عشر مرات.

(٢) زيدت ليتم بها المعنى.

[النبأ: ٣١]، وقوله بعد: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [النبأ: ٣٩]، وأما الحياة الدنيا فلعب ولهو: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقوله بعد: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

سورة والنازعات

لما أوضحت سورة النبأ حال الكافر في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠]، عند نظره ما قدمت يداه ومعاينته من العذاب عظيم ما يراه، وبعد ذكر تفصيل أحوال وأهوال، أتبع ذلك بذكر ما قد كانت حاله عليه في دنياه من استبعاد عودته في أخراه، وذكر هون ذلك عليه سبحانه، كما قال في الموضع الآخر: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧]، وذلك بالنظر إلينا ولما عهدناه وإلا فليس عنده سبحانه شيء أهون من شيء، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، فقال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ [النازعات: ١]، إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴿١١﴾﴾ [النازعات: ١٠، ١١]، أي: يستبعدون ذلك ويستدفعونه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ [النازعات: ١٣]، أي صيحة، ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]، أي: بالأرض قياماً ينظرون ما قدمت أيديهم، وهم يتمنون أن لو كانوا تراباً ولا ينفعهم ذلك.

ثم ذكر تعالى من قصة فرعون وطغيانه ما يناسب الحال في قصد الاتعاظ والاعتبار، ولهذا أتبع القصة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٢٦].

سورة عبس

لما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، افتتحت هذه السورة الأخرى بمثال يكشف عن المقصود من حال أهل التذكر والخشية وجميل الاعتناء الرباني بهم، وأنهم وإن كانوا في دنياهم ذوي خمول، لا يؤبه لهم، فهم عنده سبحانه في عداد من اختاره لعبادته، وأهّله لطاعته وإجابة رسله، وأعلى منزلته لديه:

رُبَّ أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره[1]، ومنهم ابن أم مكتوم الأعمى مؤذن رسول الله ﷺ، وهو الذي نزلت السورة بسببه، ووردت بطريق العتب وصاة لنبي الله ﷺ وتنبيهاً على أن يحمل نفسه الكريمة على مصابرة أمثال ابن أم مكتوم، وأن لا يحتقره، وحاشاه ﷺ من ذلك، ولكن التحذير من هذا ـ وإن لم يكن وقع ـ يشعر بعظيم الاعتناء بمن حذر، وهو من قوله سبحانه له: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وهو كثير، وبسط هذا الضرب لا يلائم مقصودنا في هذا التعليق.

لما دخل عليه ﷺ ابن أم مكتوم سائلاً مسترشداً، وهو ﷺ يكلم رجلاً من أشراف قريش، وقد طمع في إسلامه، ورجا إنقاذه من النار وإنقاذ ذويه وأتباعه، فتمادى على مكالمة هذا الرجل لما كان يرجوه، ووكل ابن أم مكتوم إلى إيمانه فأغفل فورية مجاوبته، وشق عليه إلحاحه خوفاً من تفلت الآخر ومضيه على عقبه وهلاكه، عتب سبحانه عليه فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝﴾... الآيات [عبس: ١، ٢]، وفيها: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٣]، وهي منه سبحانه واجبة.

وقد تقدم في السورة قبل قول موسى ﷺ لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨]، فلم يقدر له ذلك، ولا انتفع ببعد صيته في الدنيا، ولا أغنى عنه ما نال منها، وبارت مواد تدبيره، وعميت عليه الأنباء إلى أن قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧]، فأنى يزّكّى؟ ولو سبقت له سعادة لأبصر من حاله عين اللهو واللعب حين مقالته الشنعاء: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ [الزخرف: ٥٢]. ولما سبقت لابن أم مكتوم الحسنى، لم يضره عدم الصيت الدنياوي، ولا أخل به عماه، بل

---

(١) مسلم: بر: ١٣٨، جنة: ٤٨.

عظّم ربه شأنه لما أنزل في حقّه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ [عبس: ٣، ٤]، فيا له صيتاً ما أجله! بخلاف من قدم ذكره ممن طرد فلم يتزكَّ ولا انتفع بالذكرى حين قصد بها، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، كابن أم مكتوم.

ومن نمط ما نزل في ابن أم مكتوم قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾... [الكهف: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]، فتبارك ربنا، ما أعظم لطفه بعبيده!.

اللهم لا تيئسنا من رَوْحِكَ، ولا تقطع بنا عنك بمنك وإحسانك.

سورة التكوير

لما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤﴾... الآيات [عبس: ٣٣، ٣٤] إلى آخر السورة، كان مظنة لاستفهام السائل عن الوقوع ومتى يكون؟ فقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، ووقوع تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال، وتعطيل العشار، كل ذلك متقدم على فرار المرء من أخيه وأمه وأبيه، إلى ما ذكر إلى آخر السورة، لاتصال ما ذكر في مطلع سورة التكوير بقيام الساعة، فصح أن يكون أمارة للأول وَعَلَماً عليه.

سورة الانفطار

هذه السورة كأنها من تمام سورة التكوير لاتحاد القصد، فاتصالها بها واضح وقد مضى نظير هذا(١).

---

(١) كما بين الأنفال والتوبة، وبين الطلاق والتحريم.

سورة التطفيف

لما قال سبحانه في سورة الانفطار: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]، وكان مقتضى ذلك الإشعار بوقوع الجزاء على جزئيات الأعمال، وأنه لا يفوت عمل كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، أتبع الآية المتقدم ذكرها بجزاء من عمل عملاً يتوهم فيه هون المرتكب، وهو من أكبر الجرائم وذلك التطفيف في المكيال والميزان، والانحراف عن إقامة القسط في ذلك، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، ثم أردف بتهديدهم وتشديد وعيدهم، فقال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ [المطففين: ٤، ٥]، ثم التحمت الآي مناسبة لما افتتحت به السورة إلى ختامها.

سورة الانشقاق

لما تقدم في الانفطار التعريف بالحفظة وإحصائهم على العباد في كتبهم، وعاد الكلام إلى ذكر ما يكتب على البر والفاجر واستقرار ذلك، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]. وقوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧] أتبع ذلك هنا بذكر التعريف بأخذ هذه الكتب في القيامة عند العرض، وأن أخذها بالأيمان عنوان السعادة، وأخذها وراء الظهر عنوان الشقاء، إذ تقدم في السورتين قبل ذكر الكتب واستقرارها بحسب اختلاف مضمناتها منها في عليين، ومنها في سجين، إلى يوم العرض، فيؤتى كلٌّ كتابه، فيأخذ هذا بيمينه وهو عنوان سعادته، ويأخذ ذاك وراء ظهره وهو عنوان هلاكه. فتحصَّل الإخبار بهذه الكتب ابتداء واستقراراً وتفريقها يوم العرض، وافتتحت السورة بذكر انشقاق السماء، ومد الأرض، وإلقائها ما فيها وتخليها، تعريفاً لهذا اليوم العظيم بما يتذكر به من سبقت سعادته، والمناسبة بينة.

سورة البروج[1]

وردت هذه السورة في معرض الالتفات والعدول إلى إخبار نبي الله ﷺ بما تضمنته هذه السورة من قصة أصحاب الأخدود، وقد تقدم هذا الضرب في سورة المجادلة وسورة النبأ، وبينا وقوعه في أنفس السور وبينها، وهو أقرب فيما بين السورتين وأوضح.

سورة الطارق

لما قال تعالى: في سورة البروج: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج: ٢٠]، وكان في ذلك تعريف العباد بأنه سبحانه لا يغيب عنه شيء ولا يفوته هارب، أردف ذلك بتفصيل يزيد في إيضاح ذلك التعريف الجملي، من شهادته سبحانه على كل شيء، وإحاطته به، فقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ [الطارق: ٤].

فأعلم سبحانه بخصوص كل نفس بمن يحفظ أنفاسها: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]، ليعلم العبد أنه ليس بمهمل ولا مضيّع، وهو سبحانه الغني عن كتب الحفظة وإحصائهم، ولكن هي سنته حتى لا يبقى لأحد حجة ولا تعلق، وأقسم تعالى على ذلك تحقيقاً وتأكيداً يناسب المقصد المذكور.

سورة الأعلى ﷻ

لما قال سبحانه مخبراً عن عَمَهِ الكفار في ظلام حيرتهم أنهم يكيدون كيداً، وكان وقوع هذا من العبيد المحاط بأعمالهم ودقائق أنفاسهم وأحوالهم من أقبح مرتكب وأبعده عن المعرفة بشيء من عظيم أمر الخالق جلَّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، أتبع سبحانه ذلك بأمر نبيه ﷺ بتنزيه ربه الأعلى عن شنيع اعتدائهم وافترائهم، فقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] أي:

---

(١) بهامش ن١ وفي الأصل: الطارق وهو خطأ.

نزهه عن قبيح مقالهم، وقد مر التنبيه على وقوع التنزيه في أمثال هذا ونظائره، ووقوع ذلك أثناء السور وفيما بين سورة وأخرى، وأتبع سبحانه من التعريف بعظيم قدرته وعليّ حكمته ما يبين ضلالهم فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٢، ٣]، فتبارك الله أحسن الخالقين، وتنزه عما يتقوّله المفترون.

سورة الغاشية

لما تقدم تنزيهه سبحانه عما توهمه الظالمون، واستمرت آي السورة على ما يوضح تقديس الخالق جل جلاله عن عظيم مقالهم، أتبع ذلك بذكر الغاشية بعد افتتاح السورة بصورة الاستفهام تعظيماً لأمرها، فقال تعالى لنبيه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ يا محمد ﴿حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وهي القيامة، فكأنه سبحانه يقول: في ذلك اليوم يشاهدون جزاءهم، ويشتد تحسرهم حين لا يغني عنهم، ثم عرف بعظيم امتحانهم في قوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ [الغاشية: ٦] مع ما بعد ذلك وما قبله، ثم عرف بذكر حال من كان في نقيض حالهم إذ ذاك أزيد في (القرع)[1] وأدهى، ثم أردف بذكر ما نصب من الدلائل وكيف لم تغن عنهم فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾... الآيات [الغاشية: ١٧] أي: أفلا يعتبرون بكل ذلك ويستدلون بالصنعة على الصانع، ثم أمره بالتذكار.

سورة الفجر

أبدى سبحانه لمن تقدم ذكره وجهاً آخر من الاعتبار، وهو أن يتذكروا حال من تقدم من الأمم وما أعقبهم تكذيبهم واجترامهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر: ٦، ٧] إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ١٤] أي إنه لا يخفى عليه شيء من مرتكبات الخلائق،

---

(١) في ١٥: القرح.

ولا يغيب عنه ما أكنُّوه: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]. فهلَّا اعتبر هؤلاء بما يعاينونه ويشاهدونه من خلق الإبل، ورفع السماء ونصب الجبال، وتسطيح الأرض، كل ذلك لمصالحهم ومنافعهم، فالإبل لأثقالهم وانتقالهم، والسماء لسقيهم وإظلالهم، والجبال لاختزان مياههم وإقلالهم، والأرض لحلهم وترحالهم، فلا بهذا استبصروا ولا بمن خلا قبلهم من القرون اعتبروا.

ألم يروا كيف فعل بعاد على عظيم طغيانها وصميم بهتانها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]، سيتذكرون حين لا ينفع التذكر: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٣].

سورة البلد

لما أوضح سبحانه حال من قدم ذكره في السورتين في عظيم حيرتهم، وصف غفلتهم وما أعقبهم ذلك من التذكر تحسراً حين لا ينفع، والتندم ولات حين مطمع، أتبع ذلك بتعريف نبيه ﷺ بأن وقوع ذلك منهم إنما جرى على حكم السابقة التي شاءها والحكمة التي قدرها، كما جاء في الموضع الآخر: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، فأشار تعالى إلى هذا بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] أي: إنا خلقناه كذلك ابتلاء ليكون ذلك قاطعاً لمن سبق له الشقاء عن التفكر والاعتبار: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]، فأعماهم بما خلقهم فيه من الكبد، وأغفل قلوبهم فحسبوا أنه لا يقدر عليهم أحد.

وقد بيَّن سبحانه فعله هذا بهم في قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، أفأنت يا محمد تشاهدهم ذوي أبصار وآلات بها يعتبر النظار: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد: ٨، ٩]، فهلَّا أخذ في خلاص نفسه واعتبر بحاله وأمسه، ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١]، ولكن إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له.

سورة والشمس

لما تقدم في سورة البلد تعريفه تعالى: بما خلق فيه الإنسان من الكبد، مع ما حصّل له سبحانه من آلات النظر، وبسط له من الدلائل والعبر، وأظهره في صورة من ملك قياده، وميز رشده وعناده، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، وذلك بما جعل له من القدرة الكسبية التي حقيقتها إهمام وعزم، وأنّى بالاستبداد والاستقلال؟ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]، أقسم سبحانه في هذه السورة على فلاح من اختار رشده، واستعمل جهده، وأنفق وجده ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، وخيبة من عادى هداه، واتبع هواه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠]، فبين حال الطريقين وسلوك الفريقين.

سورة الليل

لما بين قبلُ حالهم في الافتراق، وأقسم سبحانه على أن ذلك الشأن في الخلائق بحسب تقديره أزلاً: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، فقال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، فاتصل بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

ثم إن قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥] إلى: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ١٠] يلائمه تفسيراً أو تذكيراً بما الأمر عليه من كون الخير والشر بإرادته وإلهامه، وبحسب السوابق قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨]، فهو سبحانه الملهم للإعطاء والاتقاء والتصديق، والمقدر للبخل (والا . . . .)[1] والتكذيب: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ثم زاد ذلك إيضاحاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل: ١٢، ١٣] فتباً للقدرية والمعتزلة:

---

(١) في ن١: بياض، ويبدو أنه مكان لفظة ساقطة تقديرها «والاستغناء»، استنتاجاً من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥].

سورة والضحى

لما قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٨]، ثم أتبعه بقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ [الليل: ٧]، وبقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل: ١٢، ١٣]، فلزم الخوف والاشتداد والفزع، وتعين على الموجود الإذعان للتسليم والتضرع في التخلص والنجاة إلى السميع العليم، أنّس جل وتعالى أحب عباده إليه وأعظمهم منزلة لديه، وذكر له ما منحه من تقريبه واجتبائه وجمع خير الدارين له، فقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ١ ـ ٤].

ثم عدد عليه تعالى نعمه بعد وعده الكريم له بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: ٥]، وأعقب ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى: ٩، ١٠]، فقد آويتك قبل تعرضك، وأعطيتك قبل سؤالك، فلا تقابله بقهر من تعرض، وانتهار من سأل، وهو حاشاه عما نهاه عنه، ولكنه تذكير بالنعم، وليستوضح الطريق من وفق من أمته ﷺ، أما هو ﷺ فحسبك من تعرف رحمته ورفقه: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾... إلى: ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ثم تأمل استفتاح هذه السورة ومناسبة ذلك للمقصود، وكذا السورة قبلها، فوقع القسم في الأولى بقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] تنبيهاً على انبهام الأمر في السلوك على المكلفين، وغيبة حكم العواقب، وليناسب هذا حال المتذكر بالآيات، وما يلحقه من الخوف خفاء أمر غائب عنه من تيسيره ومصيره، واستعصاء ما به يحصل اليقين، واستصعاب ترقي درجات المتقين، ثم لم يكن هذا غائباً بالجملة عن آحاد المكلفين، أعني ما يثمر العلم اليقين ويعلي من أهّل للترقي في درجات اليقين، بل قد يطلع سبحانه خواص عباده على ما به التقوى والاعتبار على واضحة السبيل، ويريهم مشاهدة وعياناً ما قد

انتهجوا قبل سبيله بمشقة النظر في الدليل، قال ﷺ لحارثة: وجدت فالزم، وقال مثله للصديق، وقال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣١]، فلم يسبق في حق هؤلاء كل ذلك الإبهام ولا كدر حولهم متكاثف ذلك الإظلام، لما منحهم سبحانه من نعمة الإحسان بما وعدهم في قوله: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فعمل هؤلاء على بصيرة، واستدلوا اجتهاداً بتوفيق ربهم على أعمال جليلة خطيرة، فقطعوا عن الدنيا الآمال، وتلهفوا لآخرتهم بأوضح الأعمال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. فلابتداء الأمر وشدة الإبهام والإظلام أشار قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، ولما تؤول إليه الحال في حق من كتب في قلبه الإيمان وأيده بروح منه أشار قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢]، ولانحصار السبل وإن تشعبت في طريقين: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وأشار قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣]، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] إلى الله الواحد مطلقاً. فقد وضح لك ـ إن شاء الله ـ بعض ما قصد من تخصيص هذا القسم، والله أعلم.

أما سورة والضحى فلا إشكال في مناسبة استفتاح القسم بالضحى لما بشره به سبحانه وما منحه، لا سيما إذا اعتبر ما ذكر من سبب نزول السورة، وأنه ﷺ كان قد فتر عنه الوحي حتى قال بعض الكفار: قلى محمداً ربه، فنزلت السورة مفسرة النعمة والبشارة[1].

---

(١) انظر في ذلك: أسباب النزول للواحدي: ٣٣١.

سورة ألم نشرح

معنى هذه السورة من معنى السورة قبلها، وحاصل السورتين تعداد نعمه سبحانه عليه ﷺ.

فإن قلت: فلم فصلت سورة ألم نشرح ولم ينسق ذكره هذه النعم في سورة واحدة؟.

قلت: من المعهود في البشر، وفيمن عنده على ولده أو عبده نعماء أن يذكر له أولاً ما شاهد الحصول عليه منها بكسبه مما يمكن أن يتعلق في بعضها بأن ذلك وقع جزاء لا ابتداء، فإذا استوفى له ما قصده من هذا أتبعه بذكر نعم ابتدائية قد كان ابتداؤه لها قبل وجوده، كقول الأب مثلاً لابنه: ألم أختر لأجلك الأم والبقعة حيث استولدتك، وأعددت لك من مصالحك كذا وكذا.

ونظير ما أشرنا إليه قوله سبحانه لزكرياء عليه السلام: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، وقد تقدم له: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧]، وتوهم الكسبية والاستبداد في وجود الولد غير خافيه في حق من قصر نظره ولم يوفق، فابتدئ بذكرها، ثم أعقب بما لا يمكن أن يتوهم فيه ذلك وهو قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، وله نظائر من الكتاب وعليه جاء ما ورد في هاتين السورتين، والله أعلم.

سورة والتين

هذه السورة موضحة ومتممة للمقصود في السورتين قبلها، بيان ذلك أن الصورة الإنسانية بظاهر الأمر مما هي عليه من الترتيب والإتقان قد كانت تقتضي بظاهرها ارتباط الكمال بها، من حيث إنها في أحسن تقويم، ولا افتراق يبدو في الظاهر، فكيف افترق الحكم واختلف السّلوك؟

فمن صاعد بالاستيضاح والامتثال، ونازل إلى أسفل سافلين، فضلاً عن ترقي بعض درجات الكمال، فإذاً ليس ترقي من خص بمزية التقريب إلا أنه

نودي من قريب فأسرع في إجابة مناديه وأصاخ وما جعل يجافيه، فسلك من واضحة السبيل ما رسم له، وبنى على ما كتب له من ذلك عمله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]، فعلى العاقل المنصف من نفسه أن يعلم أن كلاً من عند الله فيضرع إلى خالقه في طلب الخلاص، ومن وجد خيراً فليحمد الله.

فأوضحت هذه السورة أن ما أعطى الله نبيه ﷺ، وخصه به من ضروب الكرامات، وابتدأه به من عظيم الآلاء، مما تضمنته السورتان قبل، إلى ما منحه من خير الدارين وما تضمن قسمه سبحانه له، أنه ما ودعه ولا قلاه، من الملاطفة والتأنيس ودلائل الحب والتقريب، كل ذلك فضل منه تعالى وإحسان، لا لعمل تقدم يستوجب ذلك أو بعضه، ولو تقدم عمل لم يقع إلا بمشيئته وتوفيقه وإرادته، ولا يستوجب أحد عليه شيئاً وإنما هو فضله يوتيه من يشاء، فقال سبحانه منبهاً على ما وقع الإيماء إلى بعضه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

ومع ذلك لا ينفعه وقوع صورته الظاهرة في عالم الشهادة على أكمل خلق وأتم وضع، بل إذا لم يصحبه توفيق وسبقته سعادة من خالقه، ولم يجعل له نوراً يمشي به، لم ير غير نفسه، ولا عرف إلا أبناء جنسه، فقصر نظره على أول ما شاهد، ووقف عند ما عاين من غير اعتبار يجره إلى تحقق حاله وتبين محاله: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فلما قصر وما أبصر اعتقد لنفسه الكمال وعمي عن المبدإ والمآل، فصار أسفل سافلين حيث لم ينتفع بآلات نظره، ولا تعرف حقيقة خبره: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٧، ٧٨].

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٦] فهم الذين هداهم ربهم بإيمانهم، فجروا بسنة من خلقهم في أحسن تقويم، واستوضحوا الصراط المستقيم واستبصروا، ونظروا فاعتبروا، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

سورة العلق

لما قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين: ٧، ٨]، وكأن معنى ذلك: أي شيء يحمل على هذا بعد وضوح الأمر وبيانه؟ وقد نزهه تعالى عن التكذيب بالحساب وأعلى قدره عن ذلك، ولكن سبيل مثل هذا إذا ورد كسبيل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وبابه، وحكم هذا القبيل واضح في حق من تعدى له الخطاب وقصد بالحقيقة به من أمته ﷺ: من حيث عدم العصمة وإمكان تطرق الشبهات والشكوك إليهم، فتقدير الكلام: أي شيء يمكن فيه أن يحملكم على التوقف أو التكذيب بأمر الحساب وقد وضح لكم ما يرفع الريب ويزيل الإشكال؟ ألم تعلموا أن ربكم أحكم الحاكمين؟ أفيليق به وهو العليم الخبير أن يجهل اختلاف أحوالكم في السلوك بعد خلقكم في أحسن تقويم؟ أفيحسن أن يفعل ذلك عبثاً وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

فلما قرر سبحانه العبيد على أنه أحكم الحاكمين، مع ما تقدم ذلك من موجب نفي الاسترابة في وقوع الجزاء إذا اعتبر ونظر، وقعت في الترتيب سورة العلق مشيرة إلى ما به يقع الشفاء، ومنه يعلم الابتداء والانتهاء، وهو كتابه المبين الذي جعله تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، فأمر بقراءته ليدبروا آياته فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، اقرأ مستعيناً به فسوف يتضح سبيلك وينتهج دليلك، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، وأيضاً فإنه تعالى أعلم عباده بخلقه الإنسان في أحسن تقويم ثم رده إلى أسفل سافلين، وحصل منه على ما تقدم بيانه افتراق الطرفين وتباين الغايتين، وكل ذلك بسابق حكمته وإرادته: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].

وقد بين سبحانه لنا غاية ينالها أكرم خلقه وأجل عباده لديه من الصنف الإنساني، وذلك فيما أوضحته السورتان قبل من حال نبينا المصطفى ﷺ

وجليل وعده الكريم له في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥]، وفصل حال ابتداء ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ على تقدم سؤال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ﴾ [طه: ٢٥]، إلى ما أشارت إليه آي السورتين من خصائصه الجليلة، وذلك أعلى مقام يناله أحد ممن ذكر، فوقع تعقيب ذلك بسورة تضمنت الإشارة إلى حال من جعل في الطرف الآخر من الجنس الإنساني، وذلك حال من أشير إليه من لدن قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ [العلق: ٩، ١٠] إلى قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [العلق: ١٩]، وليظهر تفاوت المنزلتين، وتباين ما بين الحالين، وهي العادة المطردة في الكتاب، ولم يقع صريح التعريف هنا كما وقع في الطرف الآخر ليتطابق المقصود.

(فصـــل)

ولعل بعض من لم يتفطن يعترض هنا بأن هذه السورة من أول ما نزل، فكيف يستقيم مرادك من ادعاء ترتيبها على ما تأخر عنها نزولاً؟ فنقول له: وأين غاب اعتراضك في عدة سور مما تقدم؟ بل في معظم ذلك؟ وإلا أفليست سورة البقرة من المدني ومقتضى تأليفنا هذا بناء ما بعدها من السور - على الترتيب الحاصل في مصحف الجماعة - إنما هو عليها، وفي ما بعدها من المكي ما لا يحصى؟ فإنما غاب عنك ما قدمنا في خطبة هذا الكتاب من أن ترتيب السور على ما هي عليه راجع إلى فعله ﷺ، كان ذلك بتوقيف منه ﷺ أو باجتهاد الصحابة على ما قدمناه. فارجع بصرك، وأعد في الخطبة نظرك، والله يوفقنا إلى اعتبار بيانه وتدبر آياته، ويحملنا في ذلك على ما يقرب إليه بمنه وفضله.

سورة القدر

وردت تعريفاً بإنزال ما تقدم الأمر بقراءته، لما تقدمت الإشارة إلى عظيم أمر الكتاب، وأن السلوك إليه سبحانه إنما هو من ذلك الباب، أعلم سبحانه بليلة إنزاله، وعرفنا بقدرها لنعتمدها في مظان دعائنا وتعلق رجائنا، ونبحث عنها بالاجتهاد بالليل لعلنا نوافقها، وهي كالساعة من يوم الجمعة في

إبهام أمرها مع جلالة قدرها، ومن قبيل الصلاة الوسطى، ولله سبحانه في إخفاء ذلك أعظم رحمة، وكأن في التعريف بعظيم قدر هذه الليلة التعريف بجلالة المنزل فيها، فصارت سورة القدر من تمام ما تقدم، وتبين اتصالها بها.

سورة البريئة (سورة البينة)

هي من كمال ما تقدمها، لأنه لما أمر ﷺ بقراءة كتابه الذي به اتضحت سبيله وقامت حجته، وأتبع ذلك بالتعريف بليلة إنزاله وتعظيمها بعظيم ما أهلت له مما أنزل فيها، أتبع ذلك بتعريفه ﷺ بأن هذا الكتاب هو الذي كانت يهود تستفتح به على مشركي العرب وتعظم أمره وأمر الآتي به حتى إذا حصل ذلك مشاهداً لهم كانوا أول كافر، فقال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة: ١] إلى قوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وفي التعريف بهذا تأكيد ما تقدم بيانه، مما يثمر الخوف وينتج بإذن الله التسليم، والتبري من ادعاء حول أو قوة، فإن هؤلاء قد كان قدم إليهم في أمر الكتاب والآتي به: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقد كانوا يؤملون الانتصار به ﷺ من أعدائهم ويستفتحون بكتابه، فرحم الله من لم يكن عنده علم منه كأبي بكر وعمر ونظرائهما ﭫ، وحرم هؤلاء الذين قد كانوا على بصيرة من أمره وجعلهم بكفرهم شر البريئة، ورضي عن الآخرين ورضوا عنه، وأسكنهم في جواره ومنحهم الفوز الأكبر والحياة الأبدية، وإن كانوا قبل بعثته ﷺ على جهالة وعمى، فلم يضرهم إذ قد سبق لهم في الأزل: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

سورة الزلزلة

وردت عقيب سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ ليبين بها حصول جزاء الفريقين ومآل الصنفين المذكورين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [البينة: ٦]،

إلى قوله: ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البينة: ٧] إلى خاتمة السورة. ولما كان حاصل ذلك افتراقهم على صنفين، ولم يقع تعريف بتباين أحوالهم، أعقب ذلك بمآل الصنفين واستيفاء جزاء الفريقين المجمل ذكرهم فقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦﴾ [الزلزلة: ٦] إلى آخر السورة.

سورة العاديات

أقسم سبحانه على حال الإنسان بما هو فقال: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: ٦] أي: لكفور يبخل بما لديه من المال، كأنه لا يجازى ولا يحاسب على قليل ذلك وكثيره من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ وكأنه ما سمع بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٨] أي المال، ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لبخيل، ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ [العاديات: ٧] وإنه على ذلك لمطلع، أفلا نظر في أمره وعاقبة مآله، ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات: ٩ ـ ١٠] أي: ميز ما فيها من الخير والشر ليقع الجزاء عليه، ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾ [العاديات: ١١]، لا يخفى عليه شيء من أمرهم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

سورة القارعة

لما قال سبحانه: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات: ٩، ١٠] كان ذلك مظنة للسؤال متى ذلك؟ فقيل: يوم القيامة، الهائل الأمر، الفظيع الحال، الشديد البأس، والقيامة هي القارعة، وكررها تعالى تعظيماً لأمرها كما قال: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقة: ١، ٢]، وكما قال: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، ثم زاد عظيم هولها إيضاحاً بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: ٤]،

والفراش ما تهافت في النار من البعوض، والمبثوث المنتشر. ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: ٥] والعهن الصوف المصبوغ، وخص لإعداده للغزل إذ لا يصبغ لغيره بخلاف الأبيض إذ لا يلزم فيه ذلك، ثم ذكر حال الخلق في وزن الأعمال، وصيرورة كل فريق إلى ما كتب له وقدر.

سورة التكاثر

لما تقدم ذكر القارعة وعظيم أهوالها، أعقبت بذكر ما شغل عنها، وصد عن الاستعداد لها، وألهى عن ذكرها، وهو التكاثر بالعدد والقرابة والأهلين فقال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، وهو في معرض التهديد والتقريع. وقد أعقب بما يعضد ذلك وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التكاثر: ٣، ٤]، ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]، وحذف جواب لولا والتقدير: لو تعلمون علم اليقين لما شغلكم التكاثر، قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً...» الحديث[1]، وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦] جواب القسم مقدر، أي: والله لترون الجحيم، وتأكد بهذا التهديد، وكذا بما بعد إلى آخر السورة.

سورة والعصر

لما قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، وتضمن ذلك الإشارة إلى قصور نظر الإنسان وحصر إدراكه في العاجل دون الآجل الذي فيه فوزه وفلاحه، وذلك لبعده عن العلم بموجب الطبع ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، أخبر سبحانه أن ذلك شأن الإنسان بما هو إنسان فقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١، ٢]، فالقصور شأنه، والظلم طبعه، والجهل جبلته، فيحق أن يلهيه التكاثر إلا أن يدخل عليه روح الإيمان: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

---

(١) البخاري: كسوف: ٢، مسلم: صلاة: ١١٢.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣]، فهؤلاء الذين لا يلهيهم التكاثر: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

سورة الهمزة

لما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ٢] أتبعه بمثال من ذكر نقصه وقصوره واغتراره، وظنه الكمال بنفسه حتى يعيب غيره، واعتماده على ما جمعه من المال ظناً أنه يخلده وينجيه، وهذا كله هو عين النقص الذي هو شأن الإنسان، وهو المذكور في السورة قبل فقال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: ١] وافتتح تعالى بذكر ما أعد له من العذاب جزاء على همزه ولمزه الذي أثمره خسره. والهمزة العتّاب الطّعّان، واللّمزة مثله، ثم ذكر تعالى مآله ومستقره بقوله: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ٤] أي ليطرحن في النار جزاء على اغتراره وطعنه.

سورة الفيل

لما تضمنت سورة الهُمَزَة ذكر اغترار من فتن بماله حتى ظن أنه يخلده، وما أعقبه ذلك، أتبع هذا بذكر أصحاب الفيل الذين غرهم تكاثرهم، وخدعهم امتدادهم في البلاد واستيلاؤهم، حتى هموا بهدم البيت المحرم، فتعجلوا النقمة، وجعل الله كيدهم في تضليل ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣] أي: جماعات متفرقة ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤﴾ [الفيل: ٤] حتى استأصلتهم وقطعت دابرهم ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾ [الفيل: ٥]، وأثمر لهم ذلك اغترارهم وتوفر حظهم من الخسر المتقدم.

سورة قريش

لا خفاء باتصالها، أي إنه تعالى فعل ذلك بأصحاب الفيل ومنعهم عن بيته وحرمه لانتظام شمل قريش، وهم سكان الحرم وقطان بيت الله، وليؤلفهم بهاتين الرحلتين فيقيموا بمكة أمن ساحتهم.

سورة الدين[1]

لما تضمنت السور المتقدمة من الوعيد لمن انطوى على ما ذكر فيها ـ مما هو جارٍ على حكم الجهل والظلم الكائنين في جبلة الإنسان ـ ما تضمنت كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ٦]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ٢]، ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾ [الهمزة: ٣]، وانجر أثناء ذلك مما تثمره هذه الصفات الأولية ما ذكر أيضاً فيها كالشغل بالتكاثر والطعن في النّاس ولمزهم والاغترار المهلك أصحاب الفيل، أتبع ذلك بذكر صفات قد توجد في المنتمين إلى الإسلام أو يوجد بعضها، أو أعمال من يتصف بها وإن لم يكن من أهلها، كدعّ اليتيم، وهو دفعه عن حقه وعدم الرفق به، وعدم الحض على إطعام المسكين، والتغافل عن الصلاة والسهو فيها، والرياء بالأعمال، ومنع الزكاة والحاجات التي يضطر فيها الناس بعضهم إلى بعض، ويمكن أن يتضمن اسم الماعون هذا كله، ولا شك أن هذه صفات توجد في المنتمين إلى الإسلام، فأخبر تعالى أنها من صفات من يكذب بيوم الدين ولا ينتظر الجزاء والحساب، أي إن هؤلاء هم أهلها.

ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً»[2]، وقوله: «لا يزنى الزاني حين يزني وهو مؤمن»[3]، وهذا الباب كثير في الكتاب والسنة وقد بسطته في كتاب: إيضاح السبيل في حديث جبريل[4].

فمن هذا القبيل عندي ـ والله أعلم ـ قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون: ١، ٢] أي إن هذه الصفات: من دفع اليتيم، وبُعد الشفقة عليه، وعدم الحض على إطعامه، والسهو عن الصلاة، والمراءاة بالأعمال، ومنع الحاجات، إنما هذه كلها من

---

(١) يريد سورة الماعون.

(٢) سنن أبي داود: سنة ١٥، مسند أحمد: ٢/ ٥٠.

(٣) ابن ماجه: فتن ٣.

(٤) لم تورد كتب التراجم اسم هذا الكتاب من ضمن مؤلفات ابن الزبير.

شأن المكذب بالحساب والجزاء، لأن نفع البعد عنها إنما يكون إذ ذاك، فمن صدق به جرى في هذه الخصال على السنن المشكور والسعي المبرور، ومن كذب به لا يبالي بها وتأبط جميعها، فتنزهوا أيها المؤمنون عنها فليست من صفاتكم في أصل إيمانكم الذي بايعتم عليه: ومن تشبه بقوم فهو منهم[1]، فاحذرُوا هذه الرذائل، فإن دعَّ اليتيم من الكبر الذي أهلك أصحاب الفيل، وعدم الحض على إطعامه إنما هو فعل البخيل الذي يحسب أن ماله أخلده، والسهو في الصلاة ثمرة إلهاء التكاثر والشغل بالأموال والأولاد، فنهى سبحانه عباده عن هذه الرذائل التي ثمرها ما تقدم، والتحمت السور.

سورة الكوثر

لما نهى عباده عما يلتذ به من أراد الدنيا وزينتها من الإكثار، والكبر، والتغرر بالمال والجاه، وطلب الدنيا، أتبع ذلك بما منح نبيه مما هو خير مما يجمعون، وهو الكوثر وهو الخير الكثير، ومنه الحوض الذي ترده أمته في القيامة، لا يظمأ من شرب منه، ومنه مقامه المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون عند شفاعته العامة للخلق، وإراحتهم من هول الموقف، ومن هذا الخير ما قدم له في دنياه: كتحليل الغنائم والنصر بالرعب والخلق العظيم، إلى ما لا يحصى من خير الدنيا والآخرة، فبعض ذلك خير من الدنيا وما فيها، إذ لا تعدل الدنيا بجملتها وما فيها واحدة من هذه العطايا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨]، ومن الكوثر والخير الذي أعطاه الله كتابه المبين الجامع لعلم الأولين والآخرين والشفاء لما في الصدور.

ولما كمّل سبحانه له من النعم ما لا يأتي عليه حصر، مما لا يناسب أدناه نعيم الدنيا بجملتها، قال له منبهاً على عظيم ما أعطاه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: ١٣١]، إلى قوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، فقد اضمحل في جانب نعمة الكوثر الذي أوتي كل ما ذكره تعالى في الكتاب من

---

(١) سنن أبي داود: لباس: ٤.

نعيم أهل الدنيا وتمكن من تمكن منهم، وهذا أحد موجبات تأخير هذه السورة، فلم يقع بعد ما ذكر شيء من نعيم الدنيا، ولا ذكر أحد من المتمتعين بها لانقضاء هذا الغرض وتمامه، وسورة الدين[1] آخر ما تضمن الإشارة إلى شيء من ذلك كما تقدم من تمهيد إشارتها، وتبين بهذا وجه تعقيبها، والله سبحانه أعلم.

سورة الكافرون

ولما اقتضى ذكر الفريقين المتردد ذكرهما في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره، على اختلاف أحوال كل فريق وشتى درجاتهم، وأعني بالفريقين من أشير إليهما في قوله سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فهذا طريق أحد الفريقين، وقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، إشارة إلى من كان في الطريق الآخر من حال أولئك الفريق، إذ ليس إلا طريق السلامة أو طريق الهلاك، ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

والسالكون طريق السلامة على درجات، فأعلى درجاتهم مقامات الرسل والأنبياء ﷺ، ثم يليهم أتباعهم من صالحي العباد وعلمائهم العاملين وعبّادهم، وأهل الخصوص منهم والقرب، ثم أحوال من تمسك بهم مختلفة وإن جمعهم جامع واحد وهو قوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ﴾، وأما أهل التنكب عن هذا الطريق وهم الهالكون فعل طبقات أيضاً، ويضم جميعهم طريق واحدة، فكيفما تشعبت الطرق فإلى هاتين ترجع، وباختلاف سبل الجميع عرّفت آي الكتاب، وفصلت ذلك كله تفصيلاً لا يبقى معه ارتياب لمن وفّق.

فلما انتهى ذلك كله بما يتعلق به، وتداولت بيانه الآي من لدن قوله بعد أم القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] إلى قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝﴾ [الكوثر: ٣] أتبع ذلك بالتفاضل والتسجيل فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا

---

(١) يريد سورة الماعون.

﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ ①﴾ [الكافرون: ١]، فبين سبحانه أن من قضي عليه بالكفر والموافاة عليه لا سبيل له إلى خروجه عن ذلك، ولا يقع منه الإيمان أبداً. ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، ولو أنهم بعد عذاب الآخرة ومعاينة البعث وعظيم تلك الأهوال، أو سؤالهم الرجوع إلى الدنيا وقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧]، فلو أجيبوا إلى هذا وأرجعوا لعادوا إلى حالهم الأولى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] تصديقاً لكلمة الله وإحكاماً لسابق قدره: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩] فقل لهم: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ② وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ③﴾ [الكافرون: ٢، ٣] إلى قوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] فتبارأ الفريقان، وارتفع الإشكال، واستمر كل على طريقه: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨]. فتأمل موقع هذه السورة وأنها الخاتمة لما قصد في الكتاب يَلُحْ لك وجه تأخيرها، والله سبحانه أعلم.

سورة الدين[1]

لما كمل دينه، واتضحت شريعته، واستقر أمره ﷺ، وأدى أمانة رسالته حق أدائها، عرّف ﷺ (بانتهاء أمره)[2] وانقضاء حياته، وجعلت له على ذلك علامة دخول النّاس في دين الله جماعات بعد التوقف والتثبط، حكمة بالغة منه سبحانه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وأمر ﷺ بالإكثار من الاستغفار المشروع في أعقاب المجالس وأطراف النهار وخواتم المآخذ لما عسى أن يتخلل من لغو أو فتور، فشرع سبحانه الاستغفار ليحرز لعباده من حفظ أحوالهم ورعي أوقاتهم ما يفي بعليّ أجورهم كما وعدهم. ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

---

(١) يريد سورة النصر.

(٢) في ن١: بانتهاء أمره وعمره.

وقد بسطت ما أشارت إليه هذه السورة العظيمة ـ وكل كلام ربنا عظيم ـ فيما قيدته في غير هذا.

وإن أبا بكر ﷺ عرف منها أن رسول الله ﷺ نُعيت إليه نفسه الكريمة بِنعي ربه، وعرّف بدنو أجله، وقد أشار إلى هذا الغرض أيضاً ما يُعد من الواقع في هذه السورة قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾... الآية [المائدة: ٣]، وسورة براءة، وأفعاله ﷺ في حجة الوداع، لكن لم يبلغنا استشعار أحد من الصحابة الأمر إلا من هذه السورة، وهي التي عرّفت بإشارة براءة وآية المائدة تعريفاً شافياً، واستشعر الناس عام حجة الوداع وعند نزول براءة ذلك لكن لم يستيقنوه، وغلبوا أرجاءهم في حياته ﷺ، ومنهم من توقف، فلما نزلت سورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] استيقن أبو بكر استيقاناً حمله على البكاء لمّا قرأها رسول الله ﷺ.

سورة تبت

هذه السورة وإن نزلت على سبب خاص، في قصة معلومة[(١)]، فهي مع ما تقدمها واتصل بها في قوة أن لو قيل: قد انفظ يا محمد عمرك، وانتهى مما قلدته من عظيم أمانة الرسالة أمرك، وأديت ما تحملته، وحان أجلك، وأمارة ذلك دخول الناس في دين الله أفواجاً، واستجابتهم بعد تلكئهم، والويل لمن عاند وعدل عن متابعتك وإن كان أقرب الناس إليك، فقد فصلت سورة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ بين أوليائك وأعدائك، وبان بها حكم من اتبعك ومن عاداك، ولهذا سماها ﷺ: البريئة من النفاق[(٢)]، وليعلم كفار قريش وغيرهم أنه لا اعتصام لأحد من النار إلا بالإيمان، وأن القربات غير نافعة ولا مجزية شيئاً إلا مع الإيمان: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرين: ٦]، وأنتم

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي: ٣٤٤.

(٢) مسند أحمد: ٤٥٦/٥، ترمذي: دعوات: ٢٢، المستدرك تفسير: ٥٣٨/٢ وفيها براءة من الشرك.

بريئون مما أعمل، وأنا بريء مما تعملون. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وهنا انتهى أمر الكتاب بجملته.

سورة الإخلاص

ولما انقضى مقصود الكتاب العزيز بجملته عاد الأمر إلى ما كان، وأشعر العالم بحالهم من يردهم إلى حين ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، فوجودهم منه سبحانه وبقاؤهم به، وهم وجميع ما يصدر عنهم من أفعالهم وأقوالهم كل ذلك خلقه واختراعه، وقد كان سبحانه ولا عالم ولا زمان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، لا يفتقر إلى أحد ولا يحتاج إلى معين، ولا يتقيد بالزمان ولا يتحيز بالمكان.

فالحمد لله رب العالمين أهل الحمد ومستحقه مطلقاً، له الحمد في الأولى الآخرة وله الحكم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] هو الموجود الحق، وكلامه الصدق، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

فطوبى لمن استوضح آي كتاب الله، وأتى الأمر من بابه، وعرف نفسه ودنياه، وأجاب داعي الله، ولم ير فاعلاً في الوجود حقيقة إلا هو سبحانه.

ولما كمل مقصود الكتاب، واتضح عظيم رحمة الله به لمن تدبر آياته وأناب، كان مظنة الاستعاذة واللجاء من شر حاسد وكيد الأعداء، فختم بالمعوذتين من شر ما خلق وذرأ وشر الثقلين.

سورة الفلق

قد أشير إلى وجه ارتباطها آنفاً، وذلك واضح إن شاء الله.

سورة الناس

وجه تأخرها عن شقيقتها عموم الأولى وخصوص الثانية، ألا ترى عموم قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، وإبهام ما، وتنكير غاسق وحاسد،

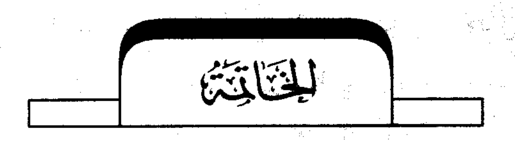
والعهد فيما استعيذ من شره في سورة الناس، وتعريفه ونعته بالعموم، ثم أتبع بالخصوص ليكون أبلغ في تحصيل ما قصدت الاستعاذة منه وأوفى بالمقصود.

ونظير هذا في تقديم المعنى الأعم، ثم إتباعه بالأخص ليتناول الجلائل والدقائق قوله سبحانه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. فمعنى الرحمن الرحيم واحد إلا في عموم الصفة الأولى، وكونها في المبالغة أبلغ، وقد تعرض لبيان ذلك المفسرون، ولذلك نظائر.

وقد تم الغرض لما قصدناه من غير ادعاء تعد عن الطور، ولا جهالة بالقدر، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

نسأله سبحانه أن يحسن نياتنا، ويستر زلاتنا، وأن ينفعنا بكتابه العزيز، وأن يجعله حجة لنا يوم تبلى السرائر، وصلى الله على محمد الصادق ببرهانه، والمتكفل ببيانه، صلاة نعتمدها وسيلة لشفاعته، وقسطاً راجحاً من طاعته، وعلى آله وصحبه وسلم كثيراً.





الخاتمة

تيسَّر لي ـ بعون من الله ـ تحقيق كتاب **«البرهان في تناسب سور القرآن»** للإمام ابن الزبير الثقفي، فكان بما كشف فيه مؤلفه من لطائف المناسبة بين السور برهاناً ساطعاً على ما في كتاب الله من عجائب لا تنتهي وأسرار لا تنفد، يجد فيه الدارسون ما يروي غلتهم على مدى الأزمان، ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

يفرق على بضع وعشرين سنة وعلى موضوعات عديدة، متقاربة حيناً ومتباينة في ظاهرها أحياناً، فيأتي سبيكة واحدة متناسج الآيات، متناسب السور، متناسق الأجزاء، في لحمة متينة، بعضه آخذ بأعناق بعض، وفي تأليف محكم حاله حال البناء المتين المتلائم، وكالكلمة الواحدة متسق المعاني منتظم المباني، وهذا لعمري وجه آخر من وجوه إعجاز هذا الكتاب، يضاف إلى وجوه إعجازه الكثيرة، فهو إلى جانب إعجازه من ناحية فصاحة ألفاظه وشرف معانيه معجز من جهة ترتيبه ونظم آياته وسوره، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

كما كان كتاب البرهان بما تجلى فيه من قدرة المؤلف الفائقة على توجيه المناسبة بين السور دليلاً آخر ـ إلى جانب كتابه ملاك التأويل ـ على مدى رسوخ قدم ابن الزبير في فهم المقاصد ومدى تمكنه من علوم الوسائل، فلا عجب أن كان أستاذ الزمان[١]، وقبلة طلاب العلم لسعة معارفه[٢].

وسيكون كتاب البرهان ـ على ما قد تقرر ـ لبنة أخرى في صرح المكتبة

---

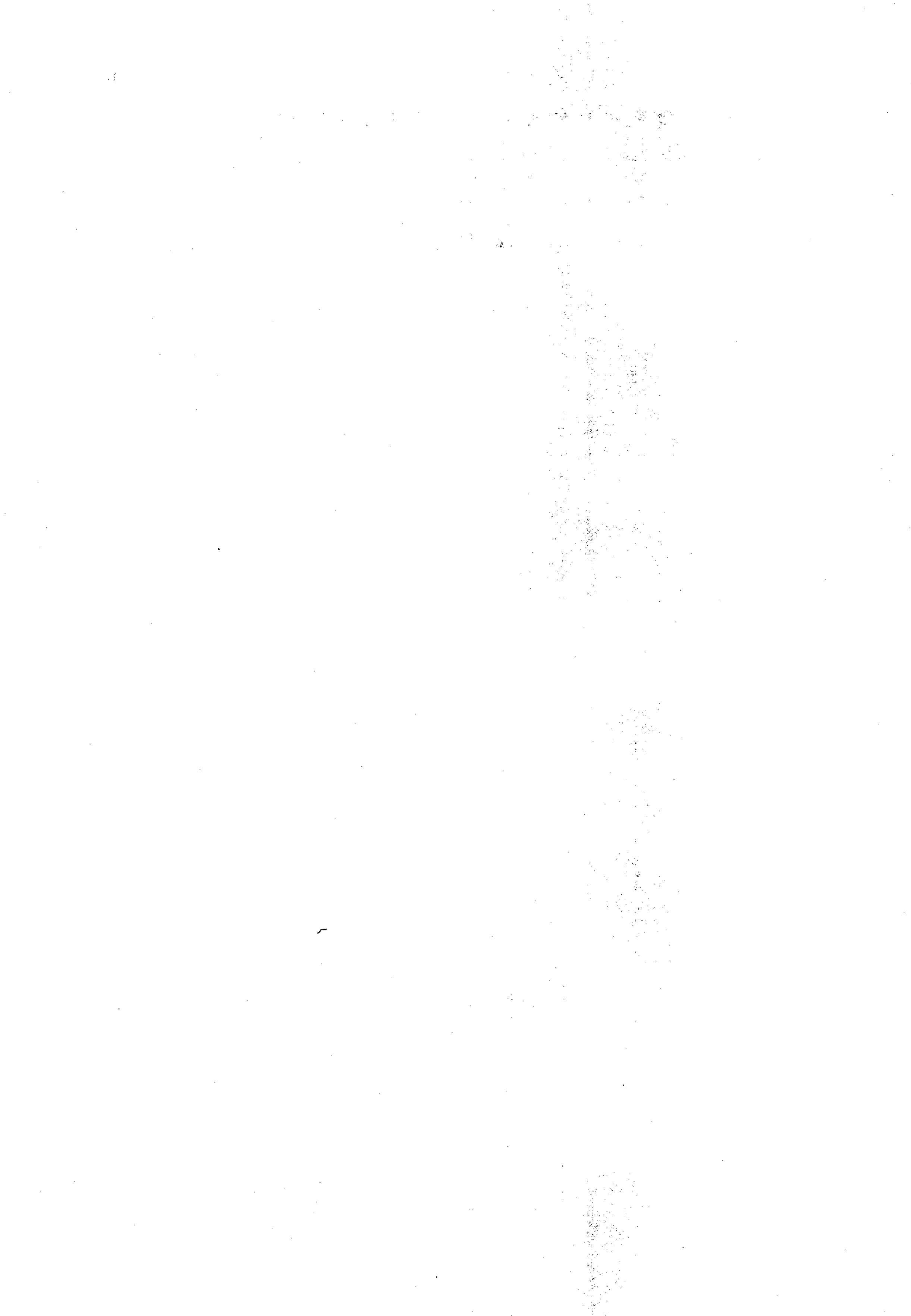
(١) نفح الطيب: ٦/ ٩٨.

(٢) الذيل والتكملة: ١/ ٣٩، الوافي بالوفيات: ٦/ ٢٢٢.

الإسلامية بوجه عام، وفي ميدان علوم القرآن بوجه خاص، وفي علم المناسبة بين السور بوجه أخص، هذا العلم الجليل، الدقيق، البعيد الغور، الذي كان ابن الزبير من العلماء القلائل الذين طرقوا بابه وسبروا غوره.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





الفهارس

فهرس الآيات

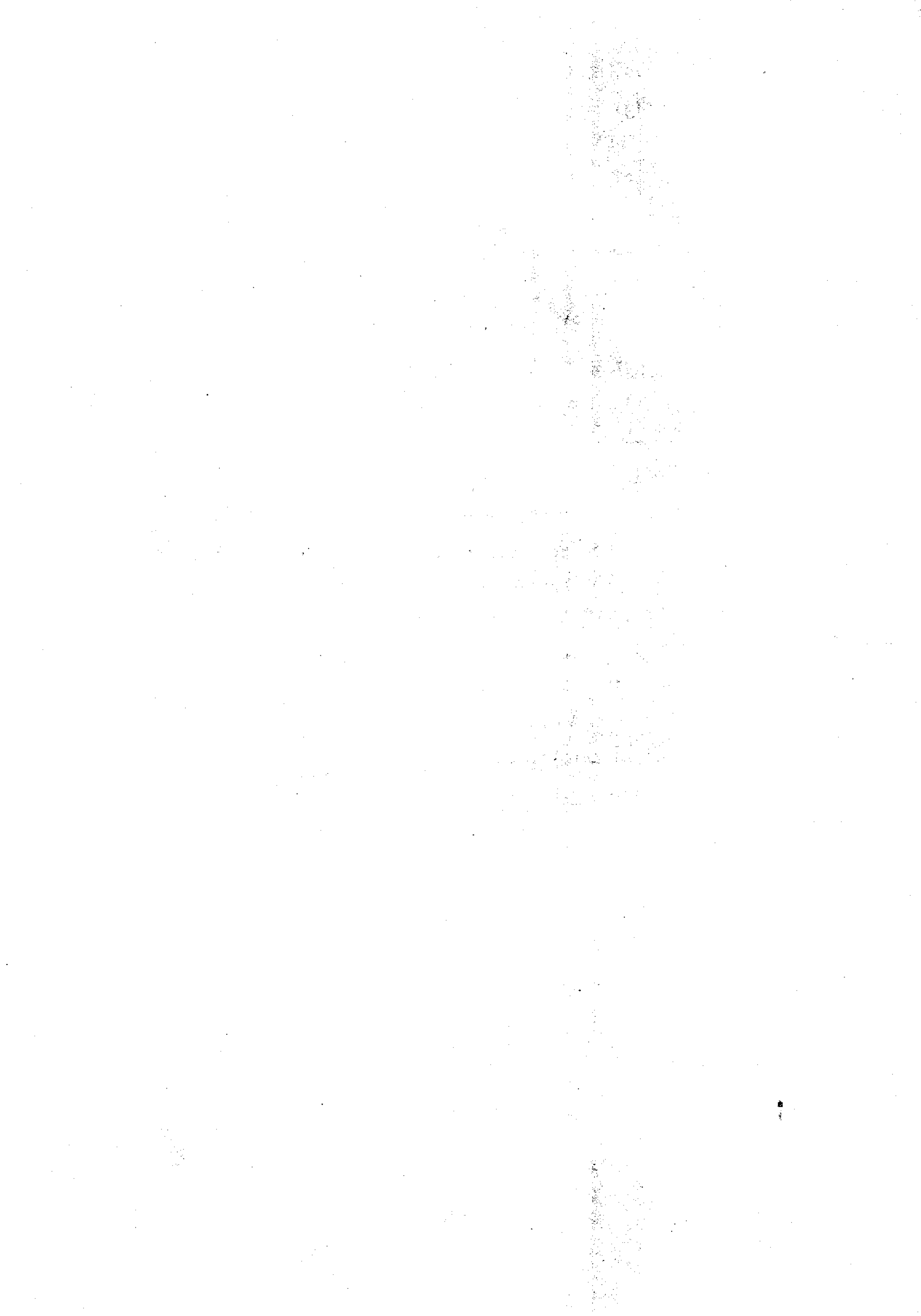
(٣) سورة آل عمران

نص الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾	٢٤	٧٦
﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾	٣٥	١٦٧
﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾	٣٦	١٢٧
﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	٣٨	١٦٧، ١٦٨
(٤٨) سورة الفتح		
﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾	١	١٦٦، ١٦٨
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٤	١٦٦
﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾	١١	١٨٦
﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	١٨	١٦٧
﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾	٢٧	١٦٧
﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾	٢٩	١٤٧، ١٦٨
(٤٩) سورة الحجرات		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾	١	١٦٩
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾	٢	١٦٩
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾	٣	١٦٩
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾	٤	١٦٩
﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾	٥	١٦٩
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾	٦	١٦٩، ١٧٠
﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾	٧	١٧٠
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾	١٣	١٣٩، ١٦٩، ١٧٠
﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾	١٧	١٧٠
(٥٠) سورة ق		
﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾	١	١٧٠
﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾	٢	١٧٠

نص الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾	٣	٢١٠
﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾	٤	٢٠٨
﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥﴾	٥	٢٣، ٢٠٨
﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧﴾	٧	٢٠٩
﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾	١٠	٢٣، ٢٠٨
﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢﴾	١٢	٢٣، ٢٠٨، ٢٠٩
﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣﴾	١٣	٢٣، ٢٠٨، ٢٠٩
(٩٣) سورة الضحى		
﴿وَٱلضُّحَىٰ ١﴾	١	٢٠٩
﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾	٢	٢٠٩
﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾	٣	٢٠٩
﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤﴾	٤	٢٠٩
﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾	٥	٢٠٩، ٢١٤
﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩﴾	٩	٢٠٩
﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠﴾	١٠	٢٠٩
(٩٥) سورة التين		
﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾	٤	٢١٢
﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦﴾	٦	٢١٢
﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧﴾	٧	٢١٣
﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾	٨	٢١٣
(٩٦) سورة العلق		
﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾	١	٤٧، ٢١٣
﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩﴾	٩	٢١٤
﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾	١٠	٢١٤
﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ١٩﴾	١٩	٢١٤

فهرس الأحاديث والآثار

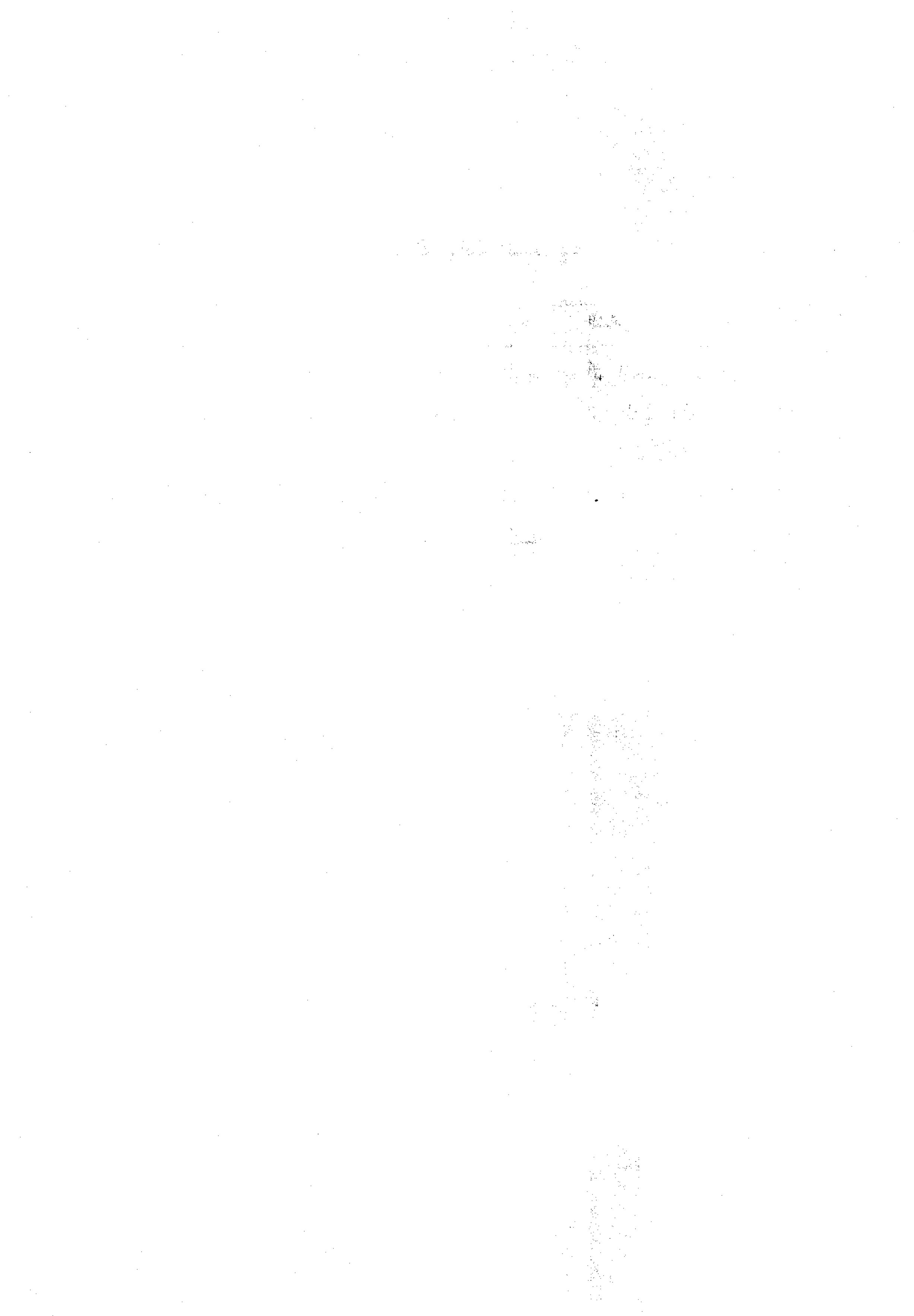
فهرس الأعلام



فهرس القبائل والجماعات والفرق

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس الأبيات الشعرية



فهرس الكتب

(أ)

(ب)

(ن)

فهرس بأهم المصادر والمراجع

مرتبة حسب المؤلفين على حروف المعجم

القرآن الكريم:

ابن الأبار (محمد بن عبد الله):

- التكملة لكتاب الصلة، جزءان، ط. روخس مجريط، ١٨٨٧م.

ابن الأثير (أثير الدين):

- أسد الغابة = ط. القاهرة، ١٩٢٨م.
- الكامل في التاريخ، ٩ مجلدات، القاهرة، ١٣٤٨هـ.
- اللباب في تهذيب الأنساب، ٣ مجلدات، بيروت.

الباقلاني (أبو بكر بن الطيب):

- نكت الانتصار، تحقيق محمد زغلول سلام، مصر، ١٩٧١م.

البخاري (محمد بن إسماعيل):

- الصحيح، ٩ أجزاء، مصر، ١٣٤٥هـ.

بروكلمان:

- تاريخ الأدب العربي، الملحق ٢، ليدن، ١٩٣٨م.

ابن بشكوال (خلف بن عبد الله):

- الصلة، مجلدان، ط. مجريط، ١٨٨٣م.

البغدادي، الخطيب (أحمد بن علي):

- تاريخ بغداد، ١٤ مجلداً، مصر، ١٣٤٩هـ.

البغدادي (إسماعيل باشا):

- إيضاح المكنون، مجلدان، تحقيق الكليسي، ط ج١ = ١٩٤٥م.
- هدية العارفين، مجلدان، ط ج١ = ١٩٥١، ط ج٢ = ١٩٥٥م.

البقاعي (برهان الدين):

- نظم الدرر في تناسب الآي والسور، مخطوط بدار الكتب الوطنية، بتونس.

الترمذي (محمد بن حسين):

- السنن، طبعة القلعي، بدون تاريخ.

تقي الدين المكي:

- لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، دمشق، ١٣٤٧هـ.

التنبكتي:

- نيل الابتهاج، على هامش الديباج لابن فرحون، مصر، ١٣٧١هـ.

ابن الجزري (محمد بن محمد):

- غاية النهاية في طبقات القراء، مجلدين، مصر، ١٣٥١هـ.

حاجي خليفة:

- كشف الظنون، مجلدين، ط. اسطنبول، ١٩٤١م.

الحاكم (أبو عبد الله النيسابوري):

- المستدرك على الصحيحين، ٤ مجلدات، بيروت.

ابن حجر (العسقلاني):

- الدرر الكامنة، ٤ مجلدات، ط. دار الكتب الحديثة، ١٩٦٦م.
- فتح الباري، طبعة بولاق، ١٣٠١هـ.
- الإصابة في تمييز الصحابة، ٤ مجلدات، مصر ١٩٣٩م.
- تهذيب التهذيب، ١٢ مجلداً، ط. الهند، ١٣٢٧هـ.

ابن حزم (علي بن أحمد):

- الفصل في الملل والأهواء والنحل = ٣ أجزاء، ط. القاهرة، ١٣١٧هـ بهامشه الملل والنحل للشهرستاني.

ابن حنبل (أحمد):

- المسند، ٦ مجلدات، القاهرة، ١٣١٣هـ.

ابن الخطيب (لسان الدين):

- الإحاطة في أخبار غرناطة، مجلدان، تحقيق عنان، ط ٢، القاهرة، ١٩٧٣م.

ابن خلكان (أحمد بن محمد):

- وفيات الأعيان: تحقيق إحسان عباس، ط. دار صادر، ١٩٧١م.

الدارمي (عبد الله بن عبد الرحمٰن):

- سنن الدارمي، دار الفكر بيروت.

أبو داود (سليمان السجستاني):
- صحيح سنن المصطفى، مجلدان، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

الذهبي (محمد بن أحمد):
- تذكرة الحفاظ، ٤ مجلدات، حيدرا آباد، ١٣٣٤هـ.

الرازي (فخر الدين):
- التفسير الكبير، ٣٢ جزءاً، ط أولى، ١٩٥٧م.

ابن الزبير الثقفي (أحمد بن إبراهيم):
- البرهان في تناسب سور القرآن، تحقيق سعيد الفلاح.
- صلة الصلة، تحقيق لفي بروفنسال، الرباط، ١٩٣٨م.
- ملاك التأويل في توجيه متشابه اللفظ من آي التنزيل، تحقيق سعيد الفلاح، ط. دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣م.

الزرقاني:
- شرح المواهب اللدنية، طبعة أولى.

الزرقاني (محمد عبد العظيم):
- مناهل العرفان، مجلدان، القاهرة، ١٩٥٤م.

الزركشي (بدر الدين):
- البرهان في علوم القرآن، ٤ مجلدات، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ١٩٥٧م.

الزركلي (خير الدين):
- الأعلام، ١٠ أجزاء، الطبعة الثانية، ١٩٥٤م إلى ١٩٥٩م السبكي (تاج الدين).
- طبقات الشافعية، القاهرة، ١٩٢٤م.

السّخاوي (محمد بن عبد الرحمٰن):
- الضوء اللامع، ٦ مجلدات، ١٣٥٣هـ.

السهيلي (عبد الرحمٰن بن عبد الله):
- الروض الأنف، مجلدان، مصر، ١٩١٤م.

السيوطي (جلال الدين):
- الإتقان في علوم القرآن، جزءان، الطبعة الرابعة، مصر، ١٩٧٨م.
- بغية الوعاة، مجلدان، ط. الحلبي، ١٩٦٤م.

الشوكاني (محمد بن علي):
- البدر الطالع، مجلدان، القاهرة، ١٣٤٣هـ.

ابن أبي شيبة (عبد الله بن محمد):.
- المصنف، الطبعة الثانية، طبعة العضد ١٩٧٩م/١٣٩٩هـ.

صبحي الصالح:
- مباحث في علوم القرآن، ط. ٦ بيروت، ١٩٦٩م.

الصفدي (صلاح الدين خليل):
- الوافي بالوفيات، ٩ أجزاء بيسان، ١٩٧٢م.

الطبري (ابن جرير):
- تفسير جامع البيان، ٣٠ جزءاً، تحقيق محمود محمد شاكر، ط ١٩٥٧م.

ابن عبد الملك (محمد بن محمد):
- الذيل والتكملة، ٤ مجلدات، تحقيق محمد بن شريفة وإحسان عباس، بيروت.
- ابن العربي (أبو بكر).
- أحكام القرآن، ط أولى، مصر، ١٣٣١هـ.

ابن عطية (عبد الحق):
- مقدمتان في علوم القرآن، تحقيق أرثر جفري، مصر، ١٩٥٤م.

ابن عماد الحنبلي (عبد الحي):
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ أجزاء، بيروت، بدون تاريخ، عياض (أبو موسى اليحصبي، المعروف بالقاضي).
- الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، جزءان، منشورات المكتبة التجارية الكبرى ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم).
- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، مصر، ١٣٢٩هـ إلى ١٣٥١هـ ابن القاضي (أحمد بن محمد).
- جذوة الاقتباس، ط. حجرية، بدون تاريخ.
- درة الحجال، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٧٠م.

القفطي (علي بن يوسف):
- إنباه الرواة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مصر، ١٩٥٠م إلى ١٩٧٣م.

القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي):
- صبح الأعشى، ١٤ جزءاً، ط. دار الكتب، مصر، ١٣٤٠هـ.

الكتاني (محمد عبد الحي):
- فهرس الفهارس، مجلدان، فاس، ١٣٤٦ - ١٣٤٧هـ.

الكتاب (محمد بن جعفر):
- الرسالة المستطرفة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٣٣٢هـ.

كحالة (محمد رضا):
- معجم المؤلفين، ١٥ جزءاً، دمشق، ١٩٥٧ - ١٩٦١م.

ابن ماجه (محمد بن يزيد):
- سنن ابن ماجه، مجلدان تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر الحلبي بدون تاريخ.

محمد شاكر الكتيبي:
- فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، ٤ أجزاء، بيروت، ١٩٧٣م.

محمد بن شريفة:
- مدخل تاريخي إلى دراسة الشوذية، ١٩٦٥م.

محمد فؤاد عبد الباقي:
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، مصر ١٣٦٤هـ.

محمد بن محمد مخلوف:
- شجرة النور الزكية، القاهرة، ١٣٤٩هـ.

مسلم (ابن الحجاج القشيري):
- صحيح مسلم، القاهرة، ١٣٠٧هـ.
- صحيح مسلم بشرح النووي، ١٨ جزءاً، القاهرة بدون تاريخ.

المقري (أحمد بن محمد):
- نفح الطيب، ٨ مجلدات، بيروت، ١٩٦٨م.

ابن منظور (محمد بن مكرم):
- لسان العرب، ٤ مجلدات، نشر دار لسان العرب، بيروت.

النباهي (أبو الحسن):
- تاريخ قضاة الأندلس، نشر لفي بروفنسال، مصر، ١٩٤٨م.

النحاس (أبو جعفر):
- الناسخ والمنسوخ، مصر، ١٣٢٣هـ.

النسائي (أحمد بن شعيب):
- سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي، ٨ أجزاء، ط١ مصر، ١٣٤٣هـ
النووي (يحيى بن شرف).
- التبيان في آداب حملة القرآن، مصر، ١٩٦٠م.
- تهذيب الأسماء واللغات، القاهرة بدون تاريخ الهيثمي (ابن حجر).
- مجمع الزوائد، ط القاهرة، ١٣٥٢هـ.
ياقوت الحموي:
- معجم البلدان ليزغ، ١٨٦٧م.

فهرس الموضوعات العام

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة